# أحكام القـرآن الكريم
# فـــى
# موالاة الكفــار والمشركيــن

مجدى أحمد حسين

الطبعة الثانية

رقم الإيداع: ٢٠١١٣ / ٢٠٠٤

عنوان المؤلف: ٣٦ شارع الروضة - المنيل - القاهرة

تليفون وفاكس: ٣٦٤٤٠٥٥

بريد إلكترونى:

magdyhussien@hotmail.com

موقع جريدة (الشعب) على الإنترنت:

www.alshaab-eg.com

موقع حزب (العمل) على الإنترنت:

www.el3amal.net

الإشراف الفنى

طارق الكركيت

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الثانية

مرت ٤ سنوات على صدور الطبعة الأولى التى نفدت منذ زمن، ولا يزال الموضوع موضوع الساعة، مع ملاحظة أن الدراسة أجابت على الأسئلة الخمسة الأولى، ولم تستكمل النقاط الخمس المتبقية، وإن كانت دراسة «أمريكا طاغوت العصر» تتناول نفس القضية من واقع تتبع آيات القرآن الكريم، إلا أن الدراستين لم تكتملا بسبب انشغالى الحالى بدراسة «الإسلام والحكم» بالإضافة لانشغالى بالعمل العام طول الوقت، ومع ذلك فان هذه الدراسة بسطت جوهر القضية بحيث تصلح أن تمثل فى حد ذاتها موضوعا مكتملا، يمزج بين الدين والسياسة المعاصرة. لذلك - ولضيق ذات الوقت - نعيد طباعتها بإذن الله، ولكن مع إضافة دراستين فى نفس المجال لعلها تغطى أجزاء من أجوبة الأسئلة الخمسة المتبقية:

(١) الفرق بين الكفار والمشركين المحاربين وبين دول وجماعات العهد والميثاق.

(٢) متى يحارب المسلمون الكفار والمشركين؟

(٣) كيف يتعامل المسلمون مع العولمة والأمم المتحدة؟ وهل ندعو إلى مقاطعة شاملة للغرب؟ أم ندعو إلى ضوابط لعلاقات ندية؟

(٤) هل هناك فرق بين الموقف من أمريكا وإسرائيل والصهيونية من جانب والأوروبيين وباقى أهل الغرب من جانب آخر؟

(٥) ما هو الموقف من الأمم الشرقية غير الإسلامية فى آسيا والموقف من الأمم المستضعفة من أهل الجنوب عموما؟

أما الدراسة الأولى فهى حول التطبيع مع الصهاينة على ضوء الحجج التى أثارها شيخ الأزهر الحالى د. طنطاوى للدفاع عن موقفه فى التطبيع معهم.

وأما الدراسة الثانية فهى حول «حوار الحضارات» وتم تقديمها فى مؤتمر إسلامى بالخرطوم.

ولاشك أن السنوات الأربع الماضية أكدت أهمية موضوع الكتاب حيث شهد العالم الإسلامى حربين عدوانيتين فى أفغانستان والعراق لم تكتمل فصولهما، وكذلك اشتعال الانتفاضة المباركة فى فلسطين المحتلة، فى إطار حرب صليبية أمريكية صهيونية معلنة على الإسلام باسم الحرب على الإرهاب.

وأثبتت هذه الأحداث الكبرى أن مشكلة المسلمين الأولى هى موالاة حكامهم لأئمة الكفر فى عصرنا، وأن الأمة الإسلامية تؤتى من هذه الثغرة بأكثر مما تؤتى من القوات الغازية.

وبرهنت هذه الأحداث أيضا أن الهيمنة الأمريكية ـ الصهيونية لم تعد تكتف بما أسميناه «التبعية الجديدة»، بل عادت عقارب الساعة القهقرى إلى مرحلة الاستعمار التقليدى بجيوش الاحتلال، وإذا كانت المقاومة الباسلة فى العراق وأفغانستان وفلسطين قد برهنت بدورها على إمكانيات الأمة فى التصدى للبغاة المعتدين، فإن الحقيقة الراسخة التى تأكدت هى

أهمية التمسك بالموقف القرآنى الذى يحرم موالاة الكفار والمشركين المعتدين، وأن هذا الحكم يجب أن يسرى على كل الأرض الإسلامية وليس فى البلاد المحتلة بصورة مباشرة فحسب.

إن وضع صراعنا مع الغزاة المعتدين فى الإطار العقيدى، هو الضمان الأكيد لدحر مشروع الغزو العولمى وانتصار أمتنا بصورة أكيدة بإذن الله.

**﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**.

المؤلف

٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٤

# لماذا

# هذه الدراسة؟

﴿ لا يَتَّخذ الْمُؤْمنُونَ الْكَافرِينَ أَوْلِيَاءَ من دُون الْمُؤْمنين وَمَن يَفْعَلْ ذَلك فَلَيْس منَ اللَّه في شَيْءٍ ﴾ [آل عمران: ٢٨]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الْكَافرِينَ أَوْلِيَاءَ من دُون الْمُؤْمنين أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا للَّه عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافقينَ في الدَّرْك الأَسْفَلِ منَ النَّارِ وَلَن تَجدَ لَهُمْ نَصِيرا ﴾ [النساء: ١٤٤، ١٤٥]

﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُون اللَّه منْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا بطَانَةً مِّن دُونكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَت الْبَغْضَاءُ منْ أَفْوَاههِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

[آل عمران: ١١٨]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّة وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ [الممتحنة : ١]

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ قَاتَلُوكُمْ في الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

[الممتحنة : ٩]

﴿ لا تَجدُ قَوْمًا يُؤْمنُونَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢]

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّه وَالَّذينَ مَعَهُ أَشدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

[الفتح: ٢٩]

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافقينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذينَ يَتَّخذُونَ الْكَافرِينَ أَوْلِيَاءَ من دُون الْمُؤْمنينَ أَيَبْتَغُونَ عندَهُمُ الْعزَّةَ فَإِنَّ الْعزَّةَ للَّه جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة: ١٦]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧]

**صدق الله العظيم**

تدور الدراسة التالية حول أنوار وأحكام هذه الآيات التى يدور محورها حول تحريم موالاة الكفار والمشركين وتربط الدراسة بين هذه المعانى «الدستورية العامة» والأوضاع الراهنة للمسلمين فى مصر وغيرها من البلدان العربية والإسلامية.

●●●●●

## لماذا هذه الدراسة؟

يشهد عالمنا الإسلامى المعاصر حركة تجديد فقهى شاملة ولا أجدنى مدفوعاً للكتابة إلا فى نقاط محددة أجد أنها لم تستوف حقها فى إنتاج هذه الحركة المباركة، وقديما قال العلماء: «الفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا» وقد تطور الفقه الإسلامى عبر القرون لقيام العلماء بتطبيق النصوص على وقائع جديدة، وإذا استعرضنا تراثنا الفقهى العريض فلن نجد فيه بابا حول مخاطر التبعية للعالم غير الإسلامى لأن هذه المشكلة لم تكن قائمة بل كان المسلمون أكبر قوة فى العالم، أو واحدة من أكبر القوى فى العالم على أقل تقدير.

وعندما تعرض العالم الإسلامى للغزو العسكرى التقليدى سواء فى عهد الحملات الصليبية أو فى الهجمة الاستعمارية المعاصرة فى القرنين الـ

١٩، والـ٢٠ فإن الأمر لم يكن يحتاج إلى كثير اجتهاد فقد أفتى علماء المسلمين الاتقياء فى كل مكان بمحاربة ومجاهدة الغزاة الكفرة حتى إجلاءهم عن أرض المسلمين.

ويواجه العالم الإسلامى منذ عدة عقود وتحديدا منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين تحديات جديدة غير مسبوقة «بعد تحقيق الاستقلال السياسى عن الاستعمار الغربى» ألا وهى ما يسمى «التبعية الجديدة» ويتعرض العالم العربى والإسلامى منذ الستينيات والسبعينيات لموجات متوالية من محاولات السيطرة الاستعمارية الأمريكية، ولكنها لا تأخذ الأشكال التقليدية السابقة «بعثات تبشير وجيوش احتلال» ولكن أشكالا متطورة ومركبة من الهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية، والتى وصلت الآن إلى آخر طبعة تسمى «العولمة» حيث تستهدف الولايات المتحدة فى غيبة قوة مكافئة أن تسيطر على العالم فى ظل شعاراتها الفارغة وعلى رأسها أن «العالم قد أصبح قرية صغيرة» وبالتالى يتم الترويج لاتفاقية التجارة العالمية، مع تأسيس منظمة التجارة العالمية لتقوم بدور متناغم مع الدور التقليدى لصندوق النقد والبنك الدوليين، ويتواكب مع هذه المنظمات الثلاث الرئيسية مجموعة من الآليات المكملة، كالاتفاقيات الدولية حول البيئة والمرأة والسكان وحقوق الإنسان والطفل «وفقا للمفاهيم الغربية» وذلك فى إطار الأمم المتحدة وهناك آليات وفق الإطار الأمريكى كلائحة الإرهاب «التى تضم ٥ دول إسلامية من ٧ دول فى العالم» وحوار الأديان.

وهناك آليات على المستوى الغربى فى المجالات الاقتصادية والعسكرية تقودها الولايات المتحدة على رأسها قمة السبع الكبار ومنظمة حلف

شمال الأطلنطى، وفى الوقت نفسه تحتفظ الولايات المتحدة بحقها فى العمل العسكرى المنفرد خارج إطار الأطلنطى أو الأمم المتحدة كما هو الحال الآن فى حرب الاستنزاف الجوية المتواصلة التى تشنها الطائرات الأمريكية على أهلنا فى العراق.

وقد وجد حكام بلاد العرب والمسلمين الذين سقطوا فى فخ العولمة والتبعية من وعاظ السلاطين أو «العلماء الرسميين» مايزين لهم الاندماج فى هذه العملية الإجرامية، أى الذوبان فى المحيط الأمريكى الغربى الصهيونى من موقع التبعية، وقد كانت دراستى الأولى فى هذا الموضوع قد صدرت عام ١٩٩١ فى أثناء حرب الخليج الثانية بعنوان «أزمة الخليج بين أحكام القرآن وفتاوى السلطان» للرد على هذه الفئة الضالة من أدعياء العلم الإسلامى.

وكلما مرت أمتنا بمحنة جديدة شعرت بأهمية التأصيل الفقهى لموقف الأمة الإسلامية الذى يجب أن تتخذه من الحلف الصهيونى - الأمريكى.

وفى السنوات الأخيرة انتشرت فى السوق السياسية المصرية والعربية مشروعات مشبوهة عديدة «الشرق متوسطية - الشرق أوسطية - الشراكة الأوروبية» بحيث طغت على مشروعى السوق العربية المشتركة، والسوق الإسلامية المشتركة، وكثر الحديث عن العولمة باعتبارها أمرا واقعا يجب التعايش معه وتعظيم ايجابياته!

وجرى خلط متعمد بين الرابطة العالمية الإنسانية وهى رابطة كانت موجودة دوما عبر التاريخ وتزداد تعمقا مع تطور وسائل التكنولوجيا وبالأخص فى مجالى الاتصال والمواصلات.

جرى الخلط بين هذا المعنى الطبيعى وشعار «العولمة» وهو مصطلح لا وجود له فى اللغة العربية، ولا حتى فى اللغة الإنجليزية، فمصطلح globlization تم سكه خصيصا فى عهد إدارة كلينتون ليحل محل مصطلح النظام العالمى الجديد «الذى سكه بوش» وهو مصطلح «أى العولمة» يعني أشياء مادية محددة هى التى أشرنا إليها آنفا والتى تترجم فى اتفاقيات ملزمة ويتم فرضها على المستضعفين فى الكرة الأرضية وعلى رأس هؤلاء بطبيعة الحال العرب والمسلمين.

وفى مصر راجت مثلا فى السنوات الأخيرة شعارات مسمومة أخرى كـ «حوار الأديان» وهى كلمة حق يراد بها باطل.. والغرب لم يسك هذا المصطلح ويفرد من أجله عشرات المؤتمرات الدولية إلا كمظلة للتطبيع اليهودى الإسرائيلى ـ الإسلامى ولكى يبتلع المسلمون حقيقة الوجود اليهودى الاستيطانى العدوانى التوسعى فى فلسطين، فيتحاور علماء إسلاميون رسميون مع حاخامات إسرائيل فى ظل اغتصاب المسجد الأقصى والقدس وكل أراضى فلسطين.. وبعض الأراضى اللبنانية والسورية، ويعطون بذلك شرعية للعدوان اليهودى.. ويكرسون شرعية إسرائيل ككيان مغتصب توجد معه بعض الخلافات الفكرية والفقهية!!.

ولا تستهدف هذه الدراسة البحث التفصيلى لكل المجالات السابقة للعولمة ولكنها تنصب أساسا على تحديد الموقف الإسلامى من التعامل مع هذه الظواهر الدولية.. وبالأخص الحلف الصهيونى ـ الأمريكى باعتباره العدو الأول للمسلمين.. والجاثم بالفعل على أراضيهم.. والناهب لثرواتهم، ويملك من أسباب القوة المادية ما يكفى لإيذائهم.. وتستهدف هذه الدراسة الدعوة لوأد كل مظاهر التميع وإزالة الحدود الحضارية

والعقائدية بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم.. وبالأخص الأمم العدوانية المحاربة لنا، إن حملة التمييع وإزالة الحدود هذه يشنها على عقول أبناء أمتنا حلف شيطانى يضم أجنحة مؤثرة فى السلطة.. وشريحة من المثقفين العلمانيين المنهارين فكريا وأخلاقيا.. وبعض العلماء الرسميين الذين يصدرون الفتاوى حسب أوامر السلطان، لا حسب اجتهادهم وفق العلم وتقوى الله، وقد أصبح في بلادنا بالفعل لوبى صهيونى. أمريكى فى الإعلام وعالم المال والأعمال والمنظمات غير الحكومية وداخل أجهزة الدولة.. وتحلق هذا اللوبى حول أموال المعونة الأمريكية والمعونات الغربية المشبوهة المواكبة لها.. ويتولى هذا اللوبى الترويج والترسيخ لفكرة العالم الواحد الذى أصبح قرية بحيث يأتى اليهود والأمريكيون ليشرفوا على مناهج التعليم ويحددوا أولوياتنا الاقتصادية ومن يعترض على ذلك يصبح من المتخلفين غير المواكبين لتطورات العصر. أما المؤسسة الإسلامية الرسمية فهى إما عاجزة عن مقاومة هذا التيار أو مشاركة فيه مقدمة الحجج والأسانيد بل ومقدمة الأمثلة «الحضارية» بالحوار مع سفراء أمريكا ومسئوليها وحاخامات العدو الإسرائيلى.

وهذه الدراسة تخاطب جموع المسلمين الذين تأثر بعضهم بهذا التشويش المستمر على الثوابت العقائدية.. وعلى مدار أكثر من عقدين من الزمان. فقد آن أوان مواجهة هذا الباطل بمفهوم جهادى عقائدى، ولابد من تحرير بلادنا من النفوذ الصهيونى الأمريكى الذى أصبح ـ فى نتائجه ـ أسوأ من أى احتلال عسكرى تقليدى عانت منه البلاد.

إن مفهوم «تحريم موالاة الكفار والمشركين» يحتاج إلى تجلية خاصة

تربطه بظروفنا المعاصرة لإصدار الأحكام الشرعية الباتة على الذين يخرقون تعاليم القرآن الكريم.

وعلى جميع الذين يرفعون شعار «الحل الإسلامى» أن يدركوا أن مدخل الحل الإسلامى فى الظروف الراهنة للعالم الإسلامى من هذا الباب، لأنه يكرس فكرة تلاحم الأمة الإسلامية فى مواجهة أعدائها.. واحتفاظها بشخصيتها وخصوصيتها الحضارية، وعدم الاغترار بالشعارات المعسولة التى يتم استعباد الأمة بها، ويروج المنتفعون المنافقون لها.. لأن لهم مصلحة أكيدة فيها بينما تخسر الأمة دينها ودنياها.

والعودة إلى آيات القرآن الكريم التى تضبط العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات والعقائد والحضارات الأخرى تكشف اعجازا يفوق كل قدرات البشر.. فالقواعد الدستورية التى وضعها القرآن الكريم تصلح فى عموميتها لكل زمان ومكان وهى تبدو وكأنها تصف وتشخص أحوال المسلمين فى البلاد التى سقطت فى براثن التبعية الجديدة فى أواخر القرن العشرين وتضع فى الوقت نفسه الحلول وتوضح طريق الخلاص.

إن كثيرا من التفاسير القديمة للقرآن الكريم وإن أنارت لنا سبل فهم النصوص إلا أنها لم تعد مواكبة لحقائق العصر.. فكما أن التقدم العلمى أتاح لنا القدرة على المزيد من فهم بعض النصوص القرآنية بما لم يتأت للمسلمين الأوائل كالآية التى تتحدث عن غزو الفضاء:

**﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾** [الرحمن: ٣٣]

كذلك فإن بعض التطورات الاجتماعية والسياسية والحضارية تساعدنا على التعمق فى فهم معانى بعض الآيات لنكتشف لها ملامح وأعماقا لم تكن واضحة بذات الدرجة منذ قرون.

وفيما يتعلق بقضيتنا «موالاة الكفار والمشركين» سنجد كثيرا من التفاسير تتوقف عند أسباب النزول، وهذا المنحى عموما كان ولايزال شائعا فى التفسير فى شتى الموضوعات الأخرى وهو يضيق من معانى الآيات ويضعف من معانيها المجردة المطلقة، ويحول القرآن الكريم إلى كتاب تاريخ يشرح ويحلل الصراعات فى صدر الدعوة الإسلامية لا كتاب هداية يضع الموازين والقواعد للعالمين حتى يوم الدين.

وهناك سمة أخرى لتفسير هذه الآيات تنحو منحى فرديا.. أى تركز على علاقة المسلم كفرد بشخص آخر مشرك أو كافر مما يضيق كثيرا من معنى الآيات وأحكامها.. وينزع عنها طابعها الاجتماعى، وهناك من يقصر أحكام هذه الآيات على غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى تأثرا بأسباب النزول وحيث كان المنافقون واليهود والمشركون متداخلين مع المسلمين فى مجتمع واحد، وبالتالى ينتفى البعد الدولى فى حين أنه يمثل بعدا أساسيا لهذه الآيات.

ولاشك أن أسباب النزول الموثوق بها لا غنى عنها لفهم الآية.. وهى أشبه بالمذكرة التفسيرية لها.. بهدف تجلية المعنى العام المجرد للآية وللحكم العام الذى اشتملت عليه لتطبيقها على وقائع لا نهاية لها ستعترض المسلمين فى مجرى حاضرهم ومستقبلهم.

كما هو الحال فى القانون الوضعى حيث توجد نصوص عامة مجردة مشفوعة بمذكرة تفسيرية شارحة.. ولكن تظل النصوص العامة المجردة

تعمل بانفصال نسبى عن المذكرة التفسيرية عندما تستخدم فى المحاكم للحكم على الوقائع المتنوعة التى تعرض على القضاء. لأن المذكرة تشرح مغزى ومعنى المادة القانونية ولكنها لا تحدد مسبقا احتمالات الوقائع المتجددة بلا نهاية التى تنطبق عليها.

ولنضرب مثلا واحدا لتوضيح ما نقصد، ففى أحد التفاسير لمعنى الآية:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]

قصر المفسر معنى الآية على أنها رخصة لمسلمى المدينة لمواصلة صلة الرحم مع أقاربهم المشركين.. وبذلك تحولت الآية إلى مجرد حكم ببر الوالدين الكافرين بدلا من أن تكون قاعدة دستورية للنظام السياسى الإسلامى فى التعامل مع غير المسلمين فى داخل وخارج دار الإسلام «الدولة الإسلامية».

وتكتسب تجلية هذه المعانى الدستورية الإسلامية فى بلد كمصر أهمية قصوى حيث ماتزال البلاد تعتمد على المعونة الأمريكية ومنذ عقدين من الزمان، وماتزال البلاد مرتبطة بمعاهدة سلام مع الكيان اليهودى الصهيونى، وحيث تعرض الرأى العام المصرى لأكبر حملة تشويش فى التاريخ على ثوابته العقائدية، وأصبح من السهل أن تجد مثقفا مدعيا للثورية.. يشارك فى محافل مشتركة مع إسرائيليين بدعوى عدم ترك الساحة لهم مؤكدا أنه ذهب ليواجههم ويقهرهم أمام الرأى العام العالمى! وتجد مثقفا آخر يعتبر التطبيع والحوار مع الإسرائيليين هو عين الحضارة والتحضر، بينما نجد شيخ الأزهر يلتقى مع حاخامات إسرائيل وسفراء

أمـريكا وإسـرائيل ويرسل مـسـاعديه فـى ملتقـيـات حـوار الأديان مع الحاخامات الإسـرائيليين وفى حضور اليهودى كيسنـجر وهيلارى كلينتون الموالية لليهود. . بينما يربط وزير الزراعة عجلة الإنتاج الزراعى بإسرائيل بحجة اتفـاقية كامب ديفيـد. . وكأن هذه الاتفاقية ألغت السـيادة المصرية وثوابت الدين.

فى ظل هذا المناخ فإن تجلية بديـهيات العقيدة تصـبح فريضة لابد من أدائها وتحديد الموقف الشرعى من ممارسـات الحكومة المصرية والممارسات غير الحـكومية تجاه الحلف الصـهيونى ـ الأمريكى، ضـرورة لا غنى عنها إبراء للذمة أمام الله. . وحـثا لجمهور المؤمنين عـلى الانتصار لدينهم. . والجهاد دفاعا عن تعاليمه.

●●●●●

## وتشمل الدراسة الموضوعات التالية:

١ـ معنى ومفهوم «الموالاة» فى اللغة العربية واستخدام القرآن الكريم لها.
٢ـ مـلامح الصراع الأبدى بين حلف المؤمـنين وحلف الكفار والمشـركين وهذا ينقسم لعدة أجزاء.
٣ـ الحكم الشـرعى على مـوالاة الكفـار والمشـركين والموقف من الحكام المسلمين الموالين لهم.
٤ـ معنى التقية كما وردت فى القرآن الكريم.
٥ـ الفرق الجوهرى بين أهل الكتاب باعتبارهم مواطنين كاملى الأهلية فى المجتمع الإسلامى. . وأهل الكتاب المحاربين.
٦ـ الفرق بين الكفار والمـشركين المحاربين. . وبين دول وجماعـات العهد والميثاق.

٧ـ متى يحارب المسلمون الكفار والمشركين؟

٨ـ كيف يتعامل المسلمون مع العولمة والأمم المتحدة؟ وهل ندعو إلى مقاطعة شاملة للغرب؟ أم ندعو لوضح ضوابط لعلاقات ندية؟

٩ـ هل هناك فرق بين الموقف من أمريكا وإسرائيل والصهيونية من جانب، والأوروبيين وباقى أهل الغرب من جانب آخر؟

١٠ـ ما هو الموقف من الأمم الشرقية غير الإسلامية فى آسيا.. والموقف من الأمم المستضعفة من أهل الجنوب عموما؟

# الفصل الأول

# الموالاة
# مفهوم محورى
# فى القرآن الكريم

---

الموالاة من الكلمات العربية الجامعة التى تشيع فى كنفها مجموعة متعددة من المعانى.. وقد وردت بمشتقاتها المختلفة ١٢٠ مرة فى القرآن الكريم «ولى - أولياء.. إلخ» والولى فى اللغة يطلق على المحب والصديق والنصير والحليف والتابع والقائد والرئيس وأشياء أخرى على حسب الاستعمال.. ولا يبعد الولاء بالاصطلاح القرآنى عن هذه المعانى.

وأصل الولاية هى المحبة والنصرة، والموالاة تعنى التناصر والنصرة والصداقة المفضية إلى التعاون الحميم.. وهى فى تعبيراتها السياسية تعنى التحالف، وإتخاذ أناس معينين أولياء معناه مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم.

والموالاة قد تكون فى علاقات بين البشر فهى متكافئة وندية ومتبادلة، أو بين المؤمنين والله فيكون المؤمنون (أولياء الله) «أى عابدوه وأتباعه» ويكون الله وليهم أى ناصرهم ومتولى أمرهم وتربيتهم.. وتكون الولاية هنا بمعنى القيادة والإرشاد والهداية.. ولذلك فإن الولى يأتى بمعنى الرئيس أو القائد أو ولى الأمر.

وعلى المستوى الغيبى أيضا فهناك علاقة موالاة بين الكفار والشيطان من ناحية وبين المؤمنين والملائكة، حيث يكون الملائكة أعوان المؤمنين:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]

●●●●●

إن «الموالاة» مفهوم محورى فى القرآن الكريم وبدونه لا يمكن تصور أن تقوم قائمة للعقيدة الإسلامية أو لمجتمع المؤمنين.. والمقصود به أن

يتراص معسكر المؤمنين فى وحدة واحدة متماسكة.. ويصبح المؤمنون أولياء بعضهم البعض فيتحقق التراحم والتكافل الداخلى والصلابة فى مقاومة اختراقات الأعداء من الخارج وعملائهم فى داخل المجتمع الإسلامى.

وموالاة المؤمنين بعضهم بعضا لا يمكن أن تتأتى بدون دولة إسلامية.. على مستوى قطرى.. ثم على مستوى أوسع «تحالف أو اتحاد أو وحدة بين عدة دول إسلامية».. حتى الإطار الإسلامى العريض للأمة.. وبدون السلطة السياسية لا يمكن أن يتحقق معنى التناصر والتلاحم بين المؤمنين فى أجلى صوره، لأن النظام السياسى هو أساس صهر هذه الوشائج ودمجها فى بوتقة واحدة.. وهذه الموالاة المنظمة فى نظام سياسى هى الغلاف الطبيعى الضرورى الذى يحمى العقيدة الإسلامية ويوطد أركان المجتمع الإسلامى، وهى من آيات التوازن فى الإسلام بين إيمان الفرد وصلاحه.. وإيمان الجماعة وصلاحها، فبدون المجتمع المؤمن المتماسك فإن الفرد يفتن فى دينه ويتعرض لمحنة شديدة.. ولا حماية للعقيدة الإسلامية إلا فى إطار مجتمع مسلم متراص البنيان قادر على تطوير واستنهاض أوضاعه الداخلية.. وقادر فى الوقت نفسه على مواجهة أعداء الخارج.. وهى معادلة واحدة تجمع بين السياسات الداخلية والخارجية.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قائمة على أساس ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.. والعقيدة الإسلامية لا يمكن أن تقوم إلا على أساس تحديد الفواصل القاطعة بين بنائها وتصوراتها.. والعقائد والتصورات الأخرى.. وأى مزج أو تمييع أو تسيب فى هذا

المجال يعنى فى واقع الأمر التخلى عن العـقيدة أو تمهيد الطريق إلى هذا التخلى.

ومـفـهوم الموالاة يركـز على السلـوك العملـى.. وليس على الموقف اللفظى أو الطقـوس والشـعائر التى تؤدى.. فكثـيـر من حكام المسلمين يظهرون فى المناسبـات الدينية ويمارسون بعض الشعـائر، ولا يمنعون عادة أداء الشعائر الدينية.. ولكنهم يوالون الكفار والمشركين.. ويمكنونهم من رقاب المسلمين.

وعندما نتحدث عن الموالاة فنحن لا نتحدث عن موضوع فرعى.. بل عن أصل أسـاسـى من أصـول الدين.. لأنه يعـنى مسـألة المفـاصلة والاستـقطاب والفرز القطعـى بين عالم الإيمان.. وعالـم الكفر.. وأى تمييع لهـذه القضيـة يكون على حساب الحق ولصـالح الباطل.. ويكون على حساب العقيدة ولصالح الكافـرين.. فالمسألة تتعلق بحوالى مائة آية بالقرآن الكريم ورد فيـها مصطلح الموالاة بكل مشتـقاته.. وإن كان نص القرآن على حكم فى آية واحدة كـاف للإلزام به.. موضوع الموالاة يمس جوهر رسالة الإسلام كما وردت فى القرآن الكريم وبالسنة الشريفة، وهو مـتـصل بكل آية مـن آيات القـرآن الكريم بغض النظر عـن النص على مصطلح «الموالاة» الذى يتضـمن أبعادا واضحة فى السـياسات التى تحكم النظام الإسلامى داخليا وخارجيا. قضية الموالاة مشتقة بصورة منطقية من رسالة الإسـلام.. وهى رسالة الإيمان ضد الكفر، ولكن عندمـا هان أمر المسلمين فقد أصـبحوا يخشون الخوض فى حديث مـحاربة الكفر.. لأنه لم يعد يتناسب مع الـليبرالية المعـاصرة أو العولمة أو الكرة الأرضـية التى أصبحت قرية صغيرة مزعومـة لأنه لم يعد يتناسب مع اللياقة الاجتماعية أو العلمانية مودة العصر.. أو مواثيق ومعاهدات الأمم المتحدة!

وفى هذا المناخ حــول مـعظم حكام المسلمين ومــن والهم من وعـاظ السلاطين.. حولوا حديث القـرآن والسنة عن الكفر إلى حديث تاريخى عن مشركى قريش منذ أكثر من ١٤ قرنا.

وهؤلاء المشركون معروفون بالاسم وقد تم القـضاء عليهم قضاء مبرما منذ ذلك التاريخ البعيد وما تقـرأه فى القرآن والأحاديث النبوية هو مجرد حديث ذكريات التاريخ.

ولا توجد حـرب على الإسلام والقرآن الكريم بأكثـر من هذه المفاهيم المنحرفة التى جردت رسالة الإسلام من روحـها ومغزاها وغايتها.. وهى تكريس العبودية لله وإخراج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الرحمن.

وقد أسهم بعض الإسلاميين فى خلق مـزيد من الالتباسات حول غاية الإسلام فى تثـبيت دعائم حضارة الإيمـان فى مواجهة حضـارة الكفر.. عندما حولوا المسألة إلى قضية تكفير شخص محدد من المثقفين العلمانيين أو تكفير بعض الأنظمة الوطنيـة، وفى الحالين نجد منحى خطيرا فى عدم ترتيب الأولويات بشكل صحيـح.. وعدم اكتشاف أو عدم التـركيز على الخطر الرئيسى على الإسلام والمسلمين.

وعـدم تحديد مـركـز الكفر العـالمى فى عـصرنا الحـاضـر «التحـالف الصهيونى - الأمريكى» وعـدم تحديد الأولويات والمهام الجهادية على ذلك الأساس، وسنعود لهذه القضية تفصـيلا فيما بعد.. أما ما نريد أن نركز عليه الآن أن قضيـة تحريم موالاة الكفار والمشركين مشتقـة بصورة منطقية من رسالة الله إلى عباده والتى لخصتها سورة الفاتحة:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦ ﴾ .

ويمكن أن نقول إن القضية الوحيدة فى القرآن الكريم هى قضية الكفر ـ الإيمان. . فهى جذع الشجرة الرئيسى. . وما ورد بعد ذلك من فروع وتفصيلات وشرائع وقيم وأخلاقيات. . ما هى إلا تفريعات على أصل واحد متصل منذ بدء الخليقة. . الأصل الذى حمله كل الرسل والأنبياء كواسطة بين الله والعباد. وتدفق آيات القرآن الكريم متواصل حول محور واحد. الجدل الدائم والصراع المستميت بين الإيمان والكفر باعتباره الخيط الأساسى لصراعات البشر حتى يوم الدين، وبالتالى فإن الأمر لا يقتصر على الآيات التى وردت فيها كلمة الموالاة بمشتقاتها، فهناك الآيات التى تحض على عدم إطاعة الكافرين،وعدم المساومة معهم حول العقيدة، وتوضيح ما يميز المؤمن عن الكافر والضوابط التى يجب أن تحكم العلاقات بينهما، وآيات الجنة والنار التى لا تخلو منها معظم السور. . إلخ. باختصار جوهر رسالة الإسلام الدين الخاتم وقد ورد لفظ «الكفر» بكل مشتقاته حوالى ٥١٩ مرة بالقرآن الكريم والشرك ١٥٩ مرة. . ولكن إجمالى المعانى تتجاوز الوجود اللفظى لكلمات «الموالاة» أو «الكفر» أو «الشرك». . فلن تجد سورة واحدة أو آية واحدة منفصلة عن قضية «الإيمان ـ الكفر». . وحاول أن تستبعد هذا الموضوع. . فلن تجد شيئاً تقرأه فى القرآن الكريم. . ولن تجد شيئاً يمكن أن تفهمه!!

وقد تبدت عبقرية الإمام الخمينى فى قيادته للثورة الإسلامية فى إيران فى أنه وضع الأولويات بصورة صحيحة. . فأساس القضية هو صراع معسكر الإيمان مع معسكر الاستكبار العالمى بقيادة الولايات المتحدة. . وأن الصدام مع الحكومة الإيرانية الشاهنشاهية كان بسبب وبمقدار تبعيتها وخضوعها لمشروع الكفر الاستكبارى.

إن معركة الإيمان والكفر لم تنته إذن وستتواصل إلى يوم الدين. . وأن أئمة الكفر فى عصرنا هم أمريكا وإسرائيل والصهيونية. . ومن والهم من الغربيين، وأن الموقف الشرعى من الحكام فى العالم الإسلامى يجب أن ينطلق من موقفهم من هذه القضية بالتحديد، لأن المهمة الأولى فى وقتنا الراهن هى إعادة بناء صرح الحضارة الإسلامية المستقلة عن النفوذ الأمريكى ـ اليهودى ـ الصهيونى. . وتحرير أراضى المسلمين الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلى أو الأمريكى. . وعلى الحركات والأحزاب الإسلامية أن تجرم مواقف الحكام صراحة إذا هم تجاوزوا الخطوط الحمراء فى التعامل مع أمريكا وإسرائيل، وذلك فى إطار الجهاد السياسى لتجييش الأمة حول الموقف الشرعى من معسكر الاستكبار العالمى باعتباره أساس بلاء المسلمين فى شتى المجالات. . لابد من إعلان الموقف الشرعى من الحكام أو أجنحة السلطة التى تتورط فى علاقات مريبة مع إسرائيل وأمريكا. . ويجب أن تسمى الأشياء بأسمائها. . لأن الأمر أضحى يتعلق بمصير أمة وعقيدة. . وليس خلافا حول بعض الأمور العابرة التى تحتمل وجهات النظر.

ويعلمنا القرآن الكريم آداب الحزم والعزم فى أخذ أمور ديننا بلا تفريط أو إفراط. . علمنا الله من خلال توجيه الحديث للمعصوم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالله عز وجل «يحذره» و «يتوعده» إن فعل كذا أو كذا رغم أن الله عالم الغيب وهو أعلم برسوله الصادق الأمين. . ولكن الله يشرع لنا نحن المسلمين. . وإلى يوم الدين.

الله عز وجل يصف الرسول ﷺ قائلا:

﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٣، ٤]

ولكنه يتبع ذلك بالأوامر الإلهية:

﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ⑧ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ⑨ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾

[القلم: ٨ ـ ١٠]

أي فلا تترك يا محمد ما أنت عليه من مخالفة للمكذبين الذين تمنوا لو تلين لهم بعض الشئ فيلينون لك طمعا فى تجاوبك معهم ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

وتتواصل الأوامر الإلهية للرسول الكريم:

﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾

[الأحزاب: ٤٨]

وأيضا: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾

[الأنعام: ١١٦]

أى لا تتبع أيها النبى أنت ومن معك أحدا يخالف قول الله الحق ولو كانوا عددا كثيرا فإنك إن تتبع أكثر الناس الذين لا يعتمدون على شرع مُنزل يبعدونك عن طريق الحق المستقيم وهو طريق الله تعالى.

وتتصاعد آيات الله فى توجيه النبى ﷺ:

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ⑦③ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ⑦④ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

[الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥]

أى أن المشركين يتفننون فى محاولة صرفك عن القرآن لتطلب غيره من المعجزات وتكون كالمفترى علينا وحينئذ يتخذونك صاحبا لهم،، وأن

هذه المحاولات قد تكررت وكثرت وكـان من شأنها أن تقربك مما يريدون ولكنك رسولنا الأمين. . وقد شملك لطفنا فـصرفناك عن الاستجابة لهم وثبتناك على الحق ولولا ذلك لأوشكت أن تميل إلى استجابتهم طمعا فى أن يكمل إيمانهم يومـا، ولو قاربت الركـون إليهم لجـمعنا عليـك عذاب الدنيا وضاعفناه، وعذاب الآخرة وضـاعفناه، ثم لا تجد لك نصيرا علينا يمنع عنك العذاب.

وتتواصل الآيات:

﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

[المائدة : ٤٩]

وحول مغزى مخاطبة القرآن الكريم النبى بهذا الحزم يقول أحمد حسين فى تفسيره للآية:

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

انظر يرعاك الله وظاهر القـول إن المخاطب به هو سيدنا محـمد كيف يتوعده الله إذا هو انحـرف عن الجادة بأن يتخلى عنه فلا يـتولاه بالرعاية ولا يمده بالعون ونحن مع القائلين بأنه إذا كان الخطاب لسيدنا محمد فهو على سبـيل الإرشاد والهداية لأمـته وأول ما يجب أن نتـعلمه هو أنه لا يوجد إنسان عـلى ظهر البسيطة مـهما علا قدره واشـتد خطره يعلو على الشريعة فـها هو رسول الله وحبيبـه وصفيه ومختـاره لا يبقى كذلك إلا بمقدار ما هو منفذ لأحكام الشريعة مؤتمر بأوامرها منته عن نواهيها أعاذنا الله من شر من يضعون أنفسهم فوق الشريعة.

وهكذا فنحن أمام تشريع لكل زمان ومكان، يجب أن يلتزم به المسلمون، ويتواصوا به ويتعين عدم مداهنة حكام المسلمين حول هذا الأمر الجوهرى الذى يتعلق بأساس وجود مجتمع الإسلام والمسلمين وكيانهم وعزتهم، فإن هذا الأمر ـ أى التبعية لقوى الاستكبار العالمى ـ لا يحتمل المجاملة أو التساهل أو المداهنة، لأن استقلال المجتمع الإسلامى أشبه بعمود الخيمة.. بدونه لا تقوم للخيمة قائمة. وفى هذا المجال يجب مواجهتهم «أى حكام المسلمين» بضرورة الالتزام بالموقف السليم.. ويجب أن نعبئ الجماهير من أجل مقاومة السياسات التى توقع البلاد فى براثن التبعية الخارجية، وإذا لم تفلح أشكال المقاومة الشعبية فى إصلاح توجهات الحكام، فلابد من الإعداد للإطاحة بهم بالوسائل الشعبية.

(راجع دراستنا فيما يتعلق بالعنف: فقه التغيير السياسى فى الإسلام).

## الفصل الثانى

# خصائص الصراع الأبدى
# بين
# حلف المؤمنين وحلف الكفار

والآن لنزد الأمر تفصيلا حول خصائص وملامح ومجالات قضية «الموالاة» كما وردت فى الآيات القرآنية التى ثبتنا بعضها فى بداية الدراسة لنرسم لوحة متكاملة لهذه القضية المحورية فى حياة المسلمين كأفراد وأمم وحكومات وجماعات.

## أولا: الخلاف فى النهج والغاية بين المعسكرين

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٦ ، ٢٥٧]

فى هاتين الآيتين نجد تكثيفا هائلا لمسيرة البشرية الممتدة، ودور الدين الحق فى هداية البشر إلى صلاح الدنيا والآخرة.. وهذا هو الانقسام الأساسى للبشر.. والخط الرئيسى للصراع بينهم إلى يوم الدين.. والذى توضحه أيضا الآيتان التاليتان:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ، ٣٩]

فإذا أغفل المسلمون هذه الحقيقة يكونون قد تخلوا عن رسالة الله.. وعندئذ يستبدل الله قوما غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]

والحياة الدنيا مليئة بمختلف أشكال الصراع الفردى والجماعى لمسببات ودوافع شتى:

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]

ولكن يظل الخيط الرئيسى هو الصراع بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر.. بين حزب الله وحزب الشيطان، ولاشك أن هناك قوى تقع فى منطقة وسط بين الحزبين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد. ولكنا نركز الآن على تحديد قطبى الصراع.

عندما سقط العالم الإسلامى تحت أقدام جيوش الاحتلال الغربى فى أواخر القرن الـ ١٩ وبدايات القرن العشرين، بدا أن الصراع العالمى قد خرج عن الدائرة الدينية، ولكن ذلك لم يكن إلا على السطح ولفترة عابرة.. ونقول على السطح لأن مقاومة الاحتلال الغربى تمت فى معظم الأحيان تحت شعارات إسلامية، ومدفوعة بغريزة الإيمان والإسلام.. كما أن نشأة الاتحاد السوفيتى كقطب ثان فى العالم كانت فى أحد محاورها على جثة الكيانات الإسلامية العريقة فى وسط آسيا.. وفى إطار حرب ضد كل المتدينين من كل الأديان إعلاء لكلمة الدين الجديد.. «الماركسية - الإلحاد».. أما تشوش حركات التحرر الوطنى بشعارات وطنية وقومية علمانية.. فقد كان فترة عابرة، وأخيرا بدأت فى العقدين الماضيين تتشكل نواة إسلامية فى هيئة حكومات ودول.. وحركات إسلامية ذات جذور شعبية عميقة.. ليعود مجرى الصراع مكشوفا كما كان عبر التاريخ.. ولم يكن الإمام الخمينى مغاليا أو مفاخرا بأمته الفارسية حين اعتبر إن الجمهورية الإسلامية فى إيران هى قطب عالمى فى مواجهة قطب أو أقطاب أئمة الكفر.. فالمسألة ليست بالعدد أو العدة. والآن وبعد

عـقدين من رسـوخ أقدام الجـمهـورية الإسلامـية فى إيران فـإن الدائرة الإسلامية فى موقع السلطة تتـوسع ببطء، لكن بثبات فى البلدان العربية والإسلامية المختلفة. . وأصبـحت الحركات الإسلامية هى المعُلم الرئيسى للحركات الشعبية.

ونعود للآيتين الـكريمتين اللتين بدأنا بهمـا هذا الفصل **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾** فالإنسان خلق كخليفة فى الأرض له إرادة الاختـيار بين الحق والـباطل، وإن خيـاره الأول والرئيسـى والمحدد لباقى التفصيلات والفروع. . هو خياره بين الإيمان والكفر. . الإيمان بالله أو الإيمان بالطاغوت. . والطاغـوت مصطلح شامل يـعنى «كل ما يطغى على العقل ويصرفه عن الحق». . أو «كل متعد وكل ما عبد من دون الله» أو هو كل ما يعـبر عن حكم غيـر الله، أى كل ما يحـتكم إليه من دون الله. . وقد جاء فى آية أخرى:

**﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾** [النساء: ٧٦]

ووصف الطاغـوت مطرد فى كل ما يبـعد عن الله ويصـد عن سبـيله ويخاصم شـريعتـه، وفى تعريف آخر «الطاغـوت هو البالغ أقـصى غاية الطغيان، ويطلق على الواحد، والجمع طواغيت».

«الطاغوت» إذن من التعبيرات الإعجـازية للقرآن الكريم لأنها تمتد عبر الزمان والمكان، وتشمل كل ما يحتكم له من غير الله.

ومعنى الآية الكريمة السابقة أن الذيـن صدقوا بالحق واذعنوا له يقاتلون فى سبيل إعلاء كلمة الله والعدل والحق والذين جحدوا أو عاندوا يقاتلون

فى سبيل الظلم والفساد، وبذلك كانوا أولياء الشيطان، فيا أيها المؤمنون قاتلوهم لأنهم أعوان الشيطان وأنصاره واعلموا أنكم منتصرون عليهم بتأييد الله لأن تدبير الشيطان مهما عظم فساده ضعيف. . والغلبة للحق. . إذن فإن الذين ينحازون للظلم والفساد هم أولياء الشيطان. . وطاغوت العصر الحديث الأول والأخطر. . هو النظام الأمريكى الذى يفرض شرائعه على العالم الإسلامى. . وعالم المستضعفين عموما باسم النظام العالمى الجديد تارة وباسم قرارات الأمم المتحدة تارة أخرى أو باسم العولمة. . إلخ. . إن من وصف نظام الولايات المتحدة بالشيطان الأكبر لم يظلمه.

وفقه الأولويات يحتم على المؤمنين أن يدركوا من أين يأتى الخطر الأول على الإيمان والإسلام. . والنظام الأمريكى والغربى عموما قائم على مجموعة مترابطة من الفلسفات النفعية والعملية «البراجماتية» المادية. . وتوجهات هذا النظام قائمة على أساس الحسابات الدنيوية المحضة التى تنحو إلى ضمان استمرار الهيمنة على مقدرات العالم، وحيث انتقل مركز الهيمنة بعد الحرب العالمية الثانية من أوروبا إلى الولايات المتحدة، وفى ظل التحالف الأمريكى اليهودى الصهيونى الوثيق.

وضمان استمرار هذه الهيمنة وما تمثله من ضرورة للحفاظ على مستوى الرفاهية فى هذه المجتمعات المسيطرة لا يتأتى بدون ضرب المنافسين ومواجهة احتمالات نمو قوى منافسة ووأدها فى المهد.

لقد كانت قريش فى ذروة قوتها وهيمنتها، ولكن أئمتها انزعجوا أيما انزعاج من الدعوة الجديدة حتى عندما كانت محصورة فى نفر قليل،

لأنهم أدركوا قوة المنطق والقدرة على الاقناع التى تحرك هذه الدعوة وتفتح لها العقول والقلوب التى عانت من فراغ روحى. . واليوم فإن الطاغوت الأمريكى وإن انشغل بمواصلة أضعاف روسيا «كقوة نووية منافسة» والحفاظ على تبعية أوروبا واليابان. . والبحث عن ثغرة لتفكيك العملاق الصينى. . يظل ـ وفقا للدراسات المنشورة والممارسات العملية ـ يرى أن المد الإسلامى هو الخطر الرئيسى الاستراتيجى. . ومشكلتنا فى صفوف بعض الإسلاميين أننا ننشغل بالفرع أو بالصورة أكثر من الأصل. . فنحن ننشغل أحيانا بانحرافات إعلامنا المحلى دون أن نلحظ أنها مجرد رجع الصدى للإعلام الأمريكى ـ الغربى ـ الصهيونى. . ننشغل بمثقف معين يطعن فى الإسلام ولا يقرأه أحد فى مصر أو العالم العربى، ولا نهتم بالقوى الغربية والصهيونية التى تموله وتدعمه إعلاميا وماديا ومعنويا.

إن الطاغوت الأمريكى ـ الصهيونى هو المحارب الأول فى العصر الراهن للإسلام والمسلمين، وهم أئمة الكفر وكل من والهم وتحالف معهم يندرج عليه نفس التشخيص وهم يرون أن الإسلام هو الخطر الرئيسى عليهم لأنه «وهذا مجرد مثال لأقوالهم» : «يهددنا تهديدا مباشرا عميقا، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربى، فهم يملكون تراثهم الروحى الخاص ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون بأن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة فى الشخصية الحضارية الغربية».

تصادم الرسالتين. . رسالة الإيمان والإسلام ورسالة الغرب المادية هو أساس هذا الاستقطاب ولا مجال لتجنبه بأى حال من الأحوال.

يقول أحد علمائنا الأجلاء: إن أحد الشروط الأساسية لتطبيق الشريعة الإسلامية بصورة ناجحة فى عصرنا الحديث هو (أن نتحرر من عقدة النقص تجاه الحضارة الغربية والفكر الغربى، فالواقع الذى يضغط علينا بمصارفه وتأميناته وسائر مؤسساته ومنكراته أنما هو من صيغ الغرب، ولذلك من الضرورى التحرر من التبعية للحضارة الغربية، فليست أمريكا وأوروبا أم الدنيا وليس تاريخهما هو تاريخ العالم، وليس الرجل الأبيض هو سيد هذه الأرض وليست الحضارة الغربية هى المثل الأعلى للحضارات وليس الفكر الغربى هو مصدر الإلهام للعالمين.

إن الغرب له دينه ولنا ديننا، ولن ندع ديننا لدين الغرب أبد الدهر، إن الغرب له حضارته وتراثه وفكره وقيمه، ونحن لنا حضارتنا وتراثنا وفكرنا وقيمنا النابعة من عقيدتنا ولسنا ملزمين بأن نسير وراء الغرب شبرا بشبر وذراعا بذراع وأن ندخل جحر الضب إذا دخله هو.. إن قوانين الغرب وأنظمته التشريعية مبنية على فلسفته فى الحياة ونظرته العامة إلى الوجود وإلى الله والإنسان وفكرته عن الدين والدنيا، وهو فى ذلك كله مخالف لفلسفتنا وفكرتنا نحن المسلمين عن الوجود والحياة وعن الإله والإنسان.

لسنا ملزمين بأن نحلل ما يحلل الغرب ونحرم ما يحرم ونصحح ما يصححه ونبطل ما يبطله، لسنا ملزمين بأن نبيح الفائدة الربوية أو نحل الخمور والميسر لأن الغرب يحلها وليس علينا أن نمنع الطلاق وتعدد الزوجات لمجرد أن الغرب يمنعهما وليس من واجبنا أن نسوى بين الذكر والأنثى فى كل شئ وقد خالفت بينهما فطرة الله لأن الغرب هذه فلسفته.

هدا التصادم بين الرسالتين.. بين المعسكرين يفرض على كل معسكر

أن يتناصر ويتحالف ويتعاون مع بعضه البعض.. فـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ و﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.. ولأن الذين كفروا لهم اليد العليا فى هذه اللحظة.. فهم أكثر قدرة ووعيا بأساليب المحافظة على الهيمنة.. وفى المقابل فإن معسكر المؤمنين يعانى التفكك والتضعضع، وقلة الخبرة والحنكة وعدم الترتيب السليم للأولويات.

وقوى الاستكبار العالمى تغذى هذا الانقسام وتعمقه لأنه الضمان الأساسى لاستمرار الهيمنة، وليس فى ذلك الخلل المؤقت عيب خلقى فى المسلمين ولكنه من سنن الله فى خلقه.. فالقوى المسيطرة تكون عادة أكثر قدرة وتنظيما ووعيا بآليات الصراع وكيفية الحفاظ على الهيمنة، وذلك يجرى على المستوى العالمى.. كما يجرى على المستوى القطرى.. لاحظوا مثلا اختلال التوازن بين القوى الظالمة المسيطرة على السلطة فى أى بلد وما تملكه من إمكانيات الدولة الاقتصادية والعسكرية والإكراهية «شرطة وسجون وقوانين استبدادية».. وبين إمكانيات القوى المعارضة، ولكن ليس معنى ذلك أن تنتصر السلطة دائما .. وتنهزم المعارضة الشعبية دائما.. ولكن معناه أن التغيير عملية صعبة وشاقة للغاية ولكنها ليست مستحيلة.. وتحتاج إلى زمن طويل من الإعداد والتحضير والتنظيم وتهيئة الجماهير وتربيتها.

وإذا عدنا مرة أخرى للصراع العالمى فسنجد أن قوى الاستكبار العالمى قد وضعت آليات معقدة، ومتعددة الدرجات.. أشبه بالحصون المتوالية للحفاظ على مركز هيمنتها عملا بالآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.. وسنجد احتكار القرار فى مجلس الأمن والأمم المتحدة.. والسيطرة على المنظمات الدولية بمختلف أنواعها، وسنجد

القـوى والأسـاطيل الحـربيـة. . والأحـلاف العـسكرية. . والأسـواق المشتركة. . وقمة السبعـة الكبار. . وآلافا مؤلفة من الاتفاقيات والأشكال والمنظمات والهيئات التى يبدو بعضها بريئا وغير حكومى. . تحالف واسع عريـض. . ومسانـدة متبـادلة لا حد لهـا (بالمال والعـتاد والتـسهـيلات والإعلام) وآليات لامتصاص الخلافات الداخـلية. . وتوحيد الجمهور ضد معسكر الإيمان ومعـسكر المستضعفين عمومـا. . وقد كانت حرب الخليج الثانية نمـوذجا حيا على اجتـماع كل قوى الغرب لضـرب إمكانيات دولة إسلامية (العراق). . وإحكام السيطرة على دولة إسلامية أخرى (الكويت وباقى دول الخليج). . وقبل ذلك لاحظنا تكتلا عالميا رهيبا لمحاصرة إيران وضـربهـا عسكريـا ولكن الصـمود الإيرانى أدى إلى تـفكيكه. . ورأينا الطغيـان العالمى بقيـادة أمريكا لمحـاصرة السودان. . وضـربه عسكريا. . ورأينا الطغيان العالمى بقيادة أمريكا لمحاصرة ليبيا. . ورأينا الطغيان العالمى بقيـادة أمريكا لفـصل تيمـور الشرقـية عن أندونيـسيا. . ورأينا الـضربة الاقتصـادية المخططة لضرب الاقتصـاد الآسيوى وفى القلب منه اقـتصاد أندونيسيا وماليزيا الإسلاميتين. . ثم نرى الصمت الحقير تجاه المذابح التى يتعرض لها المسلمون فى الشيشـان وداغستان. . ومن قبل التواطؤ العالمى بقـيـادة الولايات المتـحـدة على المذابح المـروعـة فى الجـزائر التى دبرها العسكريون على مدار سنوات. . قبل تولـى بوتفليقة السلطة. . والجرائم المتواصلة لليهود فى فلسطين ولبنان والجولان السورية.

فالكفر ملة واحدة. . وينطبق على هؤلاء المتساندين:

﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠]

وطريق المواجهة والخلاص من هذا الحلف الشيطانى يبدأ بالتساند المضاد لمعسكر المؤمنين:

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦]

وهذا الحكم كما ينطبق على القتال فإنه ينسحب من باب أولى على كل درجات الصراع السياسى والاقتصادى الأدنى من القتال.. وهذا ما يستغرقه معنى «الموالاة» وهذا ما سنأتى على تفصيله لاحقا.

موالاة المؤمنين بعضهم بعضا هى الميزان الحقيقي الذى يوزن به إيمان الإنسان، لأن رسالة الإسلام لم تأت ولم تبشر بالحل الفردى فحسب بل ربطت الخلاص الفردى بخلاص الجماعة فهدف رسالة الإسلام التمكين لدين الله فى الأرض، لا انزواء المؤمنين فى بعض الزوايا والصوامع، والأدلة الشرعية من الأحاديث النبوية المكملة والمفسرة لأحكام القرآن فى هذا المجال كثيرة ونكتفى ببعض الأمثلة:

«من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وإن صلى وصام».

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

مع ملاحظة الخطأ الشائع والذى روجه وعاظ السلاطين بحيث لا يفهم هذا الحديث وأمثاله إلا بالمعنى الفردى الضيق بحيث يكون أخو المؤمن هو جاره أو قريبه أو زميله فى العمل أو أحد معارفه.. وليس بالمعنى الواسع للكلمة فيكون أخوه أيضا هو الذى يضرب كل يوم فى لبنان وفلسطين ويعانى من ويلات الحصار فى العراق.. إلخ.. إلخ.

«من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

«المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» .

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» .

## ثانيا: هدف الكفار رد المسلمين عن دينهم

لماذا إذن حالة الاستنفار من جانبنا ونحن نتحدث عن ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...**﴾ إن المسلمين يتمنون ويسعون لأن تكون الحياة عبارة عن مناظرة فكرية سلمية رائعة وهادئة.. ولكن واقع الحياة ليس كذلك بطبيعة الحال.. وهدف المسلمين سيظل دائماً هو توفير المناخ للاحتكام للعقل والتخلية بين الناس وبين خياراتهم العقائدية بدون إكراه، ولكن المشكلة تبدأ عادة من الباطل الذى يشعر بضعف موقفه واعتلال حجته، وعدم استعداده لتعريض مصالحه الدنيوية لأية مخاطر فى ظل المباراة الفكرية السلمية، وقد كان الأقتباس الذى أشرنا إليه عن المسئول الغربى هو من أكثر الاقتباسات تعبيرا، فهم يرون أن الإسلام هو العقيدة الوحيدة فى العالم التى تشكل رؤية متكاملة مغايرة ومختلفة وبديلة للرؤية الغربية.. وأنها إذا سادت لابتلعت الغرب أو قضت على هيمنته واستكباره على أقل تقدير، ولنقرأ الآيات المتعلقة بتلك النقطة:

﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ [البقرة: ١٠٩]

﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ [النساء: ٨٩]

﴿**وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة: ٢١٧]

على المستوى الفردى نجد الشخص الكافر المنحرف أخلاقيا يملؤه الحسد من الشخص القويم الذى يسير على الصراط المستقيم، تتملكه غريزة الحسد منه لأنه يشعره بأنه أقوى إنسانيا منه وأرقى، يشعره بدونيته وعجزه

لذلك فهو يتمنى ويسعى لكى يجذبه معه إلى الدرك الأسفل الذى هو فيه فيصبحان سواء، وهو عندما لا يتمكن من ذلك يحاول أن يتقول على المؤمن ويثير حوله الشائعات أو يحاول أن يتتبع عوراته عله يجد له هفوة هنا أو هناك ليشهر به، لكن يظل هدفه الأساسى وأمنيته أن يرده عن دينه، وعلى المستوى الاجتماعى محليا ودوليا فإن قوى الكفر تتخذ الموقف نفسه، ولكنه يتجاوز الموقف النفسى إلى مسألة الحفاظ على المصالح وعلى السلطان الذى يتهدده هذا الزحف الإيمانى، ولذلك فإن الموضوع يتحول إلى قتال، وتصادم جيوش ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ وما يتواكب مع ذلك من حروب سياسية واقتصادية وإعلامية، فليس القتال إلا أعلى مراحل الصراع السياسى، وهكذا فإن تحالف المؤمنين يصبح فريضة لمواجهة هذا الطغيان حفاظا على العقيدة وعلى حق مجتمع فى أن ينظم شئونه وفقا لمعتقداته، لا معتقدات وآراء وفكر نظام الاستكبار العالمى الإلحادى.

ولنلحظ أخيرا أن معسكر الكفار عندما يصيبه اليأس من تحقيق هدف ردة المؤمنين صراحة عن دينهم فإنه يلجأ إلى تخريب عقيدتهم ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾ فهذا يعتبر تقريبا للمؤمنين، ودفعا لهم فى اتجاه معسكر الكفر عمليا، وثلم شوكتهم وخطرهم عليه.. وقد طرح مشركوا مكة على الرسول ﷺ أن يتقاسموا دينهم مع دينه.. وحتى الآن لاتزال هذه العروض مطروحة على المسلمين، فيشن الأمريكيون حملات على المسلمين يطالبونهم بالتخلى عن أجزاء من عقائدهم والاحتفاظ بالباقى!! فالأمريكيون لا يعترضون على استمرارنا فى أداء الشعائر (الصلاة والحج والصوم) ولكنهم لا يحبذون الزكاة ويرفضون الموقف الإسلامى من الربا، ونظام المواريث.. إلخ، إلخ.. ويجندون العملاء للترويج لهذه المفاهيم وصولا إلى عقيدة إسلامية معدلة.

المسيرة الإيمانية ليست مجرد نزهة جميلة، ولو كان الأمر كذلك ما كان للإنسان فضل فى اختيار طريق الإيمان، فإذا كان طريق الإيمان مجرد مكاسب وجوائز دنيوية ظاهرة ومتصلة.. وكان طريق الضلال كله خسائر ومصائب دنيوية ظاهرة ومتصلة.. فما وجه الابتلاء والتكليف الصعب؟! وما معنى الأمانة التى حملها الإنسان ورفضت أن تحملها السماوات والأرض والجبال؟! ولماذا فى هذه الحالة لا يختار الجميع طريق الإيمان كما يتكالب المضاربون فى البورصة على شراء الأسهم الصاعدة؟!

لا، إن الاختيار أصعب من ذلك وأكثر تعقيدا:

**﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾**[العنكبوت: ٢، ٣]

منذ بداية عهد الانفتاح الاقتصادى الذى دشنه النظام المصرى فى ١٩٧٥/٧٤، ومنذ تحول نظام الحكم إلى التحالف والصداقة وما سمى العلاقات الخاصة مع الولايات المتحدة، وبالتواكب مع اتفاقية كامب ديفيد والمعاهدة مع الكيان الإسرائيلى أى منذ قرابة ربع قرن من الزمان.. كان هناك حوار تقليدى يدور بين المصريين يتمحور حول اتجاهين: اتجاه يقول إن العلاقات الخاصة مع أمريكا وربما مع إسرائيل أيضا أنفع لمصر، واتجاه يقول: إن هذه العلاقات ليست هى الأجدى والأنفع لمصر بالمعايير الدنيوية.. وهذا المستوى من الحوار مطلوب بلاشك ولكنه يأتى فى المحل الثانى.. أما فى المحل الأول فيكون السؤال: هل عقيدتنا تسمح لنا بموالاة إسرائيل وأمريكا دون العرب والمسلمين؟! بنفس منهج الفرد المؤمن الذى تتأتى له فرصة الحصول على ثروة مالية كبيرة.. فعليه أن يسأل

نفسه أولا: هل الحصول على هذه الثروة سيتم بأسلوب حلال أم حرام؟ يجوز للمؤمن أو لا يجوز بناء على ضوابط ونصوص شرع الله؟ وعليه أن يجيب عن هذا السؤال قبل أن يسأل نفسه السؤال التالى: هل ستتحسن أحواله المادية والاجتماعية أم لا؟!

لاشك أن الأجواء التى صاحبت تطبيق كامب ديفيد والانفتاح الاقتصادى وعقد صداقة خاصة مع أمريكا والغرب على حساب علاقات مصر بالعرب والمسلمين.. هذه الأجواء دمرت إلى حد بعيد المفاهيم الشرعية الأساسية فى أذهان المصريين، وهى المفاهيم التى نحاول أن نجليها الآن ونعيد لها الاعتبار.. وما يعنينا الآن فى هذه المرحلة من تتبع القضية أن نقول: إن الحسابات المادية الدنيوية فى المدى القصير قد تكون مغرية.. ومثيرة للغرائز ولنزعة الدعة والحلم بالحياة الهانئة الوادعة.

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]

هكذا قال مشركوا مكة للرسول ﷺ معتذرين عن الدخول فى الإسلام لأنهم إن اتبعوه أخرجهم العرب من بلدهم وغلبوهم على سلطانهم.. أما المؤمنون فهم يختارون أولا أن يكونوا فى كنف الله ورسوله والمؤمنين.. ثم يتحملون عواقب ذلك مهما تكن.. مع استخدام العقل فى إدارة الصراع بكل الأساليب والحسابات الرشيدة والتوكل على الله.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فى عبادة بن الصامت حين تبرأ من موالاة اليهود وقال: «أوالى الله ورسوله والمؤمنين»، نعم فإن مخاصمة اليهود قد تكون معنتة! ولكن ما منها بد إذا كانت لنصرة الإسلام.

وقال جابر بن عبدالله نزلت فى عبدالله بن سلام عندما أعلن إسلامه فتوجه إلى النبى ﷺ يشكو أن بنى قريظة وبنى النضير قاطعوه وقال: هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا فنزلت الآية، فقرأها عليه النبى ﷺ فقال بن سلام: رضينا بالله ربا وبرسوله نبيا وبالمؤمنين أولياء.. وكنا قد أشرنا إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾. وهى تعنى أن مجرد التمسك بالدين سيعرض المؤمنين للحروب.. وهذه أكبر المغارم التى يمكن أن يتعرض لها فرد أو أمة.

وفى سورة التوبة نرى الآيات صريحة.. فعلى المؤمن أن يحدد موقفه هل هو مع الله ورسوله حتى إن أدى ذلك إلى خسائر إنسانية واجتماعية واقتصادية أم لا؟

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[التوبة: ٢٤]

وليس معنى ذلك أن مجاهدة الكفار والمشركين محض خسائر للمؤمنين، وإنما الجهاد ابتلاء وتكاليف وشهادة فى سبيل الله، أما النصر فسيكون حليف المؤمنين الصادقين فى نهاية الأمر.. وستكون هناك مغانم للانتصارات يجب الحذر من أن تفتنهم عن رسالتهم الأصلية..

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ① إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ١ ـ ٤]

والأنفـال هى غنائم الحـرب، وعندما تـوسعت فـتـوح المسلمين على حساب امبراطوريتى الفـرس والروم انهمرت الغنائم حتى تجاوزت الغنائم من الفرس وحـدهم ٩٠٠ مليون درهم. . ولكن أبا بكر الصديق وعـمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ عندما فارقا الحياة لم يورثا شيئا يذكر.

أما الآن فى عصرنا الراهن فقد دارت علينا الدوائر، وأصبح الجهاد فى المدى المنظور ـ نتيـجة استضعـافنا ـ يحمل من المغارم أكـثر من المغانم. . فعلينا أن نبـدأ الكرة من جديد فقوى الاسـتكبار العالمى تملك الكثـير من الإمكانيـات لإيذائنا وقد رأينا طـرفا لا بأس به من توحـشهم تجاه إيران والعراق والسودان بعد فلسطين ولبنان، وما قـاسته مصر وسوريا والأردن من الكيان الصهيونى العدوانى المدعوم أمريكيا.

أما النظام المصرى فـإذا حاول أن يتحدى الهيمنة الأمـريكية ويعود إلى بيته الطبـيعى العربى الإسلامى فـإن ذلك سيكبد مصر فى المدى القـصير خـسائر وتكاليف غـير هينة. . ولـكن فى المدى المنظور والأبعد سـيكون المكسب صافيا. . فهل سيجرؤ النظام على التطهر من أدران التبعية؟

إن أزمة الـدولار المتصاعـدة منذ عدة أشـهر ليـست إلا مجـرد تلويح بالعصـا الغليظة واستعراض لعـضلات الاستكبار الأمـريكى وقدرته على إلحاق الخـسائر والأذى. . وعلى المؤمـنين أن يتقبـلوا ذلك بعزيمة صـادقة وبكل تخطيط عـقلانى ممكن يأخذ بالأسـباب. . وبالمكر والخـديعة، مع التـوكل مع الله الذى ليس لنا من دونه من ولى ولا نصـير. . ولكن مـا

علاقة حكام مصر بتقوى الله وبالمرجعية الإسلامية؟! هذه نقطة سنتوسع فيها لاحقا بإذن الله.

●●●●●

الإسلام دين توازن بين الروح والمادة.. مع إعطاء الأولوية والسيادة للروح، ولذلك استكملنا الآية التى بدأنا بها هذا الجزء وهى ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ سنجد بقيتها كالتالى:

﴿ **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القصص: ٥٧]

أى أن الله مع ابتلائه للمؤمنين لا يعدهم الفقر والخراب المقيم فى الحياة الدنيا، وها هى أربعة عشر قرنا تتحدث عن إعجاز هذه الآية.. وكيف تحول الحرم المكى إلى بؤرة للازدهار المالى والتجارى لا مثيل لها فى العالم مع تدفق أكثر من مليونى حاج سنويا وتدفق الملايين على مدار العام من كل فج عميق لأداء العمرة، وحيث نجد فى هذه البقعة الصغيرة «ثمرات كل شئ».. ولقد بدأ هذا الازدهار منذ فتح مكة.. ومع دخول العرب فى الإسلام واستمرار تحلقهم حول الكعبة بعد تطهيرها من الأصنام والرجس.

وفى كلمة فإن طريق الإيمان والإسلام طريق جهاد وعطاء وبذل وعمل شاق، وإن موالاة المؤمنين ليست محلا للمناقشة أو الاختيار، بل هى نقطة الإنطلاق التى يعقبها التدبير والتخطيط والإعداد ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ ثم يأتى الاعتماد الكامل على الله ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ ثم ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ﴾ وتكون النتيجة النهائية ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾.

## رابعا: مفهوم الموالاة يربط القول بالعمل

مفهـوم الموالاة - كما ذكرنا آنفا - يتصل بالسلوك العملي وليس بمجرد المواقف اللفظيـة المعلنة أو المظاهر الخارجيـة، والممارسـة الإيمانية هي لب العقيـدة الإسلامية باعـتبارها قرينة ومـحك صدق «الإيمان» ولذلك ربط القـرآن دائمـا بين الإيمان والـعـمل الصـالح ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ و﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.. إلخ.. واختيار المسلم الفـرد أو الحكومة الإسـلامية بين مـوالاة المؤمنين وموالاة الـكفار والمشركين مسألة عـملية، لا تكتفى بالإعلانات اللفظية التي لا قـيمة لها وحدها.. لأن الاكتفاء بالقول دون العمل.. هو صفة وديدن المنافقين.. وكـذلك فإن إدراك مـوقف الكفـار والمشـركين يسـتند إلى فـهم وتحليل مواقـفهم العـملية.. وليس إلى أقوالـهم التى قد تكون أحيـانا معـسولة بهدف الاحتواء والاختراق:

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨]

إلا أن طبيعة البشر ألا يستطيعـوا أن يكتموا دائماً ما فى القلوب فتظهر على ألسنتهم بعض الفلتات التى تكشف ما يخفونه من بغضاء:

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾

[آل عمران: ١١٨]

وسنجـد مـصـداق هاتين الآيتين فى الإعـلام الأمـريـكى والغـربى والصهيونى.. وفى تصريحات مسئـوليهم فهم يحاولون التحدث باحترام عن الإسلام ويقولون إنهم ضد الإرهاب لا الإسلام.. ولكنهم بقصد أو

بدون قصد.. تظهر البغضاء من أفواههم سواء فى المادة الإعلامية أو فى بعض التصريحات الرسمية.

والأهم من تحليل أقوالهم.. متابعة أفعالهم.. فما أهمية الإدعاءات اللفظية عن عدم معاداتهم للإسلام والمسلمين.. بينما هم قتلوا حتى الآن قرابة مليونى عراقى معظمهم من الأطفال والشيوخ والنساء، لا لغرض إلا الرغبة الدفينة فى السيطرة على هذا البلد العربى المسلم الاستراتيجى.. بالإضافة إلى جرائمهم ضد المسلمين فى مختلف بقاع الأرض.

المفارقة العقائدية وبالتالى النفسية ركن أساسى فى ممارسة التوجيه الإلهى بعدم موالاة الكفار.. أى وضع الحدود والتخوم النفسية القاطعة بين معسكر الإيمان.. ومعسكر الكفر.. لذلك فإن من أبرز صفات المؤمنين أنهم:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩]

أى أن تراحم وتعاطف المؤمنين فيما بينهم وتراصهم وتلاحمهم حول عبادة الله تعطيهم قوة ظاهرة تغيظ الكفار.. ونفس المعنى فى الآية الكريمة الأخرى:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]

أى جريمة يرتكبها بعض حكام المسلمين إذن عندما يتراحمون مع الدول التى تمثل أئمة الكفر فى العصر الراهن ومع الكيان الصهيونى، ويتحاورون معها، ويتفاوضون بكل الود واللين والصبر، مع تحمل الإهانات المتواصلة العلنية والسرية على السواء.. بينما يتعاملون مع الأحزاب والحركات الإسلامية من أبناء أمتهم بكل الصلف والغلظة والتوحش.. وهو أمر مستنكر حتى إذا كانت بعض هذه الحركات على

خطأ فى بعض اجتهاداتها وأساليبها (فصلت ذلك فى دراسة سابقة منشورة بـ «الشعب» منذ عدة سنوات).

وهى الأخطاء التى يجب أن تعالج بالحوار.. كما أنهم يغلظون على بعض المؤمنين المتدينين خشية أن يكون وراء تدينهم دوافع سياسية!! هؤلاء الحكام قلبوا الآية الكريمة وأصبح شعارهم (أشداء على المؤمنين رحماء مع الكفار) أو (أذلة على الكفار أعزة على المؤمنين).

إن تعامل حكام الدول الإسلامية مع الاستكبار العالمى (قوى الكفر المحاربة للمؤمنين) يجب أن يتسم بالغلظة.. ولكن جاء علينا عصر هان فيه المسلمون بحيث أصبح حاكم دولة إسلامية كبيرة كمصر يفتخر بأنه صديق الرئيس الأمريكى.. وصديق رئيس وزراء إسرائيل.. وهذه التصريحات ليست أمورا شكلية.. يمكن أن تمر على سبيل الدبلوماسية والمجاملة.. لا.. إنها تفت فى عضد الأمة، وتصيب الجموع غير المسيسة وغير المتفقهة فى دينها بعمى الألوان.. وتخلط الأمور مع أعداء الأمة ومن يستخدم هذه التعبيرات يسعى إلى تمهيد الرأى العام لاستسلامه الوشيك لمطالب الأعداء «لأنهم أصبحوا أصدقاء» وهذا ما حدث فى اتفاقية كامب ديفيد المشئومة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣]

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣]

وهذه الآية الأخيرة مرتبطة بالقتال.. ولكنها تنسحب على المراحل السابقة للقتال فى فترات الهدنة فى مختلف أشكال العلاقات السياسية (نقول الهدنة لا العهد).

وعلى سبيل المثال فإن مصر ليست فى حالة حرب الآن مع إسرائيل . . ولا مع الولايات المتحدة . . ولكن باقى الآمة الإسلامية فى حالة حرب معهما، كما أن هاتين الدولتين تمكران بمصر بمختلف الوسائل وتسعيان إلى أضعافها وتهميشها . . وبكل هذه المعايير فإن إسرائيل وأمريكا ليستا من الدول التى يمكن أن تدخل فى نطاق «العهد» مع المسلمين وهذه النقطة سنتوسع فيها فى فصل تال . . ولكن يجب أن نلاحظ أن عدم وجود حالة حرب بين مصر وكل من إسرائيل وأمريكا . . يرجع فقط للسياسة الاستخزائية التابعة لحكومتها . . مما يتيح لهذين العدوين الإضرار بالمجتمع المصرى بوسائل غير عسكرية فى الوقت الراهن.

إذن الغلظة والبغضاء والعدواة هي العلاقة الطبيعية بين عالمى الكفر والإيمان، وإذا لم تكن كذلك فإن هذا يعنى أن أحد المعسكرين يقترب من الآخر أو ينهزم أمامه:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤]

ولذلك فإن طراوة وتميع كثير من حكام المسلمين فى التعامل مع الاستكبار العالمى هو نهج يسير بالتناقض الصريح مع النهج القرآنى . . وهو يورث بلاد المسلمين التهلكة فى الدنيا والآخرة.

لقد أصاب الرئيس المصرى الذى قام بأول زيارة للقدس المحتلة . . أصاب كبد الحقيقة عندما قال إن معظم مشكلاتنا مع إسرائيل سيكولوجية (نفسية) وأن زيارته للكنيست ستحطم هذا الجدار النفسى . . نعم لقد أصاب الرئيس كبد الحقيقة ولكن بالباطل . . وبالمقلوب . . لأن الحاجز

النفسى بين المؤمنين وأعـداء الله علامة صحية، وتحـطيم هذا الحاجز ليس هدفا مطلوبا إلا للمستسلمين أمامهم!

وسنجـد القرآن الكـريم يركز بشـدة على هذه المفـاصلة النفـسيـة بين المعسكرين ويحض عليـها وهذا ما يدين أيضاً التيـار المقيت المنبطح الذى لايزال يعمل كـالسوس فى المجتـمع المصرى لنشر التطبـيع مع أعداء الله الصهاينة باعتباره من آيات التحضر والعقلانية.

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

[المجادلة: ٢٢]

وكذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ ثم ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ [الممتحنة: ١]

تلقون إليهم بالمودة سرا؟! بل الآن فى عصرنا المنكود أصبح ابداء المودة علنا وافتخـارا بأننا أصدقاء حميمـون لأكبر دولة عظمى.. وأننا أول من فتح الطريق لاقرار شرعية الكيان اليهودى الصهيونى العدوانى!

والنتيجة الطبيعية لذلك إننا نحبهم وهم لا يحبوننا نحن نحترمهم وهم لا يحتـرموننا (ها أنتم أولاء تحبـونهم ولا يحبونكم).. حكامنا يسـعون لزيارة واشنطن.. وإعلامنا وتعليمنا نشرا حب أمريكا والغرب فى قلوب الأبناء.. وأصبح السفـر والترحال والتعلم والعـمل فى هذه البلدان أمنية عظمى لأبناء بلاد المسلمين.. ويمكـن أن يموتوا فى سبـيلها، كـما يموت المغاربة خلال هروبهم بالزوارق إلى أوروبا ونحن نحـبهم وهم فى المقابل يحتقروننا ولا يحبوننا.. وربما يستخدمون أفرادا منا كخدم فى بلادهم..

أو عملاء فى بلادنا.. ولكن دون حب أو احترام حقيقى.. وحكام المسلمين هم المسئولون أولا عن هذه الحالة المزرية.

ومن علامات التلطف والتحبب وإلقاء المودة حرص بعض حكام المسلمين على إجراء المفاوضات وإلقاء الأحاديث الصحفية باللغات الأجنبية، فى حين لا يفعل ذلك حكام الصين أو روسيا.. وغيرهما من الأمم التى تحترم ثقافتها ولغتها حتى وإن كانت لغة غير معروفة مع الحفاظ على الهيئة والكرامة الوطنية.

## سادسا: التمايز السلوكى والاجتماعى

وفى الإطار النفسى والاجتماعى يأتى تفريعا على مسألة رفض المودة وتأكيدا على هذا المعنى الأمر بمخالفة الكفار والمشركين والتمايز عنهم فى مختلف مظاهر الحياة السلوكية والاجتماعية وفى رموز هذه الحياة.. وفى حديث الرسول ﷺ «من تشبه بقوم فهو منهم».

الأمم المنهزمة تحب أن تقلد الأمم المنتصرة.. وتعتبر أن مسلكيات ورموز الأمم الأقوى قرينة التقدم والفوز.. فى حين أن هذه المشاعر تؤكد الهزيمة وتساعد على استمرارها.. إذ لا يأخذ المسلمون من دول الغرب إلا المظاهر الشكلية التى تربط ولاءهم بالنموذج الغربى دون أن تحقق لهم تقدما ولا التحاقا حقيقيا بركب التقدم المادى لأنهم لا يأخذون بأسباب التقدم الحقيقية.. وعلى رأسها أن تنتمى الأمة إلى عقيدتها وإلى شخصيتها الحضارية الخاصة، أى أنهم ينزعون أول أسباب قوتهم وتقدمهم وهو الانتماء لعقيدتهم.. والأمم المسيطرة والسائدة تعرف أهمية ومعنى الرموز، والأمم المهزومة تتصور أن هذه مجرد شكليات.. ثم يعوضون تأخرهم بالتشبه برموز وسلوكيات الأمم السائدة.

ولا يدرك حكام المسلمين أن الاستعانة برموز الأعداء تؤدى إلى تفسخ شخصية الأمة وإلى تعلقهم بالأعداء وبالتالى تكريس الانهزام أمامهم.. لذلك كان من إيجابيات الصحوة الإسلامية المعاصرة أنها أعادت الاعتبار إلى الرموز الاجتماعية للأمة على رأسها إحياء سنن الرسول ﷺ فى مختلف تفصيلاتها.. ورغم ما صاحب ذلك من غلو فى بعض الأحيان.. وتحويل بعض السنن إلى فرائض.. أو عادات إلى سنن وفرائض.. رغم كل ذلك يظل الاتجاه العام لهذا الإحياء للسنة الفعلية

اتجاها عظيما عكس يقظة أمة، كالتـمسك بأدعية المناسبات، وطرق المأكل والمشرب والملبس والتجمل ومعـاملة الأزواج والأولاد والجيران والاحتفال بالمناسبات الدينية أو التى يقرها الدين. . وقد فعل كثير من المسلمين ذلك باندفاع غريزى فطرى، فى تعطش دينى وبحثـا عن هوية مفقودة دون أن يتوقفوا عند المغزى العميق لهذه السنن.

فمثلا سنة حف الشارب وإعفاء اللحية التى تستند لعدة أحاديث أهمها (خالـفوا المشركـين. . اعفوا الـلحى وحفـوا الشوارب). . فـالتميـز عن المشركين هو حكمة ومغزي الدعوة لإعفاء اللحى وحف الشوارب.

وهناك رموز ترقى إلى مـستوى الفـريضة (كالحـجاب بالنسبـة للنساء) وانتشار الحجاب فى مصر وكثير من البـلاد العربية والإسلامية غير نفسية كثير من المسلمين، وأصـبحت المرأة المحجبة أكثر جـمالا وقبولا فى نظر رجال المسلمين. . رغم أنها لم تكن كذلك منذ عقدين أو ثلاثة عقود من الزمان. . وأضفى الحـجاب حالة من الوقار والاحتشـام على المجتمع. . ومن نافلة القـول إن نقول إن الإيمان مظهـر ومخـبر وأن المخبـر أهم من المظهر. . ولكن الاستهانة المطلقـة بالمظهر نوع ظاهر من الغفلة. . قبل أن يكون أنكارا لنص شرعى لا يحتمل التأويل.

ومن اللافت للانتبـاه أن الغربيين أدركوا المغزى الخطيـر لهذا المظهر. . الذى لا يزال بعض المسلـمين يستـهين به. . فـشنوا حـربا شـعـواء على الحـجاب فى بلاد كـفـرنسـا وألمانيا، ولـم تضـع الحرب أوزارها بعـد. . واضطر شرطيان مسلمان فى أمريكا للجوء إلى المحاكم لتأكيد حقهما فى أعفاء اللحية.

فكمـا ذكـرنا فـإن القوى الـسائدة.. ولأنـها تأخـذ بسنن العـمـران الاجـتـماعى فـإنهـا تدرك مـعنى الرمـوز فى تماسك الحـيـاة الداخليـة لمجتمعاتهم.. وفى انتشار مظلة هيمنتهم على المستوى العالمى.

وهناك رمـوز غير دينيـة ولكن من المسـتحب التـمسك بها فـالملابس الشـرقية الوطـنية سـواء للنساء أو الرجـال، أكثـر تواكبـا مع الاحتـشام الدينى.. وهى أيضا أكثر تناسبا مع مناخ مجتمعاتنا.

ضمن عـوامل الانهزام الروحى أن يصر الرجـال المسلمون على ارتداء رابطة العنق والجوارب والسترات والبدلة الغربية فى بلاد تزيد فيها الحرارة على ٤٠ درجة لأنه دخل فى روعهم أن التشبه بملابس الغرب يعتبر طورا أعلى من التقدم والتـحضر والتمدين!! أمـا فى البلاد التى لم تسقط إلى هذا المدى فى العقد الغربية كالصين واليابان والهند فهى البلاد التى تنافس الحضارة الـغربية على أرض أكثـر ثباتا.. وتأكيدا على أن الأعـداء كانوا دائما يفهمون خطورة وأهمية هذه الرموز.

نعود إلى مثالين مهمين من التاريخ القريب:

فقد أصدر البرلمان البريطانى فى أثناء احتلال السودان قانونا يحظر على سكان جنوب السـودان ارتداء الجلبـاب العربى، ذلك فى إطار إجـراءات شتى لوضع جنوب السـودان تحت سياسة (المناطق المقـفلة) لعزل الجنوب عن الشمـال ولوقف التمـدد الإسلامى الذى كـان قد بدأ يفعـل فعله.. ولاتزال آثار هذه السياسة تفعل مفعولها في السودان حتى الآن.

كان تجريد المرأة الجزائرية من الحجاب (النقاب والخمار) محورا أساسيا فى خطة الاحتـلال الفرنسى للجزائر ولضمـان استمراره، ويشـرح فرانز

فانون الرؤية الفرنسية - التى يفرضها - كالتالى (إذا أردنا أن ندمر أساس المجتمع الجزائرى وقدرته على المقاومة يجب أولا أن نحتل النساء ويجب أن نذهب ونبحث عنهن خلف الحجاب اللائي يختفين خلفه) ومن هنا واصل الفرنسيون الهجوم على نظام الزواج الإسلامى والحجاب إلا أن كل القوانين التى حاول المستعمر إصدارها لم تعمل على تغيير وضع المرأة.

وقال كاتب فرنسى: «إن تبنى المرأة المسلمة للباس الأوروبى قد يساعد على إعطائها فرصة للتحرك فى مجتمعات المستوطنين الفرنسيين».

وجاء فى دراسة غربية أخرى: «إن الحجاب فى الجزائر يحمل رموزا ودلالات كبيرة حيث اعتبر الحجاب المصنوع من قماش بسيط حاجزا جسديا ونفسيا».

واعتبر الفرنسيون الحجاب عقبة كأداء أمام «إصلاح» المرأة المسلمة.. وخلال سنوات الاستعمار فشل الفرنسيون فى نزع الحجاب لأنه كلما زادت محاولتهم زادت عمليات المقاومة الجزائرية (وصار الحجاب رمزا للصراع بين الغزاة والجزائريين).

ويقول الثورى فرانز فانون: إن الفرنسيين كانوا يحاولون تدمير أى شئ يعمل على تشكيل حقيقة وهوية قومية ووطنية للجزائريين ولهذا ركزوا جهودهم على نزع الحجاب الإسلامى الذى يعتبر رمزا للمرأة الجزائرية، وعن خلع الحجاب كتب فانون: (كل حجاب يخلع يعتبر تعبيرا سلبيا عن حقيقة أن الجزائر بدأت تتنكر لنفسها وأنها بدأت تتقبل اغتصاب المستعمر لها). وأضاف: (إن المستعمرين الفرنسيين كانوا مهووسين بنزع الحجاب) ثم يشير بعد ذلك إلى تحول الحجاب والنقاب إلى رمز للمقاومة

عندما استخدمت النساء هذا الثوب الفضفاض لتهريب الأسلحة والمتفجرات!.

وأخيرا نتوقف عند هذا الاقتباس المعبر لأحد أدباء فرنسا فى القرن التاسع عشر عن تجربة احتلال الجزائر ومسألة الرموز:

«من الغريب أن نعتقد أننا احتللنا الجزائر والحقيقة أن الجزائر هى التى تكاد تحتلنا.. حيث بدأت نساؤنا بلبس الحجاب المزين بالذهب وآلاف الألوان التى كانت تلبسها خادمات الحريم.. كما أن شبابنا يقومون بتقليد البرنس.. والطربوش حل محل قبعة الرأس وبدأنا نتبنى العادات الشرقية بحيث أصبحت حياة البدائيين متفوقة على ما يسمى حضارتنا، وإذا استمرت هذه الموجة فإن فرنسا ستصبح محمدية وسنرى قباب المساجد البيضاء تملأ أفقنا وسنعيش ونري ذلك اليوم».

طبعا مخاوف صاحبنا لم تتحقق فى القرن التاسع عشر ولكن فرنسا تعانى منها الآن فى أواخر القرن العشرين وستعانى أكثر فى القرن القادم.. ولكن ما يعنينا هنا إدراك الأديب الفرنسى «ثيوفايل جوتيه» العلاقة الوثيقة بين الرموز والعادات والعقائد.

ويقول بعض المهزومين فى أمتنا: ليست هذه هى القضية (وكأننا مشغولون بالفعل بأمور أكثر تعقيدا) والحقيقة أنه لا معنى لفصل الشكل عن المضمون على أساس أن المضمون أكثر أهمية.. لأن المضمون - رغم أنه هو الجوهر - لا قيمة له بل لا يمكن أن يوجد أصلا بدون إطار شكلى محدد.. فروح الإنسان هى الأساس ولكن لا قيمة لها ولا يمكن أن تظهر بدون جسد والإيمان بالله يتبخر فى الهواء إذا لم يتجسد فى الأعمال المادية للعبادات.. وهكذا ولأن أعدائنا أكثر وعيا.. فهم يواصلون غزونا

برموزهم ونحن مستسلمون.. وما سعى اليهود لوضع رمزهم اليهودى فى صورة هريم ذهبى على قمة الهرم الأكبر فى مصر إلا آخر الأمثلة على غفلتنا وعلى يقظة أعدائنا وأعداء الله.

إذن يتعين علينا أن نحمى رموزنا الدينية والاجتماعية والحضارية وأن نحمى مجتمعاتنا من غزو رموز العقائد المناهضة وعلى رأسها الماسونية اليهودية. وعلينا أن نعى لماذا تهتم هذه الحركة بل وتضع فى قلب أهدافها بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى باعتباره رمزا لعزة إسرائيل.. لذلك جاء فى دائرة المعارف الماسونية الصادرة فى أمريكا عام ١٩٠٦ (يجب أن يكون لكل محفل ماسونى رمز لهيكل اليهود) ومن الأدعية التى يقرأها جميع الحاضرين من الدرجة ٣٣ فى المحافل الماسونية (سنعود إلى عهد سليمان بن داود ونبنى الهيكل الأقدس ونقرأ فيه التلمود وننفذ كل ما جاء فى الوصايا والعهود، وفى سبيل مجد إسرائيل نبذل كل مجهود).

والرموز ليست مجرد شعارات أو أعلام أو نصب تذكارية فقد تكون كيانات وجمعيات أهلية تجمع بين الرمز والعمل التنظيمى لتحقيق الأهداف، ومن أبرز وأشهر هذه الكيانات جمعيات الليونز والروتارى.. فهذه الجمعيات لها رموز وطقوس وسلوكيات اجتماعية غربية.. وقد حرم علماء المسلمين الانتماء لهذه الجمعيات التى تربطها صلات مشبوهة بالماسونية العالمية.. ولكن فى بلد كمصر تراجع حكامنا عن هذا الموقف وهم يتبنون هذه الجمعيات ويحيطونها بأقصى درجات الرعاية.. وهذه الجمعيات بالإضافة لما تمثله من الرموز التى تبدأ بوضع شارة الروتارى على الصدر وبالإضافة لما تمثله من نموذج حى لاختلاط الولاء بين المؤمنين

والمشركين، فإن هذه الجمعيات أسسها يهودى ومركزها فى الولايات المتحدة وهى تخلق ولاء جديد اسمه ولاء الروتارى وأن عضو الروتارى يجب أن يتولى زميله فى أى خدمة أو طلب حتى ولو كان هذا الزميل إسرائيليا لأن الولاء عالمى يتخطى الحدود الوطنية والقومية.. بالإضافة لكل ما سبق فإن هذه الجمعيات تدعى أنها قائمة على أساس فكرة الخدمة الاجتماعية وذلك بتقديم الخدمات للمدارس والمستشفيات والملاجئ.. إلخ.. وكأن مجتمع المصريين والمسلمين عاجز عن التكافل الاجتماعى إلا من خلال منظمة دولية يقع مركزها فى أمريكا ولها فرع أساسى فى إسرائيل وتقوم بتنظيمها على أساس المناطق الإقليمية.. وليست منظمات الروتارى والليونز إلا المنظمات الأكثر قدما وشهرة.. أما الآن فتجتاح مصر والبلاد الإسلامية عشرات الجمعيات ذات الطبيعة الدولية والتى تدعى أنها تكرس رسالتها لخدمة الإنسان بينما هى تخلق لأعضائها فى بلاد المسلمين ولاء يعلو فوق الولاء الدينى والوطنى.

●●●●●

ولأن النظام الأمريكى يعانى من حالة فقر روحى ودينى مدقع فقد أضحى عاجزا عن تصدير رسائل فكرية وروحية ودينية.. ولم يعد يركز على بعثات التبشير مثلا، كما كان المعتاد فى زمن الاستعمار التقليدى الذى واكبته أمريكا فى عهده الأخير.. وإن كان هذا الأسلوب لايزال يستخدم فى أواسط آسيا وأفريقيا.. أما الأسلحة «الفكرية» الأساسية للنظام الأمريكى فلا تتجاوز الآن الصخب الإعلامى.. والإنتاج السينيمائى.. وأغنيات وموسيقى الصخب. وهى تعوض بالإبهار التقنى الخواء الروحى وانحطاط الإنتاج الثقافى فى الفنون والآداب لحضارة

آفلة.. ورغم أن أمريكا فى مواجهة الشيوعية كانت تحاول أن تبرز لها وجها مسيحيا.. أما الآن فقد أصبح وجه أمريكا ماديا كالحا.. وسمعتها الأخلاقية والدينية فى الحضيض.. وقد انعكس هذا على تخلف رموزها التى تحاول تعميمها فى العالم.

النظام الأمريكى لا يملك زادا روحيا من أى نوع يصدره للعالم.. لذلك فإنه يصدر لنا الرموز المادية للدين الجديد.. الذى أسماه أحد المفكرين الغربيين دين التكنولوجيا أو دين المادة والاستهلاك.. فإذا كان لليهودية رموز: كالطاقية الصغيرة والشمعدان والنجمة المسدسة.. إلخ، وللمسيحية رموزا كالصلبان وصور المسيح ومريم العذراء فإن رموز الدين الأمريكى هى الكوكاكولا والجينز والهامبورجر (محال الوجبات السريعة) والسجائر الأمريكية وغيرها من الرموز الاستهلاكية التى تترسخ يوما بعد يوم.. وغزو بلاد المسلمين وغيرهم بهذه الرموز ليس عملية تجارية محضة تحقق من خلالها هذه الشركات أرباحا خرافية.. فرغم أن ذلك صحيح إلا أن السلطة السياسية الأمريكية تدرك أهمية انتشار هذه الرموز فى العالم وهى لا تترك الشركات التى تنشر نمط الحياة الأمريكية إلى تقلبات السوق أو إلى أمزجة العرض والطلب.. بل تستخدم كل نفوذها السياسى لفتح الأسواق لهذه الشركات الرئيسية والحفاظ على وضعها وتطوره فى هذه الأسواق.. ليس لمجرد تبادل الدعم بين النفوذين السياسى والاقتصادى بل أيضا الاعتبار الرمزى الذى تمثله سلع هذه الشركات والتى تتحول إلى مدفعية ثقيلة للنفوذ السياسى الأمريكى.. هذا حدث مثلا فى مصر وموسكو ودول وسط آسيا المسلمة حيث سبقت هذه السلع شركات البترول والنفوذ العسكرى الأمريكى، وقد حدث الارتباط الجماهيرى بهذه

السلع من خلال حمــلات إعلانية مهولة تستلب عقــل ووجدان المستهلك بالإضافة لحسن العرض وجــودة التغليف والإبهار الخارجى بحيث تدخل مجمــوعة من السلع الاستهــلاكية الأمريكيــة فى الحياة اليوميــة للمواطن ويظن أن الحــياة أضــحت لا تطاق بدونه. . وهو شــعور زائف بطبــيعــة الحال. . وعندما تدعو حكــومة إسلامية أو حركة وطنيــة أو إسلامية إلى مقاطعة هذه البضائع تواجــه بمعارضة من عامة المسلمين الذين تعودوا هذا النمط الاستــهلاكى وبالتــالى تحمي أمريكا مــصالحهــا من داخل المسلمين أنفــســهم. . ولا تتصــوروا إن الإعــلانات التى تملأ الشــوارع ومــحطات التليفــزيون هى لمجرد الترويج التجــارى. . بل أيضاً للاستيــلاء العاطفى على وجــدان المستــهلكين لحســاب هذه الدولة العظمى التى أنتــجت هذه السلعة «الرائعة»! وأيضــاً لتغيير معــالم المدينة. . فتسير وكــأنك تسير فى مدينة أمريكية أو بالأحرى مطلية بطلاء أمريكى سطحى.

ولاشك أن مقاومة هذا الغزو التجارى والنفسى لا تكون بمجرد قرارات المنع والمقاطعة شعبيا أو حكوميا، ولكن بإبداع وترويج سلع وطنية لا تقل جودة وتكون أكثر صحية وفائدة، ولكن من عوامل انهيار وانهزام حكامنا أنهم عاجزون عن أداء أبسط المهام. . عاجزون عن تشجيع إنتاج مشروب وطنى ومأكل وطنى وملبس وطنى، بل يبيعون وحدات إنتاجية قادرة على ذلك للأجانب وللأمريكيين تحديدا.

وتندرج فى إطار الرموز الاجتماعية مــسألة انتشار الأسماء والشعارات الأجنبية فى الــشوارع كأسماء المحــال والشركات وبحروف لاتينيــة تفسد مزاج وشــخصيــة وروح المصرى والمسلم، ويدخل فى روعه أن الأســماء الأجنبيــة براقة، وأن اللغة الأجنبيــة أجمل من لغة القــرآن، وأنها عنوان

التقدم والرواج التجارى والأناقة، وهذه السموم البطيئة غير المباشرة لا تقل فتكا إن لم تزد على الأساليب المباشرة فى طمس الهوية الحضارية.

إن تطبيق التوجيهات القرآنية فى هذا الشأن يحتم إلغاء هذه الفوضى المزرية ومنع استخدام الأسماء والحروف الأجنبية فى أسماء المحال والشركات.. وأيضاً فى كل ملصقات وإعلانات الشوارع.

هذا التقليد الأعمى للغربيين حذرنا منه الرسول ﷺ فى حديثه: «لتتبعن سنن من قبلكم، شبرا بشبر وذراعا بذراع. حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: فارس والروم؟ قال: فمن؟».

والحديث ينكر على الأمة أن تفقد هويتها وأصالتها إلى حد تغدو فيه ذيلا تابعا للآخرين من أصحاب الحضارات السائدة غير الإسلامية.

إن حرص الإسلام بالغ فى تشريعاته وتوجيهاته على أن تظل الشخصية المسلمة متميزة فى مخبرها وفى مظهرها حتى لا يسهل ذوبانها فى غيرها وبالتالى تفقد خصائصها ومشخصاتها، وفى هذا معنى الدعاء اليومى المتكرر:

**﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾** .

وفى هذا ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه القيم «اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة أهل الجحيم».

## سابعا: تحريم استشارة الكفار وإطلاعهم على أسرار المسلمين

كل أية قرآنية أو حديث نبوى تتضمن أكثر من معنى، ولذلك نكرر أحيانا بعضها للتركيز على معنى جديد فيها. وفى هذه النقطة نقف أمام تعبير «بطانة - وليجة» التى وردت فى الآيتين التاليتين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦]

و«بطانة» و «وليجة» أشبه بالمترادفين.. والبطانة معروفة .. وهى الجماعة الاستشارية الخاصة التى تحيط بصانع القرار .. وبالتالى فهى مؤتمنة على الأسرار، وأفرادها محل اعتبار وتقدير وتأثير.

هل يوجد ما تنطبق عليه فى العصر الحديث هذه المعانى، أكثر ممن يسمون اليوم «الخبراء الأجانب» من صندوق النقد والبنك الدوليين وبعض المتآمرين فى السفارات الأجنبية الذين يبولون فى آذان الحكام ومساعديهم كما يبول الشيطان!! فهؤلاء «الخبراء» الذين تسللوا إلى أعصاب عدد من الدول الإسلامية يدعون العصمة وأنهم يملكون الحقائق المجردة عن الهوى.. وأنهم يسعون لصالح المسلمين، وكل هذا كذب صريح من الألف إلى الياء. إنهم إذا كانت لهم عقول .. فنحن لنا عقول .. وإذا تفوقت خبرتهم علينا فى بعض المجالات فهم لن يعطونا ما يفيدنا بحيث ننافسهم ونلاحقهم فى سباق التقدم المادى .. وإنهم بالقطع لا يريدون لنا خيرا: ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

ونحن في مصر، ومن خلال خبرتنا معهم على مدار أكثر من عقدين، هل أعطونا أسرار التكنولوجيا أم حجبوها عنا؟! .. وحاربوا حقنا فى امتلاكها؟!

ما أروع إعجاز «القرآن الكريم» الذى يصف بالدقة ما يحدث لنا معهم الآن رغم مرور أكثر من ١٤ قرنا على نزوله على قلب رسولنا الكريم، إنه ينطبق عليهم على وجه الدقة قول الله عز وجل:

**﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾**

[آل عمران: ١٢٠]

وبالإضافة إلى ذلك فإن وضعهم فى موضع البطانة يتيح لهم الإطلاع على أخص أسراركم، وبالتالى يعرفون نقاط قوتكم وضعفكم ويستغلونها بعد ذلك فى ضربكم فى لحظات المواجهة الحاسمة والمكشوفة .. وهنا نجد أن القرآن الكريم يتحدث فيما نسميه الآن ضرورات الأمن القومى.

وتطور الصراع العالمى برهن على الأهمية الحاسمة لمسألة المعلومات، فمعرفة المعلومات العسكرية والسياسية والاقتصادية للخصم أساسية لضربه .. فإذا كانت المعلومات تكشف نقاط الضعف فهى نقاط النيل من المجتمع المسلم، أما نقاط القوة فيتم إعداد وسائل التغلب عليها مادام الخصم قد عرف بها مبكرا، والصراع المخابراتى فى الحروب الحديثة لعب دورا مهما للغاية فى حسم النتائج النهائية لها.

كما أنه لايقل أهمية فى أوقات السلم .. حيث عرفنا ما أصبح يسمى بالتجسس الاقتصادى .. وأيضا صراع المعلومات حول الكشوف العلمية التى تفيد فى الصناعات المدنية والعسكرية على السواء.

واليوم فإن مصر تبدو أمام أمريكا وإسرائيل كورقة بيضاء شفافة إلا قليلا، وهذه من أهم عوامل ضعفنا إزاءهما والسبب الأساسى لا يرجع إلى الأقمار الصناعية - على أهميتها - فقد أثبتت حرب أمريكا ضد العراق محدودية قدرة هذه الأقمار فى كشف مواقع الصواريخ، وهى لم تدمر أساسا إلا من خلال لجان التفتيش التى دخلت العراق بعد انتهاء الحرب، أما السبب الأساسى لانكشاف مصر أمام أمريكا وإسرائيل فهو أن عملاءهما جاثوا خلال الديار وعششوا فى كثير من المواقع، وكذلك وجود بضعة آلاف من الأمريكيين مستقرين دائما فى مصر بحجة متابعة المشروعات التى تمولها المعونة الأمريكية، وهؤلاء الموظفون الأجانب يدخلون كل المواقع الحكومية ويحصلون على كثير من المستندات استنادا لنصوص اتفاقيات المنح والقروض، هذا بالإضافة إلى عملياتهم التفتيشية على أعلى مستويات اتخاذ القرار فى الوزارات المختلفة. ويقوم بنفس الدور ممثلو صندوق النقد والبنك الدوليين . . وتقوم الحكومة المصرية - فى نهاية كل جولة تفتيشية - بتقديم خطاب نيات سرى للصندوق، يتضمن قائمة بالنقاط التى أذعنت ووافقت على تنفيذها دون أن يعرض هذا الخطاب السرى على المؤمنين من أهل هذا البلد!!

و«الخبراء» الأجانب وفيهم نسبة كبيرة من اليهود - بجنسيات مختلفة - يتدخلون فى أخص شئوننا فى التخطيط لمناهج التعليم، والبرامج الاجتماعية لتلاميذ المدارس، وفى قطاع الآثار، وفى عمليات الخصخصة، أما فى الزراعة فحدث ولا حرج، حيث يأتى اليهود علنا كخبراء إسرائيليين ويتدخلون فى شئون ثروتنا الزراعية والحيوانية والسمكية، الأمر الذى أدى إلى البوار المعروف فى كل هذه المجالات.

وحكامنا فى كل هذه الممارسات ينتهكون التحريم القرآنى لهاتين النقطتين:

استشارة أعداء الله . . وإطلاعهم على أسرار المؤمنين.

يقول الرسول ﷺ: «لا تستضيئوا بنار المشركين».

وفى رواية أخرى: «لا تتراءى نارهما».

ويقول ابن كثير فى تفسيره أن المقصود بهذا الحديث نهى المؤمنين عن استشارة المشركين فى أمورهم.

## ثامنا: الموالاة فى المجال الاقتصادى

النقطة السابقة أوصلتنا إلى أعتاب هذا المحور الأساسى: فاتخاذ غير المؤمنين بطانة وإطلاعهم على أسرار المسلمين ينقلنا إلى العلاقات الاقتصادية الدولية، حيث تقع بعض الدول الإسلامية فى شرك التبعية الاقتصادية (وهى لب الموالاة المعاصرة للكافرين) وتبرره بأن هذه هى طبيعة العصر، حيث لايمكن الانعزال عن التطورات العالمية، وهى كلمة حق يراد بها باطل.

والتبعية فى تعريفها البسيط تعنى أن ندور فى فلك الاقتصاد الغربى، ننتج ما يريد لنا أن ننتجه ونستهلك مايريد لنا أن نستهلكه، وإذا سمح لنا أن ننتج شيئا كان ذلك بإشرافه وهيمنته، بحيث نظل مربوطين بعجلته.

وهنا نعود مرة أخرى إلى هذه الآية الكريمة، ولنطل عليها من زاوية جديدة.

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]

وهذه الآية الكريمة قاطعة فى رفض وضع الاعتبارات الاقتصادية كحجة لموالاة الكفار دون المؤمنين، أى أنها ترفض دعاوى الضرورات الاقتصادية، حيث لابد أن تكون موالاة المؤمنين بعضهم بعضا فى مختلف المجالات ومن أهمها بطبيعة الحال أمور المعاش الاقتصادى الذى بدونه لا تسير الحياة، ولا يتحقق العدل، ولا يحدث ازدهار ولا تتوافر

القاعدة الثابتة للمجتمع القائم على الإيمان بالله تعالى، فلا يجب أن تكون الأرزاق مجالا لفتنة المؤمنين فى دينهم، وبهذا المعنى نفهم دعاء الرسول ﷺ:

«اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر».

فكيف يمكن أن تقوم قائمة لمجتمع المسلمين بينما تكون مصائره الاقتصادية مرتبطة بقرارات ومواقف الدول المعادية للإسلام؟!! هل سيمده الأعداء بأسباب القوة الاقتصادية ليقضى عليهم؟! أو حتى لينافسهم؟! ثم ليستقل عنهم بسوقه واقتصاده وقراراته وسيادته الوطنية؟!

كذلك نذكر بالآية الكريمة: ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ .

ألا نسمع تقريبا نفس الألفاظ الآن .. عندما يقول مسلم منهزم: (من يقدر على مقاطعة أمريكا، إن اقتصادنا سيبور كما أن الولايات المتحدة ستحطمنا!!) أليس هذا هو المعنى الوارد فى القرآن الكريم (بدون بلاغته طبعا) ﴿ **نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ .. وهى تشير للبوار الاقتصادى وتحطيم الشوكة والقوة!!

وليس معنى الآية الكريمة:

﴿ **وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا** ﴾

أن الجهاد فى سبيل الله وحب الله ورسوله وما يقتضيه من موالاة المؤمنين دون الكافرين .. سيؤدى حتما إلى الفاقة والفقر، فالمسألة هى: ما الهدف الأول والأسمى لحياة المؤمن؟ فإذا كان هو الالتزام بتعاليم الله، يأتى بعد ذلك ترتيب الأحوال الاقتصادية لتكون خدمة للجهاد، ثم

لتنظيم المعاش الاقتصادى على أفضل صورة وأعدل شكل ممكن، وأيضا فإن الإسلامَ وضع القواعد العامة المنظمة لها.

ولابد لمجتمع المؤمنين أن يمر بابتلاءات:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٠٠]

ومن ينجح فى هذه الابتلاءات يصل إلى مرحلة اليسر:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]

ودوائر اليسر والعسر متواصلة فى الحياة الدنيا، فمجتمع المؤمنين لن يمر باختبار واحد من العُسر ثم يهنأ بعد ذلك بيسر مقيم، فالدائرة تدور .. وهم صابرون فى العُسر، شاكرون مخبتون زاهدون متواضعون فى اليسر.

وما يعنينا ونحن نتحدث فى الأمور الاقتصادية أن يكون الفرق واضحا بين الإنسان والحيوان، فالإنسان قراره مركب (معنوى ومادى) وهو فى حالته الرشيدة الطبيعية لا يسعى للوضع الاقتصادى الأرقى بأى صورة حتى إن كانت تجرح أو تهين كرامته.

أما السائمة فهى لو تركت لشأنها فإنها تتجه بقرار بسيط نحو المرعى الأفضل! ومع ذلك فإن الدراسات العلمية والمشاهدة المباشرة لعالم الحيوان تؤكد أن الحيوان يمكن أن يمتنع عن الأكل لأسباب معنوية كفقد عزيز أو الانتقال القسرى إلى مكان غريب عليه.

وقد كان شعار عصر الانفتاح الاقتصادى فى مصر شعارا أقل من

حـيـوانى . . وهو البـحـث عن الدخل الأعلى بغض النـظر عن القـيم والكرامـة والأخلاق، ولذلك أصـبحت بلادنا نهـبا لكل أشكال الجـرائم البشعة وبمعدلات غير مسبوقة فى تاريخنا المعاصر على الأقل وهو موقف أقل من حيوانى، تأكيدا لما جاء فى القرآن الكريم:

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤]

لأن الإنسان إذا لم يسم بأدميته التى كـرمه الله بها فإنه يصبح أقل من الأنعام.

ونحن لانريد أن نركز - كما هو شائع فى الفكر الإسلامى الرسمى - على الموقف الفردى فـحسب، بل نعنى أكـثر فى هذه الدراسة بالمجـتمع ككل، وهنا تأتى المسـئولية العـظمى والأولى لأهل الحكم الذين يملكون وسائل التعليم والإعلام والثقافة، ووضع السـياسات الاقتصادية وإمكانية فرضها بالقسر والقانون، وترويج القيم المواكبة والمصاحبة لها بحيث فتنوا الناس فى دينهم. . فأصبح العـمل فى الشركات الأجنبية أكـثر ربحا من الشركات الوطنية، والمتاجرة فى سلع أجنبـية أكثر ربحا من السلع الوطنية . . وهكذا دواليك.

وقـد بدأت مصـر فى السـقوط فى براثن الـتبـعيـة بدءا من منتـصف السبـعينيات، أما الآن فـإن خطة الحكومة هى السير فى طريق تعلـيمات صندوق النقد الدولى، ولا تختلف معه إلا على معدلات التنفيذ فى شتى المجالات المطلوبة: رفـع الدعم، بيع القطاع العام (الخـصخصـة)، تحرير الأسعار، التـحلل التدريجى من المسئـوليات الاجتماعـية للدولة، تحطيم الحماية الجمركية للصناعة الوطنيـة، وفتح الأسواق على مصراعيها للسلع الأجنبيـة . . . إلخ . . إلخ والمعروف أن الصندوق والبنك الدوليـين هما

الأداتان الاساسيتان للولايات المتحدة فى المجال الاقتصادى العالمى. كما أن مسئولى الولايات المتحدة لايخفون تطابق أهدافهم تجاه الاقتصاد المصرى مع توجيهات الصندوق والبنك.

وعندما ينحصر فكر ورؤية حكومة فى دولة إسلامية حول الأمور الاقتصادية مع مثل هذه الجهات، فهذا هو التطبيق الحرفى لجريمة موالاة الكفار فى المجال الاقتصادى، وهو الأساس الأعمق لحالة البوار التى تنشأ فى حياة المسلمين. فهذه الدولة الأمريكية المستكبرة وأجهزتها الدولية تعمل على بقائنا فى مكاننا كالثور فى الساقية، يدور ويدور، والمكان الذى انتهى إليه هو الذى ابتدأ فيه . . إنها لا تساعدنا على تنمية التقدم بل تعمل جاهدة على «تنمية التخلف».

يصف أحد المحللين الغربيين المنصفين «وهم قلة نادرة» البنك والصندوق الدوليين بأنهما اتجها نحو ما يسمى «التنمية» والتى هى فى الغالب شكل من أشكال التخلف الموجه للعالم الثالث. وأن أثرهما ساحق فى دمج الجنوب - المناطق المستعمرة قديما - فى المجتمع العالمى المسيطر عليه من قبل القطاعات التى تتركز فيها الثروة فى الشمال - المجتمع الغنى - ويؤكد أن دول الجنوب هى التى تمول دول الشمال الغنى فيقول:

«إن مئات المليارات من الدولارات تدفقت من الجنوب إلى الشمال . . بأشكال مختلفة منها خدمة الدين التى تزيد على حجم المساعدات، ودمغات الفوائد على الدين وأشكال متعددة من هروب رأس المال . . وفى الوقت الراهن فإن دولا إفريقية فقيرة جدا تصدر هى الأخرى رءوس الأموال إلى مؤسسات الإقراض الدولى»!.

والنتيجة النهائية لكل ذلك هو ما يسميه البعض على سبيل التندر: البرنامج الذى بموجبه يمول الفقراء فى الدول الغنية الأغنياء فى الدول الفقيرة!! . . وهنا يأتى دور الصندوق الذى يتصدى لمشكلات التضخم، وعدم استقرار العملة فى الدول النامية، ويفرض عليها أشكالا صارمة من التقشف: موازنة الميزانية، تخفيض الخدمات، مراقبة العملة وضبطها . . . إلخ . . من اقتصاديات السوق الحرة الليبرالية الحديثة، وهى موجعة بالنسبة للأغلبية الساحقة من السكان.

وهذه الإجراءات الموجعة ترفض الدول الغنية نفسها العمل بها، فالولايات المتحدة التى تعانى ديونا غير مسبوقة فى التاريخ لا تقبل «اقتراحات» صندوق النقد، فأمريكا أقوى من أن تتبع التعليمات، بل هى تملك من حصة الصندوق مايكفى لاستخدام حق الفيتو على أى قرار.

أما دول الجنوب «خاصة تلك الواقعة تحت سيطرة نخبة موجهة غربيا - أى موالية - والتى تحقق لنفسها ـ أى النخبة ـ منافع خاصة» هذه الدول هى التى تتبع تعليمات الصندوق حتى وإن أدى ذلك إلى حدوث كارثة لمواطنيها، ولذلك فإن هذه النخب تصبح مكروهة فى بلادها. فقصة السوق الحرة الليبرالية الحديثة كلها مرسومة بشكل أساسى من أجل فائدة الناس الذين سيربحون فى اللعبة، ولا أحد آخر يتبع هذه التعليمات، إن الغرب لا يتبعها إن لم يكن سيربح. وعلى سبيل المثال يقدر البنك الدولى الإجراءات الحمائية «الجمركية» المفروضة الآن من الدول الغنية تكلف العالم الثالث أكثر من ضعف مقدار المساعدة الكلية المقدمة من الشمال إلى الجنوب، وإن تلك «المساعدة» هى تقريبا شكل مخفى من أشكال تعزيز التصدير من الشمال إلى الجنوب.

كان ذلك اقتباسا من دراسة صدرت عام ١٩٩٢ فى الولايات المتحدة ولننتقل إلى دراسة أمريكية أحدث صادرة فى منتصف عام ١٩٩٩، أى منذ أشهر قليلة، وهى تؤكد أن سير التطورات الاقتصادية العالمية يتواصل لمصلحة الطغمة الشمالية المسيطرة برئاسة أمريكا. فخلال الأعوام الخمسة عشر الماضية انخفض دخل الفرد فى حوالى ١٠٠ دولة وأدى ذلك إلى انخفاض استهلاك الفرد بنسبة ١٪ سنويا فى أكثر من ٦٠ دولة.

ومن بين ٤,٤ مليار فقير يعيشون فى الدول النامية يعيش الثلث مفتقرا إلى ضروريات المعيشة الصحية الطبيعية والثلث الآخر يعانى عدم توافر مياه صحية للشرب، والربع يعانى عدم توافر مساكن صحية و ٢٠٪ يعانون سوء التغذية. وإن ثلثى سكان إفريقيا يتوقعون الموت فى سن الأربعين، وتؤكد الدراسة «إن مساعدات التنمية والإغاثة دائما ما توجه فى شكل مساعدات عسكرية وسياسية واقتصادية قصيرة الأجل أكثر منها لاستئصال ظاهرة الفقر» و «بلغ مجموع الديون الخارجية للدول النامية حتى الآن (٢,٥ تريليون دولار)»!!.

والمعلومات فى هذا المجال كثيرة .. ومروعة .. فيقول مثلا رئيس البنك الدولى إن نصف سكان العالم «أى ٣ مليارات نسمة» يقل دخلهم عن دولارين فى اليوم منهم مليار عاطل عن العمل!.

ويعيش مليار و ٣٠٠ مليون نسمة آخرون بدخل يقل عن دولار واحد فقط، وتؤكد الأمم المتحدة أنه فى عام ١٩٩٦ أصبحت سبعون بلدا من البلدان التى تتلقى المساعدات الأمريكية أفقر مما كانت فى عام ١٩٨٠، وكانت ٤٣ بلدا أسوأ مما كانت فى عام ١٩٧٠.

هذه إذن مؤشرات سريعة للمحصلة المؤلمة للنظام الأمريكى العالمى فى النصف الثانى من القرن العشرين، ومجتمعات المسلمين فى قلب مايسمى عالم الجنوب «أو الدول النامية».

ولا تستهدف سياسة الهيمنة الجائرة المسلمين فحسب بطبيعة الحال، بل عالم المستضعفين الجنوبى بأسره .. وهذا ما يفتح الطريق لتحالفات واسعة للمسلمين مع غيرهم من المستضعفين لمواجهة ظلم الاستكبار الأمريكى، فالمسلمون لايعادون من غير المسلمين إلا الأعداء المحاربين، وهم فى عصرنا الحديث فى المقام الأول «التحالف الأمريكى - اليهودى الصهيونى» وبالتالى فهناك مجال للتعاون مع تحالف واسع ضد آئمة الكفر والطغيان.

●●●●●

وبالإضافة إلى هاتين المنظمتين «البنك والصندوق» فإن العمود الثالث للهيمنة الأمريكية هو منظمة التجارة العالمية، والتى تستهدف فتح أسواق المستضعفين أمام غزو دول الشمال وخاصة الولايات المتحدة «فحتى أوروبا تضجر من محاولات الهيمنة الأمريكية على هذه المنظمة» .. ومنذ تطبيق بنود اتفاقية منظمة التجارة العالمية - منذ ٥ سنوات - حدث تراجع فى صادرات الدول النامية بنسبة ٧٪ وفى الوقت نفسه تراجعت أسعار المواد الأولية التى تصدرها الدول النامية بنسبة وصلت إلى ١٥٪ كما شهدت معظم موازين التجارة للدول النامية عجزا، كما تراجعت المساعدات والاستثمارات المباشرة المتجهة إلى الدول النامية، فخلال عام ١٩٩٨ اتجه ثلثا الاستثمارات المباشرة (وهى تقدر بـ ٦٤٤ مليار دولار) إلى أوروبا وأمريكا والثلث الأخير ذهب للدول النامية، وكان نصيب

أفريقيا «القارة المسلمة بأغلبيتها» نحو ٧,٧ مليار دولار فقط، كما تراجع نصيب أفريقيا من الصادرات العالمية من ٤,٩٪ عام ١٩٩٧ إلى نحو ٢,٣٪ عام ١٩٩٨. وإلى جانب ذلك تراجعت المعونات الرسمية مما أدى إلى اختلال واضح فى موازين مدفوعاتها وتراجع دخلها القومى مع زيادة مديونياتها.

وأكد د. أحمد جويلى - وزير التموين والتجارة السابق فى مصر - أن هناك شعورا عاما لدى الدول النامية بأنه مع كل اتفاقية يتم إعطاء ميزات للدول المتقدمة على حساب الدول النامية لذلك كان هناك اتفاق مع كل التجمعات على ضرورة مراجعة اتفاقية جولة أوروجواى لما بها من بنود تعسفية سواء بالنسبة للإغراق أو الصحة النباتية أو حتى استخدام معايير العمل والبيئة فى بعض الأحيان لوقف انسياب حركة التجارة وصادرات الدول النامية والأقل نموا إلى أسواق هذه الدول.

وقد أوضح اقتصاديون مصريون ذوو صلة بالحكومة أن الأحكام التى وردت فى اتفاقية أوروجواى والخاصة بتحقيق مصالح الدول النامية لم ينفذ معظمها رغم مضى ٥ سنوات على إنشاء منظمة التجارة العالمية وهو ما يؤكد أن الدول الغنية المسيطرة تحول الاتفاقيات إلى أداة تعمل فى اتجاه واحد لاقتحام أسواق الجنوب، بينما تواصل هى إجراءاتها الحمائية لعرقلة صادرات الدول النامية إليها، وإن الولايات المتحدة تستخدم أدوات غير تجارية لتأكيد هيمنتها وتحقيق مصالحها كالبيئة ومعايير العمل وحقوق الإنسان!

ويحذر د. جويلى من «تدهور عملية التنمية فى الدول النامية فى ظل ارتفاع المديونية، مؤكدا أن استمرار الوضع على ما هو عليه سيؤدى إلى

ازدياد تهميش الدول النامية فى النظام العالمى الجديد».

وكما فى السياسة، تؤكد الولايات المتحدة هيمنتها التجارية بالمعايير المزدوجة، فهى تؤيد تحرير حركة السلع ورؤوس الأموال والخدمات، لأن هذا فى صالحها بينما تعترض - ومع حلفائها الأغنياء - على حرية حركة القوى العاملة خشية تدفق العاملين من البلاد الإسلامية والجنوبية، ففى هذه النقطة تنسى أمريكا حكاية أن العالم قد أصبح قرية صغيرة، وتدور مواقف أمريكا مع مصالحها دون أية مراعاة لمصالح البشرية (على خلاف ما تزعم بالطبع!) وهى سعت لتوسيع مفهوم التجارة ليتخطى تجارة السلع ويشمل الخدمات والاستثمار والملكية، وهى توسع مفهوم الخدمات ليشمل الأعمال المصرفية، وهو الأمر الذى سيؤدى إلى إغراق وتدمير بنوك العالم الجنوبى ومؤسساته المصرفية كلها، وسيؤدى بالتالى إلى إزالة أية إمكانية لوجود برامج تنموية صناعية وطنية فى العالم الجنوبى.

وفى الاتجاه العكسى تدعو الولايات المتحدة إلى المزيد من الحمائية فى مجالات أخرى خاصة فى مجال حقوق الملكية الفكرية والتى تشمل كل ما يمكن تخيله: من الموسيقى إلى السينما إلى برامج الكمبيوتر وبراءات الاختراع، وتوسع أمريكا تعريف براءات الاختراع ليشمل اختراع جينات المزروعات والكائنات بحيث تصبح التكنولوجيا الحيوية (الهندسة الوراثية) فى أيدى الشركات الخاصة الأمريكية الرئيسية، وهذا يعنى أن الأدوية وبرامج الكمبيوتر والتكنولوجيا الحيوية (بغض النظر عن تقييمنا السلبى للهندسة الوراثية فى بعض المجالات) سوف تكون فى أيدى حفنة من الشركات الأمريكية بصورة احتكارية وستجنى عشرات المليارات من الدولارات كأرباح من هذا الاحتكار، وهذا يعنى أن الشركات التى قامت فى دول العالم النامى بنسخ هذه المنتوجات سيتعين عليها أن تتوقف،

وستتعرض صناعة الدواء المصرية - على سبيل المثال - لخطر المصادرة والتوقف فى حال إبرام اتفاقية الملكية الفكرية بهذا المعنى الأمريكى.

وقد بدأت الدول النامية تدفع تكاليف حقوق الملكية الفكرية، ففى عام ١٩٩٥ بلغت مدفوعاتها لحقوق الملكية أكثر من ٦٠ مليار دولار بعد أن كانت ٧ مليارات دولار عام ١٩٧٦.

وسيؤدى هذا التصاعد المخيف فى المدفوعات المالية إلى انخفاض طلب الدول النامية واستهلاكها من التكنولوجيا الحديثة مما سيؤدى إلى زيادة الفجوة بين الشمال والجنوب.

وتشتمل اتفاقية حقوق الملكية الفكرية على بنود تنضح بالرغبة العارمة فى السيطرة الأمريكية على شئون العالم، ونكتفى بالإشارة إلى أن حماية المنتج تتضمن طريقة صنعه .. وكذلك فإن عدم الالتزام بالاتفاقية يعرض الأفراد فى الدول النامية إلى العقوبات الجنائية مثل الحبس أو الغرامات المالية أو كليهما كما يمكن مصادرة السلع المخالفة وإتلافها.

●●●●●

هذه نظرة سريعة على مستوى العالم .. والآن ماذا كانت حصيلة ارتباط مصر بالعجلة الأمريكية - الإسرائيلية منذ أكثر من عقدين من الزمان؟ وهى فترة كافية للتقييم .. وهل موالاة الأمريكيين واليهود الصهاينة عادت بفائدة على مصر؟! بدأنا الجدال برفض أن يكون هذا هو السؤال الأول .. فالسؤال الأول دائما يدور حول المشروعية الدينية، وهذا ما أكدنا عدم شرعيته، ولكن على سبيل الجدل، ولتأكيد النيات الشريرة لهؤلاء «الحلفاء» وأنهم لا يريدون خيرا بمصر فلنطالع تقارير التنمية البشرية الصادرة من الأمم المتحدة وسنجد الآتى:

فى عام ١٩٩٧ كان ترتيب مصر ١٠٩.
فى عام ١٩٩٨ أصبح ترتيبها ١١٣.
فى عام١٩٩٩ من المتوقع أن تصل إلى المرتبة ١٢٠ فى العالم.

وفى مؤشر آخر احتلت مصر المركز الـ٥١ بين أفقر دول العالم (بمعيار متوسط دخل الفرد) كما أشارت كثير من الدراسات المحلية والعالمية إلى أن أكثر من ٥٠٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر.

والتنمية البشرية معيار مركب يشمل المستوى الاجتماعى والمادى للسكان: الدخل، التعليم، الصحة، الخدمات، المرافق، الثقافة .. إلخ.. وهو معيار أكثر دلالة من مجرد الاكتفاء بمتوسط دخل الفرد، وإن كانت مصر متدهورة بالمعيارين!

هذه هى حصيلة أكثر من عقدين من التعاون الحميم مع أمريكا «والسلام» مع إسرائيل.

ليست هذه الدراسة معنية بإجراء تقويم شامل للوضع الاقتصادى .. ولكنها مجرد مؤشرات أساسية لتأكيد الموقف الفقهى.

●●●●●

أما ما آلت إليه أوضاع الزراعة فيكفى ما نشرته «الشعب» وغيرها من الصحف على مدار أعوام. وهو ثمرة حية وإن كانت مريرة لموالاة اليهود الصهاينة .. أما فى المجال الصناعى فيكفى أن نشير إلى أن الشركات الأمريكية والعالمية العملاقة المتعددة الجنسية لم تأت إلى مصر إلا فى مجال الحلويات والألبان وتركيب السيارات، وهى كلها صناعات استهلاكية وتجميعية، أو فى مجال البترول حيث تسعى الشركات

الأمريكيـة والغربية للحـصول عليه دون تقـديم أى خبرات تسـمح لمصر بالاستقلال عنها فى عملية التنقـيب، وحتى فى مجال الصناعات الغذائية الاستهلاكيـة جاءت الشركات الأمريكية والعالميـة واستولت بالشراء على مصانع قائمة بالفعل، ولم تضف جـديدا، أى لم تنشأ استثمارات جديدة توسع بهـا السـوق وتزيد من فـرص العمـالة، كـما أن هـذه الشركـات تستـهدف السوق المصرية فـقط ولا تسعى للتصدير لأنهـا تغطى الأسواق الخارجيـة بمصانع أخرى ولا تريد بالطبع أن تنافس نفسهـا!! وبالتالى فإن هذه الشركات الـعملاقة لا تساهم - ولن تسـاهم - فى زيادة الصادرات المصرية.

●●●●●

إن تطبيق تعاليم القرآن الكريم فى مجال العـلاقات الاقتصادية الدولية يعنى أن مصر مطالبة (وليس لديها خيار فى ذلك - من الناحية الشرعية) بأن تسيـر فى طريق السوق الـعربيـة المشـتركـة، والسـوق الإسـلاميـة المشتركة.. التى بدأها أربكان بتجميع الدول الثـمانى الإسلامية.. ويعتبر انضمام مصر لتجمع الكوميـسا الأفريقى خطوة صحيحة فى هذا الاتجاه، ثم الاشتـراك والتعاون مع تجـمعات أكـبر فى عالـم الجنوب الأفريقى - الآسيـوى .. إن وجود دوائر من هذه التجـمعات المتـماسكة .. وعلى رأسهـا دول العالم العربى والإسـلامى .. سيـغير مـوازين القوى داخل المنظمـات الدوليـة المختلفـة .. ويمنع أمـريكا من الاسـتفـراد بكل بلد إسـلامى على حدة، ويحـسن من شـروط وبنود الاتفـاقيـات التجـارية والاقتصادية الدولية لصالح دول الجنوب.

ويبقى أن وجود عـلاقات اقتصادية خاصـة مع الولايات المتحدة وتلقى المعونات الاقتـصادية منها، ومشروع الشـرق أوسطية مع إسرائيل والذين

يسعون لإحيائه مرة أخرى، ومشروع الشراكة الأوروبية، ومشروع المتوسطية (نسبة للبحر المتوسط)، كل هذه الارتباطات والمشروعات مخالفة مخالفة صريحة لنصوص القرآن الكريم ومنافية للشريعة الإسلامية، وتمثل تجسيدا حيا لموالاة الكفار والمشركين التى نهى الله تعالى عنها نهيا قاطعا صريحا.

كما أن الالتزام بأى قرارات دولية لحصار ليبيا أو العراق أو السودان أو الالتزام بقرارات دولية أمريكية فى مجال حصار إيران من قبل أى حاكم فى بلد مسلم، إنما هو انتهاك صريح لأوامر الله وممارسة فجة ومباشرة لموالاة الكفار من دون المؤمنين.

ولا يوجد عذر لأى حاكم مسلم، فيكفى أن يفتح حدوده مع دولة إسلامية أخرى لتكون نواة السوق الإسلامية، كما أن مسئولية الحكام فى الدول الإسلامية الأشد نفوذا تكون أكبر أمام الله والأمة الإسلامية. وهنا تبدو المسئولية الكبرى لأهل الحكم فى مصر عن هذا التشرذم العربى، والتلكؤ الضار بالإسلام والمسلمين.. فى مجال فتح الحدود بين مصر والسودان، وبين مصر وليبيا، وهما الدولتان العربيتان المسلمتان الجارتان لمصر .. إن وضع العراقيل بين مصر وبين هذين البلدين يقضى إلى حد بعيد على إمكانية قيام نواة لسوق عربية ثم إسلامية مشتركة .. نظرا لموقع البلاد الثلاثة فى قلب العالم العربى وارتباطهما التاريخى ببعضهما البعض .. مع التواصل الجغرافى .. والتنوع الرهيب فى الموارد الطبيعية والبشرية .. وهى فى حد ذاتها دولة إقليمية إسلامية عظمى.

والمعروف أن للعرب (دول النـفط) ٨٠٠ مليار دولار مستثـمرة خارج أراضى العرب والمسلمين وهذا تجسيـد مخيف آخر لموالاة أعداء الدين من موقع الذل والتبعية ولكن إذا تحركت دول رائدة كمصر بشكل جدى لبناء سوق عربية مشتركة فإنه يمكن التأثير على هذه الممارسات الضارة، والتى يتورط فيها أيضا أثرياء مصر! ولكن حكام مصر يتعاملون مع هذه الأمور الكبرى بشكل بيـروقراطى، ويلقون بالعبء على العرب، ولا يتـحملون مشـاكلهم بينما يجدون فـى أنفسهم صـبر أيوب فى التعـامل مع أمريكا وإسرائيل!.

إن التعاون الاقـتصادى مع أمريكا وإسرائيل وهمـا فى حالة حرب مع الأمة العربية الإسلامية حرام شرعا.

يقول د. نصر فـريد واصل - مفتى الجمهورية - فى إطار مـواقفه التى كررها فى مناسبات عدة، ونرجو أن يثبت الله أقدامه وأقدامنا . . يقول:

«إن اليهود أهل غدر ولا أمان لهم كما أخبر بذلك القرآن الكريم ولا يلتزمـون بتنفيـذ العهود والمواثيـق . . . وبينما العرب يرغـبون فى تحـقيق السلام إلا أن الإسـرائيليـن يعرقلون تحـقيق هذه الرغـبة بحجـج واهية ويريدون السيطرة على القدس رغم أنها مدينة عـربية إسلامية، أننى أويد المقاطعـة الاقتصـادية لأمريكا وإسـرائيل حتى تعود الحـقوق العـربية إلى أصحابها».

## تاسعا: الموالاة فى المجال العسكرى

ومن نافلة القول بعد كل هذه المقدمات والأدلة والبراهين أن نقرر أن التعاون العسكرى والاستراتيجى مع الولايات المتحدة أو إسرائيل أو كليهما معا حرام شرعا باعتبارهما دولتين محاربتين للإسلام والمسلمين.

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

[الممتحنة: ٩]

فهذا الحلف قاتلنا فى الدين، والإسرائيليون أخرجوا المسلمين من ديارهم، وظاهر الأمريكيون على هذا الإخراج، واستعادة مصر لسيناء لايمكن ولا يصح أن تكون مبررا للانسلاخ عن الأمة وعن أوامر القرآن الكريم.

كل عاقل يدرك أن مخاطر الصدام المسلح بين مصر وإسرائيل قائمة فى المستقبل، فكيف يمكن أن نستعد لهذه المواجهة المحتملة، بالحصول على السلاح من العدو الرئيسى لنا، والمساند الرئيسى لإسرائيل؟! أى من الولايات المتحدة!

كل التقارير الاستراتيجية والتصريحات الأمريكية الرسمية تؤكد دوما حرص الولايات المتحدة على استمرار التفوق العسكرى الإسرائيلى الكاسح، ليس على مصر فحسب، بل على كل الدول العربية مجتمعة، وعمليا فإن مصر لا تتلقى سلاحا من أمريكا إلا فى حدود الحفاظ على استمرار هذه الفجوة وزيادتها.

ويضـاف إلى ذلك أن تمكين القوات الأمـريكيـة من التدريب بصـورة منتظمة على الأراضى المصرية من خـلال المناورات المشتركة يأتى فى إطار تدعيم الكفـاءة العسكرية الأمريكية فى العـمل على أراضى ومناخ المنطقة العربية، وهو مـا تستفيد منه بعـد ذلك فى أعمال عسكرية مبـاشرة ضد العـرب والمسلمين، كـمـا حدث فى الصـومـال ويحدث حـتى الآن فى العراق،وكما حدث فى إيران فى عهـد كارتر، وما هو مرشح أن يحدث فى أى وقت حاليا ضد الجمهورية الإسلامية فى إيران أو ضد السودان.

ولفظ الأسلحـة لم يرد فى القـرآن الكريم إلا فى أية واحـدة، وبمعنى واحد:

﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [النساء: ١٠٢]

فى هذه الآية تحذير للمؤمنين من مجـرد الغفلة لدقائق عن أسلحتهم خلال أداء الصـلاة إذا خرجـوا للجهـاد . . وشرعت الآية للصـلاة على مـرتين . . بحيث تصلى نصـف الجمـاعة خلف الإمـام . . ثم النصف الثانى بعـد ذلك خلف نفس الإمام، حتى لا يتعـرضوا لأى مباغـتة من الأعداء.

وفى العصـر الحديث فإن العـدو يمكن أن يميل فى ثانيـة واحدة على أسلحتنا، بعيدا عـن الحركة والاشتباك الأرضى، وبعيـدا حتى عن مجرد إعلان الحرب، كما حدث فى ضرب إسرائيل للمفاعل النووى العراقى.

الله عز وجل يحذرنا من أن نغفل عن أسلحتنـا لدقائق معدودة، فماذا يكون موقفنا عندما تكون معظم أسلحتنا من الأعداء أنفسهم؟!

والنص الدستورى القرآنى الأساس فى المسألة العسكرية:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

ولا يمكن أن تتم الاستجابة، ولا الخضوع لأمر الله فى هذه الآية بأخذ السلاح من العدو، فأى قوة تلك التى سيوفرها لنا؟!.

**ملحوظة:**

تشير تقارير عسكرية أمريكية إلى أن الهدف من بيع السلاح لمصر هو تحقيق هدفها فى الوصول بحرية إلى قناة السويس، وتحليق طائراتها فى الأجواء المصرية والوصول إلى مصادر النفط والإبقاء على نفوذ مصر «المعتدل» فى المنطقة!

# الفصل الثالث

# الحكم الشرعي
# في
# مسألة موالاة الكفار

موالاة المؤمنين قرينة الإيمان الصادق، وموالاة أعداء الله قرينة النفاق والكفر . . وكما أن الإيمان درجات، والكفر درجات، فإن الموالاة هى المسطرة الموازية التى تتحرك عليها درجات الإيمان والكفر، ولن ينجو مسلم من هذا المقياس لمجرد نطق الشهادتين، وإلا لكان دخول الجنة بالبطاقة الشخصية!!

ومناسبة نزول بعض الآيات القرآنية فى الموالاة، كانت موجهة للمنافقين (المسلمين اسما) والمتحالفين فعليا وقلبيا مع الكفار . . وعندما نقرن بين الكفر والنفاق فإننا نقصد أن النفاق لون من ألوان الكفر . . ولذلك فإن مآلهم إلى النار بل وفى الدرك الأسفل:

**﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾**

والقرآن الكريم هو الذى قرن بين موالاة الكفار والنفاق . . والنفاق - كمصطلح قرآنى - يعنى إظهار الإسلام مع إبطان الكفر.

إن نصوص «القرآن الكريم» قاطعة ونحن نقرن أحوال المسلمين المعاصرة بهذه النصوص التى لا تحتمل إلا تأويلا واحدا.

وقد جاءت فى آيات الموالاة هذه الأحكام القرآنية، التى تتضمن الإدانة والتحريم وتصل إلى الإخراج من دائرة الإسلام ودخول دائرة الكفر:

**﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾** [آل عمران: ٢٨]

**﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾** [النساء: ١٤٤، ١٤٥]

وسلطان بمعنى حجة.

﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾

[هود: ١١٣]

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧]

﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١]

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٩]

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ [النساء: ١٣٨ـ ١٣٩]

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

[المائدة: ٥١]

●●●●●

الحكم القرآنى قاطع كما نرى، فكما أن المصلى الذى لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر لا صلاة له، فمن باب أولى فإن المسلم الذى يتحالف مع الكفار ويخلص لهم دون جماعة المؤمنين بل وضد هذه الجماعة، فأى إيمان يكون قد تبقى إذن فى قلبه؟

لذلك فقد أجمع العلماء المعاصرون الثقات على النقاط التالية:

● إن المداهنة فى الحق رذيلة يقترفها أصحاب الأخلاق الضعيفة، وكثيرا ما يرجع انهزام العقائد والأمم إلى مسالك الحكام المداهنين وممالأتهم لأعداء الله.

● ولذلك فقد حكموا بأن الذين يوالون وينصرون سياسة أعداء الأمة الإسلامية ويزكون آراءهم ولا يكترثون بمصالح أمتهم ودينهم، حكموا عليهم بأنهم منسلخون عن الإسلام، ملتحقون بالعقائد المناوئة.

● إن الحملات على الإسلام تنمو وتضرى ورجـالها يحسبون الفرصة سانحة للقضاء على ديننا واجتثاث جذوره . . والدول الكبيرة التى كانت قديما تتظاهر بالحياد فى قضايا الأديان شرعت الآن تعلن تبرمها بالإسلام وصحوته وشريعته والانتساب إليه.

وبلوغ العــدوان على الإســلام هذه المرحلـة يضـاعف الـعبء على الحاكمين باسمه أو لعله يواجههم بواجباتهم التى لا مهرب منها.

● إن طاعة هذه الدول الـكبيرة فى اطراح الإسـلام كلا أو بعـضا هو ارتداد لا ريب فيـه، كما أن ترجـيح أى ولاء على الانتمـاء الإسلامى، وإدارة ظهورنا لإخوان العقيدة كفر لا مراء فيه.

● ويقول السيد سابق:

«طبـيعـة الإيمـان تأبى على المؤمن أن يوالى عـدوه الذى يتـربص به الدوائر، ولو كان أقرب الناس إليه، يقول القرآن الكريم:

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢]

فالأية تبـين أنه لايصح أن يوجد بيـن المؤمنين من يصادقـون أعداءهم ولو كان هؤلاء الأعداء آباء المؤمنين أو أبـناءهم أو إخوانهم الأقربين، إن حكم القـرآن فى هؤلاء الذين يتعـاونون مع الاستـعمـار وأعداء الـعرب والمسلمـين بين واضح، وإن ذلك خـيانـة لله ولكتابـه ولرسوله ولأئمـة المسلمين وعامتهم، وإنهم لم يراعوا حق الإسلام، ولا حق التاريخ، ولا حق الجوار، ولا حق المظـلومين، ولا حق حاضر هذه المنـطقة، ولا حق

مستقبلها، وهؤلاء الخونة بتصرفهم هذا قد باعوا أنفسهم للشيطان وسجلوا على أنفسهم الخزى والعار:

(خزى الدهر وعار الأبد)

●●●●●

قلنا إن الكفر درجات، والإيمان درجات، كذلك فإن الوقوع فى جريمة موالاة الكفار درجات، وقد توقفت عند أحد التفاسير التى تقول: (إن كان توليا تاما كان ذلك كفرا مخرجا من دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ماهو غليظ وما هو دونه).

ونتيجة تشرذم العالم الإسلامى إلى دول وأقطار فإن العلماء والمجاهدين الثقات يجب أن يحددوا موقفهم من حكامهم فى كل قطر على حدة على ضوء موقفهم من هذه القضية المحورية.

وعندما يكون الإسلام مهددا فإن المؤمنين الصادقين لا يبخلون أبدا عن تحديد الموقف السليم، وعن الجهاد فى سبيل نصرة الحق مهما كانت التكاليف .. ويكفينا حديث رسول الله ﷺ:

«ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم مالا يقضون لكم، إن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم» قالوا: يارسول الله كيف نصنع؟ قال: «كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم - عليه السلام - نُشروا بالمناشير وحُملوا على الخُشُب، موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله».

عندما يقوم حكام المسلمين بإدخال أعداء الله إلى عقر دار المسلمين

تحت أية ذرائع، فهـذه هى الطامة الكبرى، ولا مـجال للمساومـة حول هذا الخطر، وقد دعوت الحـركات الإسلامية إلى عدم الانشـغال أكثر من اللازم بفتـاوى تكفيـر حكام المسلمين، أعنى تكفـير أشـخاص أو حكام محددين، فالمهم هو تكفير السيـاسات، وليس شرطا الحكم بتكفير حاكم حتـى يمكن إجازة مـقاومـته، فـالحاكم الظالم الذى يفـرط فى مصـالح المسلمين تتـعين مقاومـته والإطاحة به . . ولأهميـة هذه النقطة نتوقف عندها قليلا.

فتكفير المسلم ليس بالأمر الهين فى الإسلام . . ويتعين فى هذا الصدد التفرقة بين أنواع الكفر:

١ـ الكفر الأكبر: الموجب للخلود فى النار.

٢ـ الكفر الأصغر : الموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود . . كما فى الحديث: «من أتى كاهنا أو عرافا فصدقـه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد».

فالمقصود بالكفر الأكبر هو الكفـر بالله واليوم الآخر، والمقصود بالكفر الأصغـر أن إتيان كـذا أو كذا من المحرمـات فهو من الـكفر، ولا يكون المسلم فى لحظـة ارتكابه لهـذا الجـرم . . أو الإعـداد له مـؤمنا، ولكنه لايخرج من دائرة الإسلام . . وإلا أصبح كل مرتكب للمعاصى وللكبائر كافرا، بينما شرعت الحدود لمعـاقبة المسلم . . وما يعنينا أن موقف حكام المسلمـين فى هذه القضـية «الموالاة» هو الحاسـم الحاكم لتحـديد الموقف تجاههم . . مادام الخطر الخارجى محدقا بالبلد المسلم.

وتكفيـر الحاكم المسلم مـرتبط عمـوما بإعـلانه الصريح عن كـفره أو بممارسة الكفر البواح . . كـمنع الصلاة وهدم المساجد (نظام أتاتورك فى

تركيا نموذج حى على ذلك)، أما إذا أمعن حاكم مسلم فى موالاة الكفار - وقد يكون ذلك خوفا أو طمعا - فإن التصدى له والإطاحة به إذا أمكن ذلك . . (مالم يتق الله ويعدل مواقفه) نقول: إن هذا التصدى لا يتطلب بالضرورة فتوى شرعية بتكفيره كشخص، وذلك لأن الأضرار الواقعة على الأمة كافية لتحديد موقف منه . . وعلى أن تترك قضية الكفر والإيمان (بالنسبة لشخص يجهر بالشهادتين) لله عز وجل . . هذه قضية اختصاص لله عز وجل بلغة القانونيين المعاصرين، أما بالنسبة للبشر المؤمنين فإن لهم الظاهر . . فالحاكم يدعى أنه مسلم . . كان بها . . ولكنه يفعل كذا . . وكذا . . بالمخالفة للتعاليم الصريحة للإسلام . . فهناك من يكفره . . وهناك من يرفض ذلك مادام الحاكم اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، ولكنه عدل عنه عصيانا مع اعترافه أنه مستحق للعقوبة (ابن القيم).

وفى عصرنا الحديث هناك أسباب عديدة لعدم التزام الحكام بتعاليم الإسلام . . على رأسها الجهل بهذه التعاليم . . الأغراض الدنيوية عموما وشهوة السلطة خصوصا والخوف من قوى الاستكبار العالمى التى لديها أذرع قوية قادرة على البطش بالحكام المتمردين عليها . . أو إحكام الحصار حول أوطانهم إلى آخر التهديدات المعاصرة التى أشرنا إليها.

إذن موقف الحاكم فى بلد مسلم من موالاة الكفار قد يكون راجعا لكفر أو جهل أو ضعف أو طمع . . وإذا تركنا القضية الإيمانية لله عز وجل . . فبالنسبة للأمة فإن المخاطر تستوى مع أى تفسير من هذه التفاسير . . المخاطر المحدقة بالأمة تكون عظيمة . . ولابد من التصدى لها . . والتصدى للحاكم العاجز أيا كانت أسباب عجزه . . لإنقاذ الوطن الإسلامى.

وفى هذه القضية ومن منظورنا، فنحن فى العالم الإسلامى أمام أربع حالات (احتمالات) للأنظمة الحاكمة وللموقف منها:

١ـ أنظمة إسلامية تضع الإسلام مرجعية لشئونها ومواقفها وتشريعاتها، وتتحمل فى سبيل ذلك مكاره كثيرة وأبرز مثالين لهما: إيران والسودان.

**٢ـ أنظمة وطنية تعارض النفوذ الأمريكى - الصهيونى وتحاربه، ولكن الإسلام ليس هو المرجعية الأساسية للحكم.**

**٣ـ أنظمة سقطت بالكامل فى براثن النفوذ الأمريكى - الصهيونى.**

٤ـ أنظمة تعانى النفوذ الأمريكى - الصهيونى ولكنها تنطوى على أجنحة وطنية من داخلها تحاول الفكاك من التبعية.

●●●●●

أما الموقف الإسلامى للحركات الشعبية من هذه النماذج الأربعة .. فهو بالتأكيد المساندة المطلقة للأنظمة الإسلامية ضد التدخلات الأجنبية الأمريكية - الإسرائيلية، كما تنسحب هذه المساندة للأنظمة الوطنية التى تعادى وتحارب الحلف الأمريكى - الصهيونى من منطلقات قومية أو وطنية، وتتصاعد هذه المساندة بقدر ثبات هذه الأنظمة على مواقفها .. ذلك أن استقلال الدول الإسلامية يجب أن يكون النقطة الأولى فى برنامج الإسلاميين .. ويتعين على الإسلاميين أن يدوروا على عكس حركة دوران الحلف الصهيونى - الأمريكى .. وأن يحددوا مواقفهم من مختلف الأطراف على أساس التصدى لهذا الخطر الرئيسى (طاغوت العصر).

أما النموذج الثالث من الأنظمة التى اندمجت بصورة كلية مع التحالف الصهيونى - الأمريكى، فقد أصبح الصراع ضد هذا الحلف الشيطانى، متوحدا مع الصراع ضد هذه الأنظمة العميلة، بمعنى أنه أصبح صراعا واحدا أو معركة واحدة، حيث لاتفرقة حقيقية بين حلف الكفار والمشركين . . وهذه الأنظمة التى تحكم الشعوب الإسلامية لصالح هذا الحلف . . وبناء على أوامره وتعليماته وتوجيهاته!!

أما النموذج الرابع من الأنظمة الذى ينطوى على جناحين: جناح وطنى، وجناح تابع، فلا شك أن الموقف الإسلامى الصحيح هو مساندة الجناح الوطنى وتغليب قوته لإزاحة الجناح التابع، فإذا حدث ذلك يتحول النظام من النموذج الرابع إلى النموذج الثانى.

ونعنى بمقاومة الأنظمة التابعة (النموذج الثالث) المقاومة السياسية - المدنية - السلمية - الشعبية باعتبار أن هذا هو الأسلوب الناجع والمضمون طال الزمان أو قصر لإزاحة هذه النظم التابعة للحلف الاستكبارى الأمريكى.

وبالنسبة لظروف مصر التى نطبق عليها بشكل خاص أحكام هذه الدراسة، فإن نظامها يتأرجح بين النموذجين الثالث (التابع) والرابع (ينطوى على جناحين: تابع ووطنى)، وقد كان واضحا خلال حرب الخليج الثانية أن النظام المصرى سقط فى براثن الحلف الأمريكى - الصهيونى، ولكن منذ منتصف عام ١٩٩٦ . . لاحظنا نمو جناح وطنى يدعو ويعمل لتحرير مصر من التبعية، والمعركة الدائرة الآن ـ فى أواسط عام ١٩٩٩ ـ بين القوى الإسلامية والوطنية من جهة ولوبى الفساد الصهيونى من جهة أخرى، هذه المعركة ستحدد نتائجها مصير النظام

المصرى من حيث موقعه وتوصيفه، فالمقصود بالنموذج الرابع (الذى ينطوى على جناحين) أنه حالة انتقالية، فإما أن ينتصر الجناح الوطنى أو الجناح التابع، فإذا انتصر اللوبى الصهيونى- الأمريكى فسيتحول النظام أو بمعنى أصح يعود إلى موقعه فى النموذج الثالث، وإذا انتصر الجناح الوطنى فسيتحول النظام إلى النموذج الثانى.

●●●●●

إن الموقف الإسلامى الشرعى (ومن ثم الحركى) من حكام المسلمين يتمحور إلى حد كبير فى هذه اللحظة حول هذه القضية، لأن التحالف الصهيونى - الأمريكى هو الخطر الأعظم والعدو الأول للإسلام، وبقدر اقتراب حكام المسلمين من هذا التحالف الشيطانى يتعين على الحركة الإسلامية أن تشدد النكير عليهم، وبقدر ابتعاد حكامنا عن التحالف الشيطانى اقتربنا منهم.

أما من يلتحم مع الحلف الشيطانى، فقد أصبح هو والشيطان سواء ولا مجال إلا المواجهة الشعبية حتى النهاية، أما العذر بالضعف (الذى يردده بعض حكام المسلمين) إزاء الحلف الصهيونى - الأمريكى، فهو «عذر مرفوض» . . وهو فى الحقيقة ضعفهم هم لا ضعف الأمة، وخوفهم من فقدان السلطة وصولجان الحكم لا خوفهم على أمتهم . . وحول هذه القضية يتحتم أن يفترق الكتاب والسلطان، ويتحتم على المؤمنين ألا يفارقوا الكتاب، حتى لو نُشروا بالمناشير وحُملوا على الخُشُب، فموت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله.

## الفصل الرابع

# حول معانى وأحكام

# قول الله:

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾

نحن أمام قرآن أحكمت آياته . . يتضمن القواعد التى تحكم علاقة المؤمن بربه . . وبمجتمع المؤمنين وبمخالفيهم فى العقيدة، وبالأعداء . . وفى إطار وضع القواعد العامة الدستورية لم يترك ثغرة للظروف العارضة أو الاستثنائية . . فتمت معالجة هذه الاحتمالات، والتشريع لها بشروط محددة. وإذا درست موضوع موالاة الكفار فى القرآن الكريم، كأى موضوع آخر، بعمق كاف ستفهم معنى ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ . . أى أن هذا الكتاب لم يفرط فى أى قاعدة عامة يحتاجها المؤمن فى مسيرته إلى الله . . وفى إصلاح دينه ودنياه وآخرته.

نقف فى هذا الفصل أمام شطر من آية عرضنا لها من قبل ولكننا لم نكمل الآية . . حتى ننظم المناقشة بصورة متدرجة، ونعنى بها:

﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ [آل عمران: ٢٨]

ولقد آثرت وتعمدت تأجيل البحث فى هذا الشطر من الآية ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾ حتى نستوفى شرح الموالاة، وهذا الشطر من الآية يحتاج لوقفة خاصة، لأنه قد يتصوره المنافقون الموالون للكفار المنفذ الذى سينجون منه، من عقاب الدنيا والآخرة . . وها أنذا أسوقه لهم سوقا . . فهم لم يفكروا فيه أصلا، لأنهم لا يلتزمون بالمرجعية الإسلامية فى عملية اتخاذ القرارات وتحديد السياسات، غاية ما هنالك أنهم عند الاضطرار الشديد يلجأون إلى وعاظهم (وعاظ السلاطين) ليبرروا لهم هذا الموقف أو ذاك القرار.

وعموما فإن المنحرفين عن الدين والمنافقين وضعاف الإيمان يحبون

الحديث فى الاستثناءات ويحولونها إلى سياسات عامة! هذا الصنف من الحكام يحب القاعدة الفقهية «الضرورات تبيح المحظورات» ليتخذوها تكئة لتحقيق أطماعهم وتبرير نكوصهم عن صحيح العقائد ومصالح أمتهم، وليفسدوا فى الأرض.. وهم أشبه بالإنسان الغارق فى الملذات الحرام والذى عندما يواجه بمسلكه الشائن لا يتذكر من القرآن إلا «إن الله غفور رحيم» ليبرر موقفه ثم يواصله بكل همة ونشاط! أو كذلك المرؤوس الذى يردد شعار «الضرورات تبيح المحظورات» ليبرر انحرافاته التى يرتكبها مع رؤسائه حفاظا على وضعه فى العمل!!.

منذ عدة سنوات لاحظت أن المواطنين المصريين يستخدمون كثيرا شطرا من آية قرآنية ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ حتى كادت أن تكون شعارهم الأول فى الحياة.. عندما تطلب منهم اتخاذ موقف باللسان أو العمل ضد الظلم.. أو إذا دعوتهم إلى أى موقف يحض على الجهاد فى سبيل الله. وكنت أرى فى ذلك قلبا لمعنى ورسالة الإسلام.. ولكن من كثرة إلحاح استخدام الناس لهذا الشطر من الآية.. وجدت نفسى مدفوعا لدراسة موضعها فى القرآن الكريم.. والسياق الذى نزلت فيه وسبب النزول إن وجد.. فوجدت أن هذه الآية تحض على الجهاد!!. وأن النكوص عن الجهاد هو المقصود بإلقاء النفس فى التهلكة!!.

هذه الآية إذن (أو شطر من الآية بمعنى أصح) لا علاقة لها بموضوعنا.. الذى يتناول الاستثناء ورخصة إسقاط التكليف مؤقتا.. إلخ. إذا أخذناها بمعناها الصحيح.. ولكننا نتعرض لها سريعا للإجهاز الكامل على المعنى العامى الشائع لها.. وللقضاء على هذا الاستخدام المخزى لكلام الله فى غير موضعه.. وهذا الأمر يمس الحكام والمحكومين على السواء.

فالآية بصورة كاملة تقول :

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]

والمعنى المباشر والواضح للآية التى تحض على الجهاد بالمال.. إن التهرب من هذا الواجب (الجهاد بالمال) يعنى أن تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.. كذلك فإن هذه الآية جاءت تتويجا لعدة آيات متركزة على القتال فى سبيل الله وهى كالتالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠ - ١٩٥]

سياق الآيات واضح لا يحتاج إلى تعليق.. ومع ذلك نقول ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ هذا الجزء من الآية الكريمة مرتبط أشد الارتباط بالجزء السابق عليها وهو الدعوة إلى الإنفاق، والآية كلها مرتبطة بالحرب والقتال وهى تحذير للمسلمين فى كل زمان ومكان إنهم إذا قصروا فى الإنفاق الدائم والمستمر على الاستعداد للحرب والجهاد فى سبيل الله فإن من شأن ذلك أن يعود عليهم بالهلاك والبوار، وهو ما

حدث فى التاريخ بالفعل فقد هان المسلمون وذلوا عندما تهاونوا فى شأن الاستعداد للحرب وبخلوا بأموالهم أن ينفقوها فى سبيل الله حتى أصبحت بلادهم نهبا مباحا.

إن الكثيرين يتصورون أنه إذا كانت أوروبا قد غلبت المسلمين على أمرهم يوما فقد جرى ذلك بفضل تفوقهم العلمى والآلى، أو ما يطلقون عليه باسم العصر «التكنولوچيا» وهؤلاء ينسون أنه عندما شرع أعداء المسلمين فى التفوق عليهم لم يكن عندهم هذا الذى نسميه اليوم «تكنولوچيا» فقد كان العلم والتفوق الحضارى لا يزالان فى العالم الإسلامى، ولكن الذى حدث أنهم تهاونوا - أى المسلمين - فى أمر الله لهم فتوقفوا عن الإنفاق للاستعداد للحرب والقتال وحيث يأمرهم بالإعداد والحذر واليقظة، غفلوا عن ذلك كله وأقبلوا على ملذاتهم وشهواتهم فكان أن تحقق أمر الله فيهم فهلكوا أى هلكوا معنويا بضياع استقلالهم علاوة على عزتهم وحضارتهم، واليوم وقد بدأ المسلمون يثوبون إلى رشدهم (فى عدد من البلدان الإسلامية) وينفقون ما ينفقون فى الاستعداد للحرب والقتال فى سبيل الله فالمستقبل مشرق ومزدهر بإذن الله. (من تفسير أحمد حسين بتصرف).

وهذا النظر فى تفسير الآية يؤيده ما أوردته كتب الحديث (أبو داوود والترمذى والنسائى وآخرون) عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعه أيوب الأنصارى، فقال ناس ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا. صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر

الأنصار فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلنا وأولادنا فنقيم فيهم فنزل فينا ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ فكانت التهلكة فى الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد.

فانظر يا أخى.. كيف جهل المسلمون «عندما نكسوا على رؤوسهم» كل ذلك واتخذوا جملة ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ لتكون ذريعة يتذرعون بها لكل نقائص الحياة فيرضون بالذل والمهانة والصغار، ويتوقفون عن كل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ويبخلون، وكل ذلك بدعوى أنهم يصدعون بأمر الله ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾.

●●●●●

والآن نعود لشطر آيتنا ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾ فبعد النهى الصريح والقاطع عن موالاة الكفار الذى تناولناه فى الفصول السابقة.. تشير هذه الآية الكريمة إلى استثناء معين فما هو المقصود تحديدا بهذا الاستثناء؟.

﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾ أى إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه. وجاء فى تفسير ابن كثير : (إلا من خاف فى بعض البلدان أو الأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته) كما حكاه البخارى عن أبى الدرداء أنه قال (إنا لنكشر «نضحك» فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم) وقال الثورى : قال ابن عباس رضى الله عنهما. (ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان).

وفى تفسير آخر (أى تخافوا مخافة فلكم موالاتهم باللسان دون القلب وهذا قبل عزة الإسلام، ويجرى فيمن هو فى بلد ليس قويا فيها).

وفى أحد التفاسير المعاصرة (إلا أن تخافوا على أنفسكم فى إبداء العداوة للكافرين فلكم الرخصة فى المسالمة والمهادنة لا فى التولى الذى هو محبة القلب الذى تتبعه النصرة). وفى تفسير آخر نقرأ التالى (فى أحوال جزئية وفى نطاق ضرورات قاهرة ربما يأذن فى بعض التصرفات، لكن قانون الضرورة بطبيعته موقوت، والاعتماد عليه يؤدى إلى إثارة الفوضى الاجتماعية. والفرق واضح بين الأدب والميوعة، وبين دماثة الخلق وضياع الحدود).

●●●●●

## التقية:

التقية فى المذهب الشيعى لها أهمية خاصة، ونحن لا نتعرض هنا للخلاف السنى الشيعى حول هذه القضية فهذا خارج موضوع دراستنا، ولكننا نتناول «التقية» كما وردت فى آيات معدودة بالقرآن الكريم وهى متعلقة بموضوعنا (موالاة الكفار).

والتقية تعنى ببساطة إظهار المؤمن غير ما يبطن فى ظروف اضطرارية مؤقتة، والتقية قد تكون على مستوى فرد أو جماعة أو حكومة.. أى هى نوعان: فردية وجماعية. ولكن قبل أن نلج فى شرح هذا الاستثناء ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾ أى اتقاء مخاطر الكافرين، من المهم أن نشير إلى حالة مماثلة فى القرآن الكريم لأنها تقرب الصورة لنا فى موضوع الموالاة وتوضيح المدى المحدود للاستثناء، وهى المتعلقة بأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها من الأكل المحرم والتى وردت فى ثلاثة مواضع بالقرآن الكريم.

١ـ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]

٢ـ ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥]

٣ - ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٥]

وهذه الرخصة الاستثنائية يمكن للمؤمن أن يستخدمها فى حالة واحدة أن تكون حياته معرضة للهلاك الأكيد جوعا، أو يكون هذا هو تقديره للأمر، لأن الحرص على الحياة أولى من ضرر أكل هذه المحرمات والله سبحانه وتعالى مطلع على النية.

واستخدام هذه الرخصة مرتبط بشرطين :

١ـ أن يكون المؤمن غير ساع وغير طالب للمحرم من غير اضطرار (غير باغ).

٢ـ ألا يكون متجاوزا للحد الأدنى الضرورى لإنقاذ الحياة (ولا عاد) ومن هنا كانت القاعدة الفقهية (الضرورات تبيح المحظورات).

ولنستصحب معنا هذا المثال، ونحن نحلل معنى ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ فى مسألة موالاة الكفار.. لأن الاستثناء فيها أشبه بأكل الميتة مضطرا.

## التقية الفردية :

المؤمن معرض للفتنة فى دينه إذا وقع تحت حالة بالغة القسوة من الاضطهاد والتعذيب وقد تجبره على أن يظهر غير ما يبطن، وقد رأينا المثال الأوفى لذلك فى صدر الدعوة الإسلامية بمكة، ونجده فى عصرنا

الحديث فيما تعرض له المؤمنون من اضطهاد رهيب فى الدول الشيوعية، وأيضا فى ظل الأنظمة العلمانية الاستبدادية التى حكمت العالم الإسلامى.

ونحن نتحدث هنا عن حالة الفرد المؤمن الذى يتعرض لتناقض مستحكم بين إيمانه بالله وبين التعذيب الرهيب الواقع عليه ليكفر بالله، أو ليعلن ذلك بلسانه.

وقد جاء فى القرآن الكريم:

**﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾**

[النحل: ١٠٦]

وسبب نزول هذه الآية: أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد النبى ﷺ أن يهاجر إلى المدينة أخذ المشركون بلالا وخبابا وعمار بن ياسر، فأما عمار فقال لهم كلمة (على سبيل التقية) أعجبتهم فلما رجع إلى رسول الله ﷺ حدثه فقال: كيف كان قلبك حين قلت أكان منشرحا بالذى قلت؟ قال: لا فأنزل الله **﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾** وأخرج عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية فى أناس من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة أن هاجروا فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش بالطريق ففتنوهم فأعلنوا كفرهم مكرهين ففيهم نزلت هذه الآية، وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن عمر بن الحكم قال: كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يدرى ما يقول، وكان صهيب يعذب حتى لا يدرى ما يقول، وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدرى ما يقول، وبلال وعامر بن فهيرة وقوم من المسلمين.. وفيهم نزلت هذه

الآية أيضا:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]

وهى كما نرى متصلة بالآية السابقة وشرحا لها حيث إن وحدة الموضوع متصلة من الآية ١٠٦ حتى ١١٠ بسورة النحل على النحو التالى:

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذه الآية الأخيرة ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ نزلت فى المستضعفين الذين سامهم أئمة قريش سوء العذاب فاضطروا للهجرة بعدما فتنوا (أى بعدما عذبوا وتلفظوا بالكفر) ثم جاهدوا وصبروا على الطاعة وإن ربك من بعدها (أى بعد هذه الفتنة) لغفور رحيم.

●●●●●

هذه الفتنة الفردية لاتزال موجودة فى العصر الحديث، ففى عهد جبروت النظم الشيوعية فى أواسط آسيا فى ظل الاتحاد السوفيتى، كان

المسلمـون يخـفون تدينهم، ويصـلون سرا فى منازلـهم، ويصومـون فى رمضان سراً بأن يتقدموا بطلب للحصول على إجازة من العمل، لصعوبة إخفـاء الصيام طوال فتـرة العمل الطويلة. وكان إظهـار التدين فى ذلك الوقت يؤدى إلى إنهـاء أى مـستـقـبل وظيفى، بل يـؤدى إلى التشـريد واضطهاد الفـرد وأسرته، والنفى إلى سيـبيريا حـيث يتزايد خطر الموت. ورأينا صورا من ذلك فى ظل الأنظمة العلمانيـة الاستبدادية التى حكمت بلدان العالم الإسـلامى وإن لم تأخذ شكل التعذيب ضـد فكرة التدين، ولكن ضد الالتزام بالإسلام كمنهج وطريق للحياة. وهذا الشطر من الآية ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّـقُـوا مِنْهُمْ تُقَـاةً**﴾ تنطبق فى العـصر الحـديث - فيـما يتـصل بموضـوعنا - وإلى حد كـبـير على حـالة الأقليـات المسلمة فى أمـريكا والغرب وبقاع أخرى من العالم، فهذه أقليات مستضعفة ولا تساندها ولا تحميـها دول إسلامية كـبرى وبالتالى فهى معـرضة لكل صنوف وأشكال الاضطهاد. ولا يغرنكم أن الـسلطات الأمريكية والغربية تتظـاهر بإيمانها بحقـوق الإنسان والحريات بما فى ذلك حـرية العقيـدة، وهو الأمر الذى يقيـد أيديهم بصورة مـؤقتة، ولكـن عوامل القلق من الانتشـار السلمى للإسـلام فى عقـر ديارهم فى تعاظم مـستـمر، وليـست المعارك حـول الحجـاب واللحية والمآذن والمناهـج الدراسية إلا إرهاصـات لما هو أفدح، وقـد اتضح ذلك فى تلفيـق عدد مع القـضايا للإسـلامـيين فى أمـريكا وأوروبا. وهناك الآن حملة محمومة فى أوروبا لوقف هجرة المسلمين إلى أوروبا. . تتزعمها الأحزاب السياسية وقيادات الكنيسة الكاثوليكية. حيث قال أحـد الأساقفـة وأيده فى ذلك كثيـرون فى اجتمـاع دينى رسمى أن المسلمـين يسعـون لغزو أوروبا من جـديد عن طريق دولارات النفط التى

تستخدم لبناء مساجد ومراكز ثقافية للمسلمين المهاجرين فى أوروبا بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية. . على حد قوله. ودعا إلى بحث سبل وقف هجرة المسلمين لأوروبا.

القلق. . بل ولنقل البغضاء ليست أقل فى دوائر الحكم الأمريكى. . ولكن التصرفات الرسمية المتشنجة تبدو أقل - حتى الآن - لأن عدد المسلمين لا يزال يشكل نسبة مئوية ضئيلة للغاية بالنسبة لعدد السكان (٨ ملايين مسلم) أما النسبة المئوية للمسلمين فى أوروبا فقد أصبحت أكبر نسبيا حتى لقد أصبح لها وزن مؤثر فى الانتخابات فى بعض البلدان كانجلترا.

فى هذه البلدان تعانى الأقليات المسلمة من أفكار بعض الدعاة المبعوثين إليهم من البلاد الإسلامية حيث يأتونهم ليحدثوهم بصرامة عن عدم موالاة الكفار والمشركين، دون أى تطوير لفقه الأقليات، أى الأحكام التى تضبط تعاملات الأقليات المسلمة على ضوء التطورات فى المجتمع الغربى الذى يعيشون فيه. ويشعر المسلمون بتناقض مع أفكار بعض هؤلاء الدعاة، إما أن يرتضوا هذا الكلام غير الواقعى ويسيرون فى حياتهم بدون هدى أو يتحولوا إلى أقلية منعزلة ومنبوذة تحاول الحفاظ على دينها فى نوع من الجيتو دون محاولة نشر الدعوة، أو على الأقل تأسيس لوبى إسلامى لحماية مصالحهم ومناصرة قضايا المسلمين فى العالم.

وقد أشار يوما أحد العلماء الأجلاء إلى مثال واحد مما نقصده بفقه الأقليات حين قال :

«روى مالك والبخارى ومسلم وأصحاب السنن أن النبى ﷺ نهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار أو أرض العدو، والناظر فى علة هذا

المنع يتبين له أنه ﷺ لم ينه عن ذلك إلا مخافة أن يستهين به الكفار أو ينالوه بسوء فإذا أمن المسلمون ذلك، فلهم أن يصطحبوا المصاحف فى أسفارهم إلى غير بلاد الإسلام بلا حرج وهذا ما يجرى عليه العمل من جميع المسلمين اليوم دون نكير.

وبطبيعة الحال فهذه القضية محسومة الآن.. ولكن هناك كثيرا من القضايا الأكثر تعقيدا.. ما حكم مشاركة المسلمين فى انتخابات البلديات والمجالس النيابية والرئاسة فى أوروبا وأمريكا؟ ما حكم حضور اجتماعات عامة يشرب فيها الخمر؟!...... إلخ.

نحن نحتاج لتطوير فقه خاص للأقليات المسلمة فى المجتمعات الغربية وفى المجتمعات غير الإسلامية عموما فى ظل وقائع العصر الجديدة. وفى ظل اختلال موازين القوى لصالح الغرب المادى، وفى ظل الثورة التكنولوجية فى الاتصالات! .. إلخ. وهذا الفقه يجب أن يقوم على نقطة توازن بين جناحين:

الأول: ضرورة الحفاظ على تماسك الجماعة الإسلامية فى بلاد الغربة عقائديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا.

والثانى: إيجاد صيغة من التعايش وقدر من الاندماج مع المجتمع الغربى والتفاعل مع ظواهره الإيجابية ومحاولة التأثير فيه دون مبالغة أو شطط، أى نقطة توازن بين الانعزالية المفرطة والاندماج الكامل، نقطة توازن بين الانعزالية المفرطة التى تخيف القوم منهم وترعبهم والتى تؤدى فى نفس الوقت إلى عدم استفادة المسلمين من نواحى التقدم الإيجابية فى المجتمعات الغربية من ناحية وبين الاندماج الكامل فى المجتمع الغربى

الذى يعنى التخلى عن خصوصية الشخصية الإسلامية وعقيدتها من ناحية أخرى.

وهذا الفقه الجـديد - والذى لابد أن يكون من رواده علماء ومفكرون إسلاميون يعيشـون فى هذا الواقع - هذا الفقه الجديد يجب أن يفرق بين نوعين مـن الأقليات الإسلامـية.. الأقليـة التى تعيش فى المجـتمـعات الجديدة التى لاتزال تشهد حـالة من الحراك السكانى الشديد رغم السيطرة الرسميـة الانجلوسكسونية (الولايات المتحدة - كندا - اسـتراليا).. وبين البلدان المستقرة من ناحيـة التركيب السكانى القومى والدينى كدول أوروبا والهند، ولاشك أن حركة الأقليات المسلمة فى المجـتمعات الجديدة يجب أن تكون أكـثر مرونة وتحـررا وسعـيا لانشـاء مراكـز مؤثرة على حـركة المجتـمع، لأن هذا من سنة وآلية هذه النظم.. وهذه ضـرورة اجتماعـية وانسانية لحماية الذات على الأقل فى مثل هذه المجتمعات.

وبالتأكـيد فإن بعض الأحكام السـابقة أو اللاحقـة فى هذه الدراسة لا تنطبق على هذه الأقليـات، وهذا الموضـوع يحتـاج إلى دراسة مـستـقلة ولكننا أشرنا إليه لأنه من أحد الفروع المشتقة من شطر الآية الكريمة، وما يعنينا الآن أننا أمام نموذج لحالة يمكن أن يتعـرض لها المسلم فلا يستطيع أن يبـدى أو يعرب عن كل مـا يؤمن به دون أن يصـيبـه فى ذلك إثم أو ذنب شريطة مراعاة ما تبقى من الآية. أى إخلاص النية لله، فالله مطلع على القلوب.

وهذا معنى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

وكل ما تناولناه فـيما سـبق تحت عنوان التقيـة الفردية ممكن أن يندرج تحت بند التقية الجماعـية إذا نظرنا إلى نفس الظروف من منظور جماعات

أو أحزاب أو أقليات.. ولكن فضلنا التمييز واستخدام مصطلح «التقية الفردية» للإعلاء من شأن الإيمان بالله باعتباره فى الأساس قضية بين كل انسان وربه، وكل انسان فى حد ذاته - وفى حدود ما حباه الله من إمكانيات وطاقات وهى متفاوتة - تتجسد فيه رسالة آدم.. كل انسان يحمل الأمانة الكبرى.. والخلافة على الأرض.. وهذه هى اللبنة الأولى التى يبنى من مفرداتها مجتمع المؤمنين.. كذلك استخدمنا مصطلح «التقية الفردية» للإشارة إلى الابتلاء الفردى الذى يتعرض له الإنسان وهو منفرد مع جلاده والله ثالثهما.. وبالتالى فإن قرار المؤمن هنا يكون بإرادته المنفردة وبضميره الحى أن يصمد حتى النهاية.. أو يقول كلمة لا يعنيها.. إذا خار جسده.. ولذلك جاء عمار بن ياسر بعد أن فتن فى دينه تحت التعذيب جاء رسول الله ﷺ وهو يبكى بحرقة فقال له رسول الله ﷺ كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنا بالإيمان. قال : إن عادوا فعد.

## التقية الجماعية :

كما ذكرنا فإن كل ما مضى يندرج تحت التقية الجماعية إذا نظرنا إليه من منظور الجماعة، جماعة المؤمنين فى مكة فى صدر الدعوة، أحزاب إسلامية وجماعات معاصرة مضطهدة وأقليات إسلامية.

فهذا الشطر من الآية الذى فتح لنا مناقشة كل هذه الأمور ﴿**إلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾.. يندرج تحته موقف فردى للمؤمن.. ويندرج تحته موقف جماعى لجماعة المؤمنين، فى صورة جماعة أو تجمع أو حزب.. وربما حكومة اسلامية مستضعفة محاطة ببحر من الحكومات المعادية. ونحن نعايش حالة خاصة من تقية المؤمنين فى بلاد تركيا حيث تحول

النظام العلمانى هناك إلى حالة صريحة من الإلحادية والعداء الصارخ للدين، ووصل الأمر بأتاتورك إلى إغلاق المساجد وإلغاء الآذان وإعدام الدعاة ثم تحولت الحالة الكمالية (نسبة لكمال أتاتورك) رغم أنفها بعد ذلك إلى القبول بالمجاهرة بالإيمان مع رفض المرجعية الإسلامية فى أى منحى من مناحى الحياة وبالأخص فى العمل السياسى.. إلا أن تصاعد الصحوة الإسلامية.. دفع الحكم العسكرى العلمانى التركى الموالى لإسرائيل وأمريكا إلى الردة لمحاسبة الناس على إيمانهم فتتم محاكمة القادة السياسيين لحزب الرفاه، إذا ألقوا قصيدة شعر تتحدث عن قباب المساجد.. أو إذا ردوا على وقاحات العلمانيين على مقام رسول الله ﷺ حيث يتعرضون لأحكام بالسجن بالغة القسوة والطول.. وبلغ الأمر إلى حد شن هذه الحملة المجنونة على النائبة المحجبة.. والتى وصلت إلى إسقاط الجنسية عنها!.

وقد كانت ممارسة حزب الرفاه نموذجا حيا على التقية المشروعة، فالحزب لم يطلق على نفسه اسما إسلاميا، وبرنامجه لم يحمل آية قرآنية واحدة ولا حديثا شريفا واحدا ومع ذلك فإن هذا لم يشفع له عند العسكريين الذين يتلقون الدعم الكامل من أمريكا (مدعية الحرية) وإسرائيل، فوجهوا إليه ضربة الحل، وأصدروا حكما بالعزل السياسى لزعيمه نجم الدين أربكان، والآن فإن حزب الفضيلة يواصل المسيرة ليكسب معركة الشرعية القانونية أو بالأحرى ليؤكدها.

والقضية الشرعية (بالمعنى الإسلامى) التى تطرح نفسها على الإسلاميين فى تركيا كانت ولاتزال كالتالى :

هل من الأفضل للإسلام فى تركيا أن يعلن الحزب الإسلامى كل برنامجه وتوجهه ويعمل خارج الشرعية القانونية والدستورية؟ أم يتنازل فى العلن (وفى العلن فحسب) عن قليل أو كثير من أهدافه ومعتقداته؟! ولا يزال الخلاف قائما حول هذين التوجهين وهذه مسألة يحسمها الإسلاميون فى تركيا. أما القاعدة الأساسية فهى أن يكون الاختيار بين هذا الطريق أو ذاك، أو الجمع بين الاثنين على أساس تكامل وتنسيق أشكال الحركة بين عدد من التنظيمات والجماعات المختلفة، أن يكون بصورة متجردة لله، وبحثا عن تحقيق المصلحة العامة للدعوة لا سعيا لتحقيق مصالح حزبية أو دنيوية ضيقة.

ونفس السؤال مطروح على الحركات الإسلامية فى أواسط آسيا، فرغم أن النظم الشيوعية سقطت فى هذه الجمهوريات، إلا أن نظم الحكم فى معظمها لا تزال فى قبضة الشيوعيين السابقين (وهم بالمناسبة يتجهون بصورة متزايدة للتعاون مع أمريكا) الذين لا يسمحون بالعمل السياسى الإسلامى، وإن بدأوا يتسامحون مع مظاهر التدين، وتحويل التراث الدينى إلى مجرد عنصر من عناصر القومية لا أكثر.

ولكن ما يعنينا بشكل أساسى فى هذه الدراسة هو موالاة حكام المسلمين للاستكبار الأمريكى، فهل تبرر لهم هذه الآية سياساتهم؟!.

والإجابة الشرعية على هذا السؤال معادلة من طرفين:

الطرف الأول الحاسم هو الضوابط العقائدية، والطرف الثانى هو التقدير السياسى السليم لموقف محدد ولظرف تاريخى محدد، وهل يقتضى اتقاء أئمة الكفر؟!.

## الضوابط العقائديــة :

عندمـا نعرض للرؤية القـرآنيـة - وعلى خلاف منهج الماديين - فـإن الجانب الإيمـانى هو الجانب الحاكم، وهو جـانب له وجهه الغـيبى الذى يطلع عليـه الله وحده، أما المؤمنون خـاصتـهم وعامتـهم فليس لهم إلا الظواهر من الأمور. إن اسـتخدام هذه الرخـصة (التقـية) غيـر جائز ولا محل له أصـلا إلا للمؤمنين الأتقياء وهى عـلاقة بين العبد وربه (الـعبد كمـواطن أو كحـاكم وحوله معـاونوه شركاؤه فى الـقرار) لا تدخل فى مجال التـلاعبات السياسيـة للبشر!! ولذلك فإن بقيـة الآية صريحة وهى تتعـامل مع نية المؤمن فى هذا المـوضوع كمـا فى شتى الموضـوعات (إنما الأعـمال بالنيـات وإنما لكل أمـرىء ما نوى) فـإن بقـية الآية حـاسمـة ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ولأنه موضـوع جلل وخطير ويتعلق بأصل أساسى من أصول العقيدة (أى عدم موالاة الكفار) فلن تجد هذا التعـبيـر بهذه الحدة فى القـرآن إلا فى هذا الموضع ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ وتكرر مـرة واحدة أخـرى فى نفس الموضع كمـا سنرى، فهـذا أغلظ تعبـير عن النهى عن فكرة الـتلاعب برخصـة (التقـية) للارتماء فى أحضان الكفار والاستنامة لذلك. وقد تتابعت الآيات على النحو التالى :

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٨ - ٣٢]

ويرى المفسرون أن هذه الآيات المتصلة تمثل وحدة واحدة، وهى تشير إلى مسألة النية وإطلاع الله عليها ثم تعود للتحذير بنفس الألفاظ ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ثم تذكر بالحساب فى الآخرة.. الذى عندما يستقر فى وجدان المؤمن فإنه لا يأمن مكر الله.. ولا يتجرأ على خداعه، نحن إذن أمام رقابة إلهية لأن الموضوع فى الأصل هو انتصار لله ولرسالته.

أما التقية فهى حادث عابر ومؤقت ولا يمكن أن يتحول إلى قاعدة، ولكن هذه الرخصة أو ذاك الاستثناء هو تقدير مسبق لتقلبات الحوادث والظروف التى يمكن أن تعرض للمسلمين. .وهو ما يعطى البعد الواقعى للتشريع الإسلامى الذى لا يشق على الناس.

والتقية تكون باللسان وليست بالعمل، لأننا إذا عملنا بتوجيهات الكفار ولخدمة مصالحهم لقضى الأمر وأصبحنا منهم، والتقية تعنى المسالمة والهدنة لا التولى، لأن التولى يعنى النصرة القائمة على محبة القلوب.. إذن التقية تكون باللسان لا بالقلب ولا بالعمل. هذه إذن الضوابط العقائدية.

## الضوابط السياسية (الواقعية) :

ونعنى بها توافر الظروف الواقعية لإعمال النص القرآنى، نعنى بها التقدير السياسى للوضع الذى يتعرض له المسلمون فى زمان ومكان محددين وهل يقتضى ذلك منهم التقية.. أم لا؟ وإلى أى حد؟ وهذا

التقدير غير جائز إلا للعلماء الثقاة الأتقياء والمجاهدين والمفكرين الإسلاميين المجردين عن الهوى والعارفين فى ذات الوقت لشئون وأحوال عصرهم، أى أن هذا التقدير ليس قرارا سياسيا أو سياديا (بلغة العصر) يتخذه أى حاكم بعيدا عن الشورى الإسلامية الصحيحة للنخبة القيادية للأمة.

●●●●●

وهنا نصل إلى لب موضوعنا.. هل ما يسمى علاقات الصداقة الوطيدة مع الولايات المتحدة ثم مع إسرائيل فى عصرنا الراهن يمكن أن يجد حكام المسلمين لها غطاء شرعيا من خلال هذا الاستثناء الوارد فى القرآن الكريم؟.

فى البداية نؤكد أن أى رخصة بمعنى (الاستثناء) بطبيعتها محدودة زمانا ومكانا، فقد تكون لحظة ضعف أثناء عملية تعذيب شديدة.. وليست متواصلة قبل أو بعد هذه اللحظة وإن اقتضى الأمر أن يهاجر المرء بدينه ولكن لا يمكنه أن يظل يرضى الكفار بألفاظ ومواقف تطعن فى إيمانه طوال الوقت!.

وقد تمتد إلى فترة زمنية أكبر كما حدث فى مرحلة الاستضعاف بمكة، دون أن يعنى هذا أن يتحول الاتقاء إلى موالاة ولكنه مجرد اخفاء وتوقى للمواجهة، بالأخص فى السنوات الثلاث الأولى للدعوة كذلك كما فعل المؤمنون المستخفون بين أهل مكة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وهذه التقية لا تعنى المشاركة فى محاربة المؤمنين أو الإتيان بأعمال ضد العقيدة، وإلا يكون فى ذلك خروج من العقيدة، وليس مجرد اتقاء شر الكفار.

أما بالنسبة لوضع المسلمين بعد ١٤٢٠ عاما من الهجرة، وبعد أن أصبح عددهم مليارا وربع المليار نسمة وتضم أراضيهم أثمن ثروات العالم (على رأسها ٧٥٪ من احتياطى النفط العالمى) هل يمكن أن نقول إنهم لا يزالون فى مرحلة الاستضعاف المكية.. إلا إذا كنا نهزل.. أو نبرر للعمالة تبريرا سخيفا؟!.

نعم إن العالم الإسلامى يشكو من التبعية وهو الطرف الأضعف فى المعادلة الدولية، ولكن يرجع هذا الموقف أساسا إلى ما نبحثه فى هذه الدراسة (موالاة الكفار).. يرجع أساسا إلى التفرق والتبعية.

والتفرق هو شق عصا الوحدة الإسلامية، أى الخروج عن الأمر الإلهى بأن يكون المؤمنون أولياء بعضهم البعض:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

فأصبحت كل دولة اسلامية تقيم علاقاتها مع العالم الخارجى وأمريكا خاصة بصورة انفرادية وعلى حساب علاقاتها بباقى دول المسلمين، ولا شك أن الاستكبار العالمى يشيع هذا التفرق. ويكفى أن نشير إلى الجهود التى تبذلها أمريكا منذ ٣ سنوات لمنع مجرد انعقاد القمة العربية وقد نجحت فى مسعاها هذا حتى الآن.

أما الشق الآخر، وهو فى الحقيقة الوجه الآخر للعملة فهو التبعية، والتبعية هى التعبير السياسى المعاصر للمصطلح القرآنى موالاة الكفار، وقد سعت الولايات المتحدة إلى اختراق مؤسسات الحكم فى كل دولة إسلامية على حدة، لتصبح طرفا مباشرا وضاغطا فى صناعة القرار، بل لتصبح لها - أحيانا - اليد العليا فى اتخاذ القرارات، وها هم حكام

المسلمين يضعون فى ظل التبعية الاقتصادية العسكرية أكثر من ٩٠٠ مليار دولار فى النظام المصرفى الأمريكى - اليهودى الصهيونى.

●●●●●

إن موالاة الكفار فى عصرنا الراهن ليست نتيجة لضعف المسلمين، بل هى بالأحرى سبب ضعف المسلمين وذلهم وتجزئتهم، وإن مفتاح استعادة قوة المسلمين يكمن فى نبذ سياسة موالاة الكفار، والعودة إلى سياسة موالاة المؤمنين بعضهم بعضا.

وليس ما نقوله بعيدا عن حديث الرسول ﷺ:

«يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله، قال : بل أنتم يؤمئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن، قالوا : وما الوهن؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت».

إن موقف حب الدنيا وكراهية الموت هو الذى فرق حكام المسلمين - وبالتالى عامة المسلمين - بعضهم عن بعض وجعلهم يؤثرون حياة ذليلة على موت كريم، يؤثرون حياة يموتون فيها كل يوم موتتين، على موت يحيون بعده حياة الخلود. ولكن والحق يقال فإن الأمة الإسلامية بدأت فى العقدين الأخيرين تخرج عن هذه الحالة، واستعادت طريق الجهاد والاستشهاد وبدأت العزة الإسلامية بالتالى تعود تدريجيا، ولكن هذه الصحوة لا تزال أساسا شعبية ولم تنعكس فى المحيط الحكومى الرسمى إلا فى عدد محدد من الدول الإسلامية.

الوضع الرسمى الإجمالى للدول الإسلامية هو العقبة الأولى أمام استعادة قوة المسلمين، فكيف لمن وضع كل ثرواته فى بنوك اليهود أن تكون له سياسة مستقلة توالى المؤمنين وتعادى الكفار، وكيف لمن يحصل على السلاح والمعونات من أمريكا أن يستقل عنها؟ وكيف لمن أقام قواعد أمريكية لحماية نظامه أن تكون له سياسة مستقلة؟! . . . . إلخ.

**هل كان يمكن لأمريكا أن تحاصر العرب والمسلمين قطرا تلو قطر، إذا كنا نطبق تعاليم القرآن فى موالاة المؤمنين دون الكفار؟ هل كان يمكن تجويع شعب العراق أو ليبيا أو السودان أو الصومال؟ وهل باستطاعة أمريكا أن تحاصر مليارا وربع مليار نسمة بكل ما على أراضيهم من ثروات وامكانيات؟ هل يمكن أن تحاصر حزاما إسلاميا ممتدا من المغرب إلى أندونيسيا؟.**

ولا يعنى هذا أن الوحدة الإسلامية يمكن أن تتم دفعة واحدة وبين عشية وضحاها، بالتأكيد إن العكس هو الصحيح، لأن التطورات - وهذه سنة الله فى خلقه - لا تحدث طفرة واحدة فى كل مكان، ولكن يكفى أن تتشكل كتلة من دولتين أو ثلاث أو أربع لتغيير مجرى التاريخ سريعا.. خاصة إذا كان بينها اتصال جغرافى، ولنا فى صمود النظامين الإسلاميين فى إيران والسودان كثير من الأمثلة الغنية، وكذلك فى صمود العراق لأبشع حصار عرفته البشرية والمستمر منذ ٩ سنوات دليل اضافى على أن الأمة قادرة على التحول السريع من الدفاع إلى الهجوم. وهكذا كان الحال عبر التاريخ الإسلامى فلم تنتظم الأمة طول الوقت فى إطار وحدة واحدة بالمفهوم المركزى للدولة بل كانت هناك دول أو كتل محورية تدافع عن الاسلام والمسلمين.

إن عناصر القـوة متوافرة تمامـا فى الوضع الراهن ولا ينقص المسلمون إلا إرادة الحكام وهذا هو جوهر الأزمة، فـمشكلتنا فى الحكام وليس فى ضعفـنا كأمة. ليس المطروح الآن هو مخـافة قوى الاستكبـار العالمى بل المطروح هو التـصدى والمواجهـة، ونحن هنا فى قلب العـالم الإسلامى (مصـر والعرب) لسنا فى مـرحلة تقيـة بأى حال من الأحـوال مع الغزو الصـهيـونى - الأمريكى، ولا مع الموالـين لهمـا من الحكام، ولابد من المواجهة الجهـادية المدنية السياسية الصريحـة بلا انقطاع حتى نرد كيد هذا العدوان، لأن الغزو الصـهيونى الأمريكى أصبح خطرا داهمـا على كيان الأمة وعـقيـدتها ووحـدتها، وفى المقـابل فإن امكانيـات المقاومـة المادية والبشرية متوافرة بما لا يعطى أى عـذر للمسلمين - حكاما ومحكومين - للتخلف عن المواجهة.

## الفصل الخامس

# أهل الكتاب
# المواطنون بالدولة الإسلامية
# ما علاقتهم بقضية الموالاة؟

بعد هذا الشوط الطويل الذى قطعناه فى قضية «الموالاة» يتعين أن نتوقف هنيهة لرفع أى التباس حول علاقات المسلمين بأهل الكتاب ممن هم من مواطنى الدولة الإسلامية للتأكيد على أن أحكام تحريم موالاة الكفار والمشركين لا تنطبق عليهم بطبيعة الحال وفقا للمعايير القرآنية، وليس وفقا للملاءمات السياسية العملية المنفصلة عن واقع الشرع، واستجلاء هذه النقطة بالغ الأهمية فى هذه الدراسة قبل أن ننتقل إلى أهل الكتاب المحاربين..

وقد لخص هذه المسألة شيخنا الجليل محمد الغزالى فى كتابه (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) فيقول : «إن الإسلام يعترف بالأديان السابقة عليه جميعا وخاصة يهودية موسى ومسيحية عيسى على عكس من سبقه، ومن ثم فإن الانكماش والتعصب ليسا من طبيعته، وإن الآيات التى وردت بالقرآن الكريم تمنع اتخاذ المؤمنين لليهود أو النصارى أو الكافرين أولياء، إنما وردت جميعها فى المعتدين على الإسلام والمحاربين لأهله ونزلت لتطهير المجتمع الإسلامى من مؤامرات المنافقين الذين ساعدوا فريقا معينا من أهل الكتاب اشتبكوا مع الإسلام فى قتال حياة أو موت .. فاليهود والنصارى فى هذه الآيات يحاربون الإسلام فعلا، وقد بلغوا فى حربهم منزلة من القوة جعلت ضعاف الإيمان يفكرون فى التحبب إليهم».

ويضيف : «بلغ من مرونة النظام الإسلامى أن اعتبر أهل الذمة جزءا من الرعية الإسلامية (مع احتفاظهم بعقيدتهم) ومن ثم عقد المعاهدات الخارجية ممثلا فيها المسلمين والذميين كأمة متحدة» و«الواقع إن الإسلام ينظر إلى من عاهدهم من اليهود والنصارى على أنهم قد

أصبحوا من الناحيـة السياسية أو الجنسية مسلمين، فـيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبـات، وإن بقوا من الناحية الشخصـية على عقائدهم وعباداتهم وأحوالهم الخـاصة. ومن ثم فهو يقيم نظمه الاجتـماعية على أساس الاختلاط والمشاركة ». . ثم ينتـهى الغزالى إلى القول: «قد أجمع فقهاء الإسـلام على أن قاعدة المعاملة بين المسلمين ومسـالميهم من اليهود والنصارى تقوم على مبدأ (لهم مالنا وعليهم ما علينا) وإذا كان هذا المبدأ قد طبق أحـسن تطبيق فى أقطار الإسلام، فـهو فى مصـر قد طبق على نحو ممتاز بالنسبة للأقباط».

ويزيد د. يوسف القـرضاوى الأمر تفـصيلا حـول حقـوق أهل الذمة وواجباتهم فى المجتمع الإسلامى. . فمن حـقوقهم حمايتهم من الاعتداء عليهم بحـفظهم ومنع ما يؤذيهم وفك أسرهم ودفع من يقـصدهم بأذى «ولو كانوا منفردين ببلد» وينقل عن الإمام القرافى «إن من كان فى الذمة وجاء أهـل الحرب إلى بلادنا يقـصدونه وجب علينا أن نخـرج لقتـالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك صونا لمن هو فى ذمـة الله تعالى وذمة رسوله» وقال: إن فى ذلك إجماع الأمة. ومن حقـوقهم أيضا حمايتهم من الظلم الداخلى، ونقل عن رسول الله ﷺ قوله: «من ظلم معاهدا أو انتقصه حقا أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فيه. فأنا حجيجه يوم القيامة». ونقل ما ذكره ابن عابدين أن ظلم الذمى أشد من ظلم المسلم إثما. وقال إن حق الحـماية المقرر لأهل الذمة يتضـمن حماية دمائهم وأنفسهم وأبدانهم وحماية أموالهم وأعراضهم. ومن قتل ذميا غير حـربى قتل، ومن سـرقه قطعـت يده. وبلغ من رعاية الإسـلام لحرمـة أموالهم وممتلكاتهم أنه يحـترم ما يعدونه - حـسب دينهم - مالا وإن لم يكن مالا فى نظر المسلمين كالخمر والخنزير.

ويحمى الإسلام عرض الذمى وكرامته كفا للأذى عنه وتحرم غيبته ولا يجوز سبه أو اتهامه بالباطل أو التشنيع عليه بالكذب أو ذكره بما يكره. وينقل عن القرافى المالكى «فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة دين الإسلام» ومن حقوقهم تأمينهم عند العجز أو الشيخوخة أو الفقر، فالضمان الاجتماعى فى الإسلام يشمل المسلمين وغير المسلمين. ويذكر عن شمس الدين الرملى الشافعى: «إن دفع الضرر عن أهل الذمة واجب كرفعه عن المسلمين. ومن حقوقهم أيضا حرية الاعتقاد والتعبد ، فلا إكراه فى الدين بنص القرآن. ولا يجبر أحد ولا يضغط عليه لترك دينه إلى غيره ولهذا لم يعرف التاريخ شعبا مسلما حاول إجبار أهل الذمة على الإسلام، وكذلك صان الإسلام لغير المسلمين معابدهم ورعى مشاعرهم».

وبالنسبة لبناء الكنائس ودور العبادة، أورد القرضاوى عهد عمر بتأمين الكنائس القائمة وقت الفتح الإسلامى ثم أورد عهد خالد «لهم أن يضربوا نواقيسهم فى أية ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا فى أوقات الصلاة، وأن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم». وذكر عن بناء الكنائس الجديدة أن من فقهاء المسلمين من يجيزها فى الأمصار الإسلامية وحتى فى البلاد التى فتحها المسلمون عنوة «إذا أذن لهم أمام المسلمين بناء على مصلحة رآها» وذلك على ما ذهب الزيدية وابن قاسم، وأورد أمثلة من مصر وما ذكره المقريزى: «وجميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة فى الإسلام بلا خوف» ثم قال «وهذا التسامح مع المخالفين فى الدين من قوم قامت حياتهم كلها على الدين، وتم لهم به النصر والغلبة، أمر لم يعهد فى تاريخ الديانات» أما عن واجبات أهل الذمة فقد ذكر القرضاوى: إن

عليـهم منها ثلاثة، أداء الجـزية والخراج والضـريبة التـجارية، والالـتزام بأحكام القانون الإسلامى، واحترام شعـائر المسلمين ومشاعرهم. والجزية ضريبة رؤوس أساسـها نص القرآن وإجماع المسلميـن، درجة إيجابها إن الإسلام أوجب الخدمة العسكرية على أبنائه، وجعلها عليهم فريضة دينية مقدسـة واعتبر أداءها منهم عـبادة، فكان من لطفه مع غيـر المسلمين ألا يلزمهم بما يعتبر عبادة فى غـير دينهم. فالجزية على غير المسلم بدل مالى عن الخدمـة العسكرية المفـروضة على المسلميـن. لذلك فهى لا تجب إلا على القـادر على حمل السـلاح من الرجال ، ولا تجب علـى إمرأة ولا صـبى ولاشيخ ولا ذى عـاهة ، ولا تفـرض على راهب. ولذلك فـهى تسقط عمن تجب عليه إذا لم تسـتطع الدولة أن تقوم بواجب حماية أهل الذمة من مواطنيـها، «وتسقط أيضا باشتـراك أهل الذمة مع المسلمين فى القتال والدفـاع عن دار الإسلام». وقد أعفى من الجـزية نصارى الإغريق لسبب غير الاشتراك فى القـتال وهو الإشراف على القناطر، كما فرضت الجزية على مسلمى مصر كمسيحييها لما عفوا من الخدمة العسكرية.

وأما الضريبة التجارية فقد فـرضها عمر على أهل الذمة بنصف العشر من مال التـجارة الذى ينتقل من بلد إلى بلد، وهى ضـريبة لم يرد فيـها نص معصوم، إنما فـرضت باجتهاد ومصلحة اقـتضته السياسـة الشرعية. «وعلى هذا لو تغير الوضع بالنظر إلى الذمى وأصـبح يؤخذ منه ضرائب على أمواله الظاهرة والباطنة مساوية للزكـاة فيمكن حينذاك أن يؤخذ من التاجر الذمى مثل ما يؤخذ من المسلم ولا حرج».

وأما الالتزام بأحكام القـانون الإسلامى فيصدر عن وصـفهم يحملون جنسية الدولة الإسلامية يلتزمون بقوانينها فيما لا يمس عقائدهم وحريتهم

الدينية. وأما مراعاة شعور المسلمين فتقتضى ألا يسبوا «الإسلام ورسوله وكتابه جهرة ولا أن يروجوا من العقائد والأفكار ما ينافى عقيدة الدولة ودينها ما لم يكن ذلك جزءا من عقيدتهم كالتثليث والصلب عند النصارى» وغير ذلك من مظاهر السلوك.

ويشير د. القرضاوى فى علاقة المسلمين بغيرهم إلى ما لا يدخل فى نطاق الحقوق التى تنظمها القوانين، وهو الروح التى تبدو من حسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان. وأورد جملة من آيات القرآن تحض المسلم على البر والقسط مع غير المسلمين ممن لا يقاتلونهم فى الدين، والمجادلة مع أهل الكتاب بالتي هى أحسن ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾.. وإكرام الرسول لأهل الكتاب وزيارتهم وعودة مرضاهم والتعامل معهم. وذكر أن أساس التعامل مع غير المسلمين:

«اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أيا كان دينه أو جنسه أو لونه».

«اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى».

«ليس المسلم مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم أو يعاقب الضالين على ضلالهم».

«إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل ويحب القسط».

وإن من ضمانات سيادة هذه الروح لدى المسلمين أن الإسلام نفسه يحض المسلمين عليها. فالدستور الإسلامى يضمن للأقلية غير المسلمة أن تعيش حرة فى التمسك بعقيدتها مع احترام مشاعر الأغلبية وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين إلا ما اقتضته ظروف دولة ايديولوجية تقوم على أساس فكرة الإسلام.

أما عن تولى غير المسلمين للوظائف العامة فذكر:

«لأهل الذمة الحق فى تولى الوظائف بالدولة كالمسلمين، إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية كالإمامة ورئاسة الدولة والقيادة فى الجيش والقضاء بين المسلمين والولاية على الصدقات. لأن الإمامة رئاسة عامة فى الدين والدنيا وهى خلافة عن النبى عليه السلام، وقيادة الجيش ليست عملا مدنيا صرفا بل هى من أعمال العبادة لكونها جهادا والقضاء حكم بالشريعة الإسلامية، فلا يطلب من غير المسلم أن يحكم بما لا يؤمن به.

ويعلق الأستاذ طارق البشرى على هذا قائلا: «إن مبدأ المساواة القانونية والتواد الاجتماعى مقرر تنسبغ به صفة المواطنة على غير المسلمين إلا فى الوظائف العليا فى الدولة وهى الإمامة وقيادة الجيش والقضاء، وبهذا يكاد الحوار أن ينحصر فى هذه النقطة داخل التيار الإسلامى السياسى القائم الآن».

وقد تقدم الأستاذ البشرى خطوة كبرى للأمام فى هذه الرقعة وقدم اجتهادا جديدا بلا شك فى قضية المواطنة ووضع الأساس المبدئى على النحو التالى:

«إنه حيثما أمكن الأخذ بما يسمى اليوم بالأساليب الديمقراطية فى بناء الدولة فإن ذلك يمكن أن يحل - من وجهة نظر إسلامية سياسية - تلك المشكلة ذات الأهمية فى تكوين الجماعة السياسية ويمكن بهذه الأساليب رسم خريطة لتوزيع السلطات العامة على نحو يمكن من المساواة بين المواطنين جميعا مسلمين وغير مسلمين بما لا يخل بالأساس النظرى والفقهى الذى يقوم على تفكير الماوردى نفسه وذلك كله وفقا لمبدأ توزيع السلطات وحلول الهيئات محل الأفراد فى اتخاذ القرارات».

والبشرى يشير هنا إلى الكتاب الفقهى المرجع فى هذا المجال (الأحكام السلطانية للماوردى). . الذى أصل فيه الماوردى للفصل بين وزارات التفويض ووزارات التنفيذ. . وأقر بتولى أهل الكتاب لوزارات التنفيذ دون التفويض. . وقد شرح البشرى أن ما يسمى وزراء التفويض أصبحوا محددين للغاية فى النظم الحديثة. . بل إن السلطات الفردية تتجه إلى التلاشى لحساب المؤسسات والهيئات. . وبالتالى فإن مشاركة الذميين فى جميع المؤسسات لا تؤثر على الولايات العامة للمسلمين، كذلك انحاز البشرى. . ونحن معه فى الحفاظ على الحقوق المستقرة فى تجارب ناجحة كمصر والتى تمثلت فى مشاركة الأقباط بشكل مفتوح فى الخدمة العسكرية والسلك العسكرى. . فمثل هذه المكاسب المستقرة لا مجال لإعادة مراجعتها. . (وكذلك الأمر بالنسبة للقضاء). للمزيد من التفاصيل: مراجعة كتاب طارق البشرى (المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية) (ص ٦٦٩ - ص ٦٩٠) دار الشروق - الطبعة الثانية.

وهكذا فإن فقهاءنا الثقات وضعوا التأصيل شبه الكامل لقضية مواطنى الدولة الإسلامية من أهل الكتاب وأنا أقوم منذ سنوات بإعداد دراسة حول بعض نقاط هذه القضية مع تطبيق خاص على مصر. . ورغم أن هذه الدراسة وشيكة الانتهاء بإذن الله، إلا أن استكمال قضية الموالاة لا يمكن أن يتم بدون التعرض السريع للموقف الإسلامى من أهل الكتاب المواطنين فى الدولة الإسلامية، بالمخالفة مع أهل الكتاب المحاربين أو المهادنين بصورة مؤقتة (المعاهدين) وهم (الغربيون) وحتى تتضح عدالة وإنسانية الموقف الإسلامى. وإنه لا ينطلق من تعصب مذموم. . أو رغبة مريضة فى تصفية المخالفين. . وأيضا لأن مصطلح «أهل الكتاب» ينطبق

على الاثنين المواطنين فى الدولة الإسلامية والمحاربين لها. . ولابد من تجلية الموقف الإسلامى المبدئى من هذا الموقف الشائك. . أو الذى يبدو كذلك.

## النص الدستورى:

إن النص الدستورى الأساسى الذى يحكم هذه القضية فى القرآن الكريم هو :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

[الممتحنة: ٨ ، ٩]

الشق الأول يتعلق بمواطنى الدول الإسلامية من غير المسلمين. . وكذلك الأفراد والجماعات والدول خارج دار الإسلام التى لم تسلك سلوكا عدوانيا ضد المسلمين. . والشق الثانى يتعلق بالمعتدين. . مع الأوائل بر وقسط. . ومع الأواخر نهى صريح عن الموالاة.

إذن فإن كل ما تناولناه فى الفصول السابقة عن الصراع الأبدى بين الإيمان والكفر لا يعنى أن الإيمان ينتشر بالقوة وبحد السيف ويفرض على الناس فرضا لأن هذا ببساطة يتعارض مع معنى كلمة «الإيمان» نفسها!! والإيمان فى اللغة يعنى «التصديق». . والإيمان فى الإسلام هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل. . وهذا ما لا يتحقق بالسيف ولا بأى شكل آخر من أشكال الإكراه.

وقد حسم الشيخ محمد الغزالى هذه المسألة فى كتابه (جهاد الدعوة). وقد ذكرت من قبل أن أئمة الكفر هم الذين يرفضون المباراة السلمية ويحاربون المؤمنين. ونحن مدعوون - فى الإسلام - للقتال دفاعا عن دار الإسلام، للتصدى لأى عدوان يتعرض له المسلمون فى أى مكان طالما هناك سبيل للوصول إليهم، ومساندتهم ماديا ومعنويا على أقل تقدير إذا كانت مواقعهم بعيدة وغير متصلة جغرافيا مع قلب العالم الإسلامى.

الإسلام لم يضع هدفا قسريا لدعوته (إدخال جميع الناس فى الإسلام).. لن تجد فى القرآن الكريم آية واحدة تدعو لذلك بصورة صريحة أو تبشر به.. وعلى العكس تجد كثيرا من الآيات ربطت بين الكثرة وبين الفساد والكفر والضلال، وتجد عشرات الآيات التى تؤكد اختلاف البشر إلى يوم الدين.

الآيات التى تشير إلى التمكين لا تقول صراحة إن البشرية ستتحول جميعا إلى دين الإسلام، بمعنى انتفاء باقى العقائد والمعتقدات، كذلك لم يقل لنا القرآن إن الكفر سيباد على ظهر الأرض. وهذه الآيات هى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾

[التوبة: ٣٣]

ثم تكررت بنفس النص فى الفتح ٢٨ والصف ٩، ويستفاد من هذه الآية المتكررة معنى أن الله سيعلى هذا الدين على جميع الأديان، ولكن دون أن يلغى هذه الأديان.. أو يمحو أتباعها إلى يوم الدين. والدراسات الغربية الحديثة تشير دائما إلى أن الإسلام هو أكثر الأديان سرعة فى معدلات الانتشار على المستوى العالمى.

أما الآية الأخرى فهى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]

والمعنى واضح. وعد الله الذين صدقوا بالحق وأذعنوا له منكم وعملوا الأعمال الصالحة وعدا مؤكدا أن يجعلهم خلفاء لمن سبقوهم وارثين لهم فى الحكم والولاية فى الأرض كما كان الشأن فيما سبقوهم وإن يمكن لهم الإسلام الذى ارتضاه دينا لهم فتكون لهم المهابة والسلطان، وأن يبدل حالهم من خوف إلى أمن بحيث يعبدوننى مطمئنين، لا يشركون معى أحدا فى العبادة. ومن اختار الكفر بعد ذلك فأولئك هم الخارجون المتمردون الجاحدون.

إذن فالتمكين لا يعنى إلغاء الآخرين.. وفى تاريخنا صورة مادية لهذا الوضع.. حيث كان لحضارة الإسلام سلطان ومهابة دون أن يعنى ذلك الهيمنة الكاملة أو الانفراد بالعالم، وحتى لا يكون هناك شك حول هذا المعنى لنصل هذه الآيات عن الإظهار والتمكين بآيات الاختلاف.. ولكثرتها نكتفى ببعض الأمثلة:

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩]

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾

[المائدة: ٤٨]

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[البقرة: ٢١٣]

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٣]

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٨]

وليس فى التأكيد على هذه المعانى أى تثبيط للمؤمنين، أو للشباب المسلم المجاهد، ولا يعنى ذلك أن نتكاسل فى الدعوة أو نفتر فيها فالأمر ببساطة أننا لا نعرف من سيهتدى ومن لن يهتدى (إنك لا تهدى من أحببت) كما لا نعرف بالضبط ما هو المدى الأقصى لمعنى التمكين فى الأرض، وهل سيتجاوز فى مداه ما حققته النهضة الإسلامية الأولى أم لا؟! وهذه قضية غيبية يجب ألا تشغلنا التنبؤات فيها.

إن ما يعنينا الآن من الإشارة إلى هذه المعانى، أن المسلم وفقا لعقيدة الإسلام لا يجب أن ينتابه قلق مرضى من وجود مخالفين له فى العقيدة،

وفى واقع الأمر فإن الحضارة الإسلامية هى أكثر الحضارات التى مارست بالفعل التعايش الإيجابى مع مخالفيها فى العقيدة.. ولم تسجل فى التاريخ الإسلامى ظاهرة الإكراه فى الدخول فى الدين أو التصفيات العرقية والطائفية والدينية.

والقضية مع أهل الكتاب (اليهود والنصارى أساسا) ذات شقين :

## ١ـ شق عقائدى :

ومن الطبيعى أن ترى كل عقيدة أنها هى العقيدة الصحيحة وغيرها على خطأ أو ضلال وبدون هذا الاتساق ما وجدت أية عقيدة من أى نوع.

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]

وفى هذا المجال فإن حوار الأديان مرفوض إذا كان المقصود به هو التقريب بين العقائد فلا مساومة حول هذه الأمور. والله يحكم بيننا فيها يوم القيامة.

وليس معنى «إحالة الفصل» (بلغة القانونيين) إلى الله عز وجل.. إن المسلم يتشكك فى صحة عقيدته التوحيدية، فالمؤجل ليوم القيامة هو الحساب النهائى لعقائد وأعمال كل أمة وكل فرد. والحكمة من هذا التأجيل، هو منع المسلمين من تصور - مجرد تصور - حسم المسألة الخلافية بشكل مادى على الأرض.. بمعنى تصفية المنادين بالتثليث مثلا.. أو تصفية اليهود - لمجرد كونهم يهودا - وأن تقام محاكم التفتيش وأن يحدث مثل ما جرى بين الطوائف الدينية المسيحية فى أوروبا

من تصفيات جسدية، وبحيث يعتبر المكان الملائم للمخالف فى العقيدة هو المقبرة!!.

وعلى ضوء هذه المعانى يمكن أن نقرأ الآيات التالية ونفهم مغزاها ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٠]

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[آل عمران: ٥٥]

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل : ٩٢]

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الحج: ٦٩]

﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة : ١١٣]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[يونس: ٩٣]

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [النحل: ٣٩]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾
[السجدة: ٢٥]

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٣]

﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[الجاثية: ١٧]

## ٢ـ شق حربى :

إذن إذا كان الشق العقائدى بهذه السلاسة ليس مع أهل الكتاب فحسب بل مع كل المخالفين فى الرأى والعقيدة فلماذا إذن إثارة الحديث عن الحروب والجهاد؟! ! إن الحديث عن عدم موالاة الكفار والمشركين وأيضا عن عدم موالاة اليهود والنصارى ينصب على المعتدين المحاربين، وقد ثبت باليقين وبحكمة التاريخ الممتد أن المؤمنين لا يتركون فى حالهم، وأن الكفار والمشركين وفريقا من الذين أوتوا الكتاب يعتدون عليهم ويفتنونهم فى دينهم، وقد شرع الله الجهاد دفاعا عن العقيدة والنفس والعرض والممتلكات والديار (الأوطان) وهذا الاعتداء يأخذ شكلين :

الأول : اعتداء عسكرى سافر مسلح تقوم به جيوش أجنبية بهدف الاحتلال، أو الهيمنة أو الحصار، وقد يكون أحيانا مصاحبا باستعمار إستيطانى (الحملات الصليبية - الكيان الإسرائيلى).

الثانى : التنكيل بالمسلمين الذين يعيشون بين ظهرانى المجتمعات غير الإسلامية أو على أطراف العالم الإسلامى (كحالة كوسوفا والبوسنة والشيشان). . . . إلخ.

وفى حالة غياب هذين النوعين من العدوان فلا مجال للعلاقات الحربية بين دار الإسلام وبين دول أهل الكتاب، ولا حتى يكون هناك مجال للعلاقات الحربية مع الكفار والمشركين الذين لا يدينون بأى كتاب سماوى.

الحرب فى الإسلام شىء كريه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ وهذه هى الفطرة الإنسانية السليمة، لذلك لايتم اللجوء إلى الحرب إلا

بشكل اضطرارى وعندما تكون هى أخف الضررين أى أخف من الاستسلام وتضييع الهوية والعقيدة والكرامة والأوطان وعندئذ ينطبق عليها ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وهذا هو المنطق المتسق مع الإسلام حتى إنه شرع قتال المسلمين إذا تحولوا إلى بغاة ولكن على أيدى المسلمين أنفسهم وليس باستدعاء طرف معاد:

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]

الإسلام يسعى لإقامة العدل.. وحماية النفس.. أيا كانت:

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]

الإسلام لا يعرف الحرب الطائفية ولكنه شرع الحرب إذا كانت ستدرأ أخطارا أكبر.. لا يمكن درؤها إلا بالحرب، وشرع الجهاد للتخلية بين الناس وبين حرية اختيار العقيدة.

هذا القسم من الكتاب يتناول الفرق الجوهرى لموقف الإسلام من اليهود والنصارى المواطنين بالدولة الإسلامية، حيث لهم حقوق وواجبات المواطنة السياسية الكاملة، من اليهود والنصارى المحاربين المعتدين على المسلمين.. وهؤلاء الأخيرون هم الذين تنطبق عليهم أحكام «عدم الموالاة».

وتناول القرآن الكريم لمسألة أهل الكتاب يمكن أن نأخذها على عدة مستويات:

## المستوى الأول: العدالة الإلهيــــة:

لاتزال بعض تفسيرات القرآن الكريم تشير مناخا من الغموض وعدم التأكد حول «أهل الكتاب» رغم كثر ة الآيات التى تناولت هذا الأمر، ويرجع ذلك إلى عدم ربط الآيات بعضها ببعض والاكتفاء بالأسباب المباشرة للنزول، وأيضا إعطاء بعض الآيات صفة الوصف التاريخى لا التشريع أو الحكم الدائم باعتبارها آيات كانت تعالج أمورا مضت وانتهت!

بالتأكيد فإن الإسلام لا يقبل ولا يقر إلا الإيمان بعقيدته الكاملة، وإنه يرفض العقائد الأخرى التى لا تأخذ بالتوحيد المطلق.. ومن الناحية الأخرى فإن أصحاب العقائد الأخرى يحملون نفس الموقف تجاه الإسلام، ولا مجال للمساومة والحلول الوسط حول الأمور العقائدية، وإن الخلاف حولها مادام هو بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، فهو لا يفسد للود قضية.. ولكن الاعتداء بالمعنى الحربى والمادى هو الذى يفسد للود ألف قضية وقضية.. أما على المستوى النظرى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وأشرنا إلى أن الله جل شأنه سيفصل فى هذا الخلاف يوم القيامة.

ولكن فى الاستقطاب الحاد بين عالم الإيمان.. وعالم الكفر.. أين يقع أهل الكتاب؟ إنهم يقعون فى منطقة متحركة بين هذين القطبين.. فمنهم من يكون أشد قربا للمسلمين وحليفا موثوقا ووثيقا ضد عالم الكفر (موقف نصارى الحبشة واليمن فى صدر الدعوة) ومنهم من يكون مناصرا لعالم الكفر ضد المسلمين (موقف يهود المدينة).. وليس موقف نجاشى الحبشة ويهود المدينة إلا نموذجين نظريين ممتدين عبر التاريخ..

وليس صحيحا أن موقف النجاشى غير قابل للتكرار.. بل هو فى حقيقة الأمر تكرر بعد ذلك مرارا عبر عصور التاريخ وحتى يومنا هذا، ولو فكرنا بهذا الأسلوب ستشرق علينا أنوار من آيات القرآن الكريم ظن البعض أنها - والعياذ بالله - معطلة بينما هى تمثل أسمى آيات العدل الإلهى.

فرغم أن آيات القرآن الكريم صريحة فى الخلاف مع عقائد النصارى واليهود، إلا أن القرآن الكريم ميز بين اليهود والنصارى من ناحية والذين أشركوا من ناحية أخرى:

**﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾** [الحج: ١٧]

إن الوضع الخاص لأهل الكتاب - فى القرآن الكريم - يرجع إلى اختلاط نقاط الاتفاق مع نقاط الخلاف وهو الأمر الذى يخلق علاقة «جبهوية» بين المتدينين فى المنطقة المشتركة وهى ليست بالقليلة، لذلك حرم الله الزواج من المشركين والمشركات، ولكنه أحل الزواج من الكتابيات، فيقول جل شأنه فى الحالة الأولى:

**﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾** [البقرة: ٢٢١]

ويقول فى الحالة الثانية:

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥]

وليس هذا التشريع إلا أحد التطبيقات العملية لمعنى الوضع الخصوصى لأهل الكتاب.

فما الآيات التى تشير إلى أسمى معانى العدل الإلهى؟!

من بين هذه الآيات:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٦٢]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩]

وحول هذه المعانى المتكررة فى القرآن الكريم يقول صاحب المنار:

«إن الله العظيم الحكيم لا يحابى فى سننه المطردة فى نظام خلقه مسلما ولا يهوديا ولا نصرانيا لأجل اسمه ولقبه أو لانتسابه بالاسم إلى أصفيائه من خلقه، بل كانت سننه حاكمة على أولئك الأصفياء أنفسهم، حتى أن خاتم النبيين ﷺ قد شُجَّ رأسه وكسرت سنه وردى فى الحفرة يوم أُحد لتقصير عسكره فيما يجب من نظام الحرب!!

فإلى متى أيها المسلمون هذا الغرور بالانتماء إلى هذا الدين وأنتم لا تقيمون كتابه ولا تهتدون به ولا تعتبرون بما فيه من النور؟ ألا ترون كيف عادت الكرة إلى تلك الأمم عليكم بعدما تركوا الغرور، واعتصموا بالعلم والعمل وبما جرى عليه نظام الاجتماع من الأسباب والسنن حتى ملكت دول الأجانب أكثر بلادكم وقام اليهود الآن ليجهزوا على الباقى لكم، ويستردوا البلاد المقدسة من أيديكم ويقيموا فيها ملكهم؟ فاهتدوا بكتاب الله الحكيم وبسنته فى الأمم.. أفيقوا أفيقوا، تنبهوا تنبهوا، واعلموا أن الله لم يظلم ولا يظلم أحد فتيلا، فمازال ملككم ولا ذهب عزكم إلا بترك هداية ربكم».

ويقول الشيخ الغزالى: المباهاة بالأديان لا يحير أصحابها فتيلا، المهم هو العمل الصادق والسلوك الراشد، وفى عصرنا هذا ـ كما يقول محمد عبده ـ يود من يتحدث عن الإسلام فيثنى عليه أعظم الثناء يقول: أى دين أصلح إصلاحه؟ أى دين أرشد إرشاده؟ أى شرع كشرعه فى اكتماله؟ فإذا سئل الواحد منهم: ماذا فعل للإسلام؟ وبما يمتاز على غيره من أتباع الأديان الأخرى لايجد جوابا، وردعا لقائلين غير مغالين، يقول الله تعالى:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء : ١٢٣]

ثم يضيف:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]

وفى تفسير الآيتين يقول الإمام محمد عبده: «إن الأديان ما شرعت للتفاخر والتّباهى ولا تحصل فائدتها بمجرد الانتماء إليها والمدح بها، بلوك الألسنة والتشدق فى الكلام، بل شرعت للعمل وإنما سرى الغرور إلى أهل الأديان من إتكالهم على الشفاعات وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء لذاتهم، فهم بكرامتهم يدخلون الجنة وينجون من العذاب لا بأعمالهم».

وفى هذا السياق نزلت الآية:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤]

ويعقب عليها الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير «المنار» بقوله: «أى أن كل من يعمل ما يستطيع عمله من الصالحات وهو متلبس بالإيمان مطمئن به، فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بذكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم، ثم يضيف معقبا على الآيتين (١٢٣ - ١٢٤) أن فيهما من العبرة والموعظة ما يدك صروح الأمانى ومعاقل الغرور التى يأوى إليها الكسالى الجهال الفساق من المسلمين الذين يجعلون الدين كالجنسية السياسية وظنوا أن الله العزيز الحكيم يحابى من يسمى نفسه مسلما ويفضله على من يسمى يهوديا أو نصرانيا بمجرد اللقب وإن العبرة بالأسماء والألقاب لا بالعلم والعمل».

## المستوى الثاني: أهل الكتاب ليسوا سواء:

هناك اتجاه آخر فى التفسير يقول إن كل كلمة خير وردت عن أهل الكتاب فى القرآن إنما تتعلق بأهل الكتاب السابقين على الإسلام، وإنهم ما داموا لم يدخلوا الإسلام حتى الآن فإنهم لا يستحقون كلمة خير

واحدة، (وهذا الاتجاه سائد أيضا فى تفسيرات الشيعة!) فمثلا إذا وردت الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

يقال إن هذا الحكم يمس الذين عاشوا قبل الإسلام.. أما بعد الإسلام فلن يقبل منهم إلا الإسلام، دون ملاحظة أن الإسلام فى القرآن الكريم هو اسم كل رسالات السماء التى تنزلت على كل الأنبياء والرسل.. ثم تضيف هذه التفسيرات أن هذه الآية تنطبق على اليهود والنصارى الذين دخلوا الإسلام.. فإذا كانوا دخلوا الإسلام لماذا يسمون يهودا أو نصارى.. ثم لاحظوا أن الآية تشير إلى الإيمان بالله دون الشهادة بأن محمدا رسول الله وقد أدى هذا المعنى فى التفسير إلى تحويل عشرات ومئات الآيات إلى مجرد آيات تاريخية.. وأصبح هناك فى القرآن الكريم جدل واسع حول أهل الكتاب لا محل له فى نظر هؤلاء المفسرين إلا مجرد تحليل تاريخى للصراعات بين الأديان فى صدر الدعوة الإسلامية!

وحرمونا من متعة النظر فى إعجاز القرآن الكريم الذى لايزال يحلل ويضىء ويشرح لنا ما يجرى فى عصرنا الراهن، كذلك حرمونا من عديد من الأحكام التى تضبط علاقات المسلمين بغيرهم.

وقد نشأ عن القول بتاريخية هذه الآيات.. إهمال الآيات... التى تميز الاتجاهات داخل أهل الكتاب.. باعتبارها تفاصيل داخل نفس الدائرة من الأحكام التى لم تعد تعمل فى العصر الحديث وحتى يوم الدين من وجهة نظرهم.

ومن أبرز هذه الآيات:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥]

وأيضا فى نفس السورة:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥]

ونحن إذا لم نأخذ بالمعنى المباشر لهـذه الآيات وقلنا إنها تتحدث عن التاريخ لوقعنا فى حفرة عميقة من عدم الاتساق.. إذا تحدثنا عن النوايا الطيبة تجاه أهل الكتاب فى الدولة الإسلامية.. إذ يبدو موقف المسلمين فى هذه الحالة عمليا (براجماتيا) لايستند إلى أى أساس مبدئى! بينما القرآن الكريم ما فتىء يذكرنا بأنهم ليسوا أمة واحدة، وبأنهم ليسوا سواء.. لاحظوا التعبيرات القرآنية:

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾.. ﴿ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾.. ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾.

القرآن يتحدث دائما عن فريقين ويميز بينهما وهذا حكم عام وعلينا فى كل عصر أن نتحرى الموقف السليم تجاه هذين الفريقين بعد أن نحددهما.

نعود للآية الأولى التى تبدأ ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ... ﴾ إلخ. فى تفسير ابن جرير: روى قتادة عن ابن عباس قوله: ليس كل القوم «أى اليهود» هلكى، قد كان لله فيهم بقية.

وروى عن ابن عباس قوله فى «أمـة قائمة» أمة مهتـدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه، ويعلق أحمد حسين فى تفسـيره فيـقول: إنه بعد أن دمغ الله الـيهود بما دمغ وسـجل عليهم الكفر والفسوق والعدوان، فقد شاء عدله وشاءت رحمته التى وسعت كل شىء ألا يقفل الباب وإلـى آخر الزمان فى وجه اليهـود لمجرد كونهم يهودا والقاعدة الأساسية فى القرآن ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وليست هذه الآيات التى نحن بصددها إلا تطبيقا لذلك، فأيا كـان شأن اليهود، فستبقى فيـهم «أمة» أى جماعة تقـوم بهذه الأعـمال الصـالحة التى عـددتها الآيات، وفى هذه الحـالة، ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ على أن هؤلاء عندما يوجدون فى أى مجتمع يهـودى فلن يزيدون على أن يكونوا أفرادا وهم قلـة فى جميـع الأحوال حيث تبقى الكثرة الغالبة هى المعـصومة بما وصمها به الله «منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون».

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ويعلق أحمد حسين على هذه الآية الأخيرة فـيقول: وهذه هى الآية التى جعلتنا نفهم مـا فهـمناه من أن المقـصـود بالآيات هم أهل الكتـاب الذين ظلوا على دينهم، فكأن الآية الكريمـة تقول لهم: «إنه بالرغم من تمسكهم بـكتابهم توراة كان أو إنجـيلا كان فإن خـير من نوع ما عـددته الآيات»، «الإيمان بالله واليـوم الآخـر والأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر والمسـارعـة فى الخيـرات» إن أى عمل صالح يقـومون به «فلن يكفـروه» أى لن يضيع ثوابه فالله لايضيع أجر من أحسن عـملا. ويكفر الشىء أى يستر ويغطى ويصبح كما لو لم يكن موجودا.

أما فى الآيـة الأخرى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَـا دُمْتَ عَلَيْـهِ قَـائِمـا ﴾ فسنجـد أن القرآن الكريم لايجـرد غيـر المسلمين من الأمـانة بل يقرر أن فيهم الأمين وغير الأمين وأن الله سـبحانه وتعالى يحب الأمين ولايضيع أجره.

ففى صنوف الكتابيين من يصل فى الأمانة إلى الذروة حتى ليردها ولو كانت قنطارا والقنطار هنا يعنى الشىء الكثير جدا بلا حدود (لاحظوا أن أغنياء مـصر وأجهزة الدولة كـانوا يختارون كتـبة حساباتهم من الأقـباط وذلك حتى وقت قريب) وكـما يوجد فى أهل الكتاب الثقـة الأمين فهم كبقية البشر فيهم غير الأمين والمراوغ، ومن يأكل حقوق الناس إذا استطاع إلى ذلك سبيـلا، ويصور القرآن ذلك بأنه لو كان لك دينـار عند كتابى فلن تستطيـع أن تستخلصـه منه إلا بعد معـاناة ودأب ومتابعـة وإلحاح، وكلمة دينار هنا تعنى القليل بلا حدود كذلك.

وأخيـرا ونحن نكاد ننهى سورة آل عـمران نجد هذه الآية الصـريحة: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَـا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَـا أُنزِلَ إِلَيْـهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]

قال جابر بن عـبد الله وأنس وابن عباس وقـتادة والحسن إن هذه الآية نزلت فى النجاشى (ملك الحبشة النصرانى) ذلك أنه لما مات نعاه جبريل ـ عليه السـلام ـ فقـال النبى ﷺ لأصحابه: «قـوموا فصلـوا على أخيكم النجـاشى» فقال بـعضهم لـبعض يأمـرنا أن نصلى على علج من علوج

الحبشـة، فأنزل الله الآيات على ماروى القرطبى وفى تفسـير ابن جرير نحو ذلك، (العلج هو الكافر الأعجم).

والخلاصـة أن النبى ﷺ طلب من الصـحابة أن يصلوا صـلاة الغائب على النجاشى (ومن هذه الواقـعة تقررت سنة الصـلاة على الغائب) ولم يرد فى سيـرة رسول الله أن النجـاشى أسلم ولكنه حمى المسلـمين الذى هاجروا إليـه، وعندما سـمع ما يقـوله القرآن عن سـيدنا عيـسى أمن به وصدقه، وأصبح القول ينصـرف لليهود والنصارى ممن يؤمنون بما «أنزل إليهم» أى التـوارة والإنجيل ويؤمنون فى ذات الوقت بما «أنزل إليكم» أى بالقرآن الكريم ومـا تضمنه من التـقرير بأن حقـيقة التـوراة والإنجيل فى نصوصهما الأصلية هى عبادة الله الواحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـوا أحد، هؤلاء الكتابيون لهـم أجرهم عند ربهم. .وهكذا نرى أن القرآن الكريم مـيز بين أهل الكتـاب على أساس العقـائد. . وأيضا على أساس السلـوك والالتزام الأخلاقى. . والقـرآن بهذا المعنى لايـحمل أى مـعنى طائفى. ولا يدعـو إلى أى نوع من الطائفـيـة. . ولو عـدنا للآية الكريمة:

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣]

فالخطاب موجـه للمسلمين كمـا هو لأهل الكتاب، وإذا لم تكن هذه العدالة المطلقة. . فمـاذا تكون إذن؟! إن دخول الجنة. . لن يكون بالهوية (البطاقة الشخصية أو العائلية). . والمسلمون إيمانهم وأعمالهم درجات. . وبعضهم مـعرض للرسوب. . أما المنافقـون منهم فهم فى الدرك الأسفل من النار!

هذا هو العدل الإلهى.. وليس كما صور اليهود الله عز وجل إنه منحاز لـ «شعب الله المختار»، أى أنه شعب مدلل ومهما فعل من أفاعيل .. فمكانته مضمونة عند مليك مقتدر.. وهى صورة ننزه عنها الله سبحانه وتعالى.. لأنها صورة تصلح لوصف أوضاع فاسدة على ظهر الأرض.. حيث ينحاز الحاكم لحزبه.. حتى ولو ضم غلاة المفسدين..أو ينحاز لقبيلته أو ثلته أو عشيرته مهما ظلمت وبغت الفساد فى الأرض!.

## المستوى الثالث: القرآن الكريم ميز بين اليهود والنصارى:

أهل الكتاب هم أساسا (اليهود والنصارى) ولم يشر القرآن الكريم إلا قليلا للمجوس والصابئين والأخيرون اضمحلوا فى العصر الراهن وبقاياهم فى بعض مناطق العراق وإيران وربما فى أماكن أخرى.

وسنلاحظ أن معظم آيات القرآن التى لعنت أهل الكتاب الذين عادوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانت منصبة على اليهود، حيث لم يحدث احتكاك أو تصادم بين نصارى الجزيرة العربية والرسول.. ومن الواضح أن أعدادهم ـ أى النصارى ـ فى وسط الجزيرة وحول مكة والمدينة لم تكن كبيرة ولم تكن مركزة ومكثفة بصورة جغرافية على خلاف الوضع فى أقصى جنوب وشمال الجزيرة (لاحظوا أن الله عز وجل هو الذى اختارت مشيئته مكان رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وموقعها.. والله يعلم أين يضع رسالته).

وشاءت إرادة الله أن تكون المواجهة الأولى مع النصرانية هى المواجهة مع الإمبراطورية البيزنطية.. فى مؤتة، ومع القبائل العربية العميلة لها

فى أقصى شمال الجزيرة، وقد وقع هذا التصادم فى لحظة متأخرة من الدعوة.

وقد اختص القرآن الكريم بنى إسرائيل بلغة غليظة وبآيات أكثر.. ثم أوضح ذلك بصورة قاطعة فى الآية التالية:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢]

مرة أخرى هذه الآية ليست آية تاريخية ولكنها نص دستورى ككل آيات القرآن الكريم لاتزال تعمل حتى الآن.. وحتى أبد الدهر.. ولا خلاف بين المفسرين حول العداوة الأشد لليهود والذين أشركوا، ولكن الجدل يثور حول «النصارى».. ويتصور البعض أن هذا الشطر من الآية أصبح فى ذمة التاريخ! نظرا لما قاساه العالم الإسلامى على يد النصرانية الغربية! وهذا ينقلنا إلى المستوى الرابع من التحليل.

## المستوى الرابع: النصرانية بين الشرق والغرب:

ولكن رغم هذا التمييز بين اليهود والنصارى نجد الجمع بينهم أيضا فى آيات عديدة. . بالإضافة لأن مصطلح أهل الكتاب يشملهم معا. وإذا تركنا اليهود جانبا الآن حيث لا يشكل الموقف منهم أى جدال يذكر من الوجهة الشرعية. . فسنجد أن أكثر نصارى الغرب يعادون الإسلام ويناصرون العدوان والاستعمار الصهيونى - الأمريكى، حتى لقد ظهر بينهم اتجاه قوى يسمى المسيحية الصهيونية، أما نصارى الشرق خاصة فى مصر حيث لعبت الكنيسة المصرية دورا محوريا فى المنطقة فقد اختلفوا عبر التاريخ عن المسيحية الغربية. والمسيحيون الشرقيون أقرب ما يكونون إلى المسلمين فكرا وسلوكا وأخلاقا على خلاف مسيحيى الغرب، المسيحى الشرقى أقرب إلى المسلم الشرقى حضارة وشخصية منه إلى المسيحى الغربى (تجربة مصر التاريخية أوضح مثال).

إن خط التمييز بين نصارى الشرق والغرب يحل كثيرا من المعضلات المبدئية ويفسر كثيرا من آيات القرآن التى استغلقت على البعض. . وظن أنها تتعارض مع عقيدة التوحيد فعطلها.

إن هذا التمييز بين مسيحيى الشرق والغرب حكم تطورات دعوة الإسلام منذ اللحظة الأولى، وأشار إليه القرآن الكريم فى الآية التى ندور حولها الآن:

**﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾**.

والنصارى جمع كلمة «نصرانى» واختلف فى أصل الكلمة فقيل هى

من النصرة جاء فى القرآن الكريم على لسان عيسى - عليه السلام - ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، وقيل بل سموا نصارى نسبة إلى الناصرة حيث كان يقيم المسيح.

كذلك فإن إشارة الآية الكريمة إلى أن منهم (قسيسين ورهبانا) إشارة صريحة إلى نصارى الشرق.. ومصر بوجه خاص.. فالمعروف أن الرهبنة صناعة مصرية.. نشأت فيها ثم انتشرت فى بلاد العالم وكذلك فقد اشتهرت كنيسة الإسكندرية بالتفوق فى الدراسات الكهنوتية وإعداد القساوسة فى أول مدرسة لاهوتية فى العالم.

الكنيسة القبطية هى أم الرهبنة فى العالم حيث نشأت الرهبنة فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع.

ويقول الشيخ الغزالى: «لم يقع حوار ساخن بين المسلمين والنصارى داخل المدينة، وإنما حمى الخصام بين المسلمين واليهود الذين كونوا مستوطنات لهم فى المدينة نفسها وشمال الحجاز والذين تصدوا للإسلام يكذبون الله ورسوله ويهاجمون وحيه ويؤلبون عليه عبدة الأصنام فى شتى الأرجاء».

ويضيف تعليقا على آية ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾: «إن التاريخ يروى لنا ما حدث فى عصر البعثة، كان مشركو مكة ويهود المدينة أشد الناس بأسا فى عداوة الإسلام على حين كان المسلمون يؤملون الخير فى نصارى الحبشة والروم، وقد صرحوا بأن هزيمة الفرس للروم مؤقتة! وإن إخوانهم أهل الكتاب سوف يكسبون المعركة التى خسروها ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله»! «علامات التعجب للشيخ الغزالى).

والحقيقة أن هذا الموقف الأخير سجله القرآن الكريم فى سورة الروم:

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: ١ - ٤]

إن هذا الصدام الذى تشير إليه الآية بين الرومان بقيادة هرقل والفرس بقيادة كسرى لم يكن صداما عاديا بين دولة وثنية (الفرس) ودولة (كتابية) ففيه استولى الفرس على انطاكية أكبر مدن الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية ثم على دمشق وحاصروا بيت المقدس إلى أن سقطت فى أيديهم وأحرقوها ونهبوا السكان وأخذوا يذبحونهم، وقد دمر الحريق كنيسة القيامة فاستولى المغيرون علي الصليب ونقلوه إلي عاصمته، وقد جزعت نفوس المسيحيين لهذه الكارثة المروعة ولما كانت هذه الهزيمة مبعث سرور للمشركين من أهل مكة وسبب شماتتهم بالمسلمين لأن الروم أهل كتاب كأصحاب محمد ﷺ والفرس ليسوا أصحاب كتاب كالمشركين، أنزل الله جل جلاله على محمد هذه الآيات البينات ليبشرهم بنصرة أهل الكتاب وفرحتهم وهزيمة المشركين وسوء عاقبتهم فى فترة من الزمن حددها ببضع سنين. . وهذا ما حدث بالفعل.

ونعود مرة أخرى للشيخ الغزالى الذى يضيف (ثم إنه جاءت وفود مسيحية إلى مكة والمدينة واستمعت إلى الرسول يتلو كتابه فأعلنت إيمانها) ويقول (لم يشعر الإسلام بخطر من نصارى اليمن أو غيرهم بل جاء الخطر من دولة الرومان التى صنعت ستارا حديديا حول تسلل الإسلام إلى شمال الجزيرة بعدما انتشر وسطها وجنوبها).

هكذا إذن فإن حركة الإسلام الأولى لم تصطدم بنصارى الشرق فى

وسط الجزيرة واليمن والحبشة بل رأينا دور النجاشى العظيم فى احتضان المسلمين المهاجرين إليه وحمايتهم ورفضه تسليمهم لوفد قريش وعندما استمع لسورة مريم بكى هو وبعض الكهنة الحاضرين وقال: إن هذه الآيات تنبع من نفس المشكاة التى ينبع منها الإنجيل، وفى إطار ربط الأمور ببعضها نذكر بأن الكنيسة الأثيوبية الحبشية كانت فرعا لكنيسة الإسكندرية المصرية.. قبل بعثة محمد ﷺ وقد تم تأسيس هذا الفرع فى عهد البابا العشرين عام ٣٢٩م حيث تم ارسال أول مطران للكنيسة الإثيوبية من مصر.

ولا تعارض بين موقف القرآن من الروم وما حدث بعد ذلك من مواجهة بين الرسول وهذه الدولة، فموقف الإسلام - كما ذكرنا - من أهل الكتاب موقف مركب، فعواطفه مع أهل الكتاب عندما يصطدمون بالوثنيين. ولكن أهل الكتاب إذا حاربوا الإسلام فلا مفر من التصدى لهم. هذا بالإضافة لأهمية موقعة الروم - الفرس حول القدس ومصير المقدسات فيها، وهي - أي سورة الروم - وثيقة ومستند ربانى على التزام الإسلام بحماية المقدسات النصرانية.

وقد شاء الله عز وجل أن تحدث المواجهة الأولى بين الإسلام ونصرانى الغرب فى عهد الرسول ﷺ لتؤرخ لهذا الصراع الممتد بين الحضارة الإسلامية والشرق المتدين من ناحية والحضارة الغربية التى ترفع لواء المسيح بعد أن فصلت تعاليمه على هواها المادى.

كانت غزوة مؤتة قبل فتح مكة بحوالى أربعة أشهر تصدى فيها الرسول لأكبر إمبراطوريات الأرض رغم أن دولته الأقل عددا وعدة بما لا يقاس لم تكن تصل مساحتها إلى مساحة قطاع غزة الحالى!! (يثرب

المطهرة/ المدينة)، وتعلمون أن رسول الله فى أيامه الأخيرة كان يفيق من الحمى بين آونة وأخرى ويقول : أنفذوا بعث أسامة (يقصد إلى الشام). وهو الأمر الذى جعل أبا بكر الصديق يصر على تنفيذ هذا التوجيه، رغم تفجر حروب الردة.

فى عهد الرسول إذن بدأت أولى حروب الإسلام مع نصرانية الغرب.. ولا يغير من ذلك أن بعض القبائل العربية النصرانية شمال الجزيرة كانت فى صف الرومان.. لأنها قاتلت من موقع التبعية الذيلية.. وارتباط المصالح.. كما ارتبطت قبائل أخرى بالتحالف مع الفرس، وكانت المجموعتان من القبائل تتحاربان لحساب الإمبراطوريتين.

ويقول د. محمد عمارة : «إن الغرب لم يشهد حقبة للحضارة المسيحية الحقة! فالمسيحية عندما تدينت بها الدولة الرومانية قد طوعت للطابع الخاص بالحضارة الإغريقية - الرومانية وغدت مجرد قسمة هامشية فى تلك الحضارة، بل لقد أخرجت عن أخص خصائصها، خاصية الصوفية المسالمة والسلام المتصوف وبعبارة الإمام المعتزلى قاضى القضاة عبد الجبار الهمدانى فإن النصرانية عندما دخلت روما لم تتنصر روما ولكن النصرانية هى التى ترومت!».

وحتى عندما حكمت الكنيسة المسيحية أوروبا - بشكل غير مباشر - عن طريق القياصرة الذين حكموا بالحق الإلهى أو بشكل مباشر بالبابوات فإن الذى شهدته أوروبا لم يكن حضارة مسيحية لأنه لم يكن «حضارة» أصلا! فالذى قام يومئذ كان تخلفا وتراجعا عن الحضارة ساد فيه ما اتفق الجميع على تسميته بعصور الظلمات!

أما الحضارة الغربية والنهضة الأوروبية - الحديثة والمعاصرة - فهى ثمرة

للثورة على الدين وليست مـن ثم حضارة مسيحـية، فالمسيحيـة لم تثمر حضـارة أوروبية، والحـضارة الأوروبيـة جاءت ثـمرة للعلمـانيـة والفكر الوضعى والمؤسس على أنقاض حاكمية اللاهوت المسيحى!.

قبل الفتح الإسلامى كانت الكنيسة الملـكانية الرسمية فى بيزنطة تعادى عداء شديدا رهبان الكنيسة اليعقوبية الشرقية ولما أعادت بيزنطة فتح مدينة ملطية فى ديار الشـام الشرقية وكـانت كنيستـها يعقوبيـة أخذوا البطريرك وستة من كبار أساقفتـها إلى القسطنطينية وسجنوهم بها ثم نفوا البطريرك إلى بلغاريا ومات على حدودها كما مات أحد الأساقفة ورجموا زميلا له بالحجارة أمـام باب قصر الإمبـراطور واضطر الباقون إلى إعـلان كفرهم بالمذهب اليـعقوبى واعـتناقهم للمـذهب الملكانى فرارا من الموت وأعـيد تعميدهم، بينما لم يحدث شىء مماثل من ذلك فى تاريخ الإسلام!.

أما المعـركة الكبرى فكانت فى مـصر.. التى شهـدت عصر الشـهداء للمرة الثانـية، وعندما دخل عمرو بن العـاص مصر كان الأقـباط يعانون أشد ويلات الاضطهـاد. فلما اطمأنوا نزلوا من الكهـوف والمغارات التى اختـبأوا فيـها هروبا من النصـارى الرومان، وعادوا إلى الـوادى يفلحون الأرض ويدفنون قتـلاهم وقديسيـهم من «مارمينا إلى مـار بقطر إلى مار جرجس إلا الأنبا مقار».

وكتب عمرو إلى عمال مصر كتابا يقول فيه: الموضع الذى فيه بنيامين بطريرك النصـارى له العهـد والأمان والسـلامة من الله، فليـحضـر آمنا مطمئنا ويدبر حال بـيعته وسياسـة طائفته، وكان الأنبا بـنيامين هاربا من اضطهاد الرومان، وعندما التقى عمرو معه قال لأصحابه: «إن فى جميع الكور التى ملكـناها إلى الآن مـا رأيت رجلا يشـبـه هذا» ثم قـال له :

«جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم».

وقد كان هذا الخط متواصلا بين الفتح الإسلامى ومسيحيى الشرق فى الشام ومصر وشمال أفريقيا، فالدولة الرومانية كانت دولة استبدادية سياستها تمثل أكبر إهانة واستهانة بدين المسيح الذى يدعو للسلام، ونبذ العنف والإكراه.

وتواصل اللقاء بين الإسلام ومسيحيى الشرق خلال بناء الحضارة الإسلامية، وخلال التصدى لغزوات الغرب من الحملات الصليبية حتى الاستعمار الحديث لإسرائيل.

والحديث فى هذه النقطة يحتاج لبعض التفصيل لأنه هو الذى سيضعنا على أعتاب الجزء التالى من دراستنا.. حول أهل الكتاب المحاربين.. وهل الحلف الصهيونى الأمريكى المعاصر حلف معاد من أهل الكتاب أم حلف الكفار؟!.

●●●●●

يركز هذا القسم على الانقسام التاريخى بين نصارى الغرب ونصارى الشرق، مع التركيز بشكل خاص على الكنيسة المصرية.

هناك خط دائم ظل يميز بين كنائس ومسيحيى الشرق، وكنائس ومسيحيى الغرب.. فى الشرق هنا كان مركز رسالة المسيح.. فظل الشرقيون أقرب إلى مضمونها، بينما عندما وصلت موجة رسالته للغرب بدا كما لو أنها وصلت بموجات ضعيفة غير متعمقة.

وسنجد ـ عبر التاريخ وحتى الآن ـ مسيحيى الشرق أكثر تدينا بما لا يقاس من مسيحيى الغرب.

وسنجد مسيحيى الشرق يؤدون الشعائر بانتظام ويصومون صياما مطولا، ويلتزمون بالقيم الأخلاقية، أما فى الغرب فقد وقفت الكنيسة الغربية (بعد دورها المتخلف فى العصور الوسطى الأوروبية) وقفت فى العصر الحديث عاجزة عن مواجهة موجة الانحلال الأخلاقى فى الغرب بل إنها انتقلت فى بعض الأحيان من السلبية إلى المشاركة الايجابية فى الانحلال. حيث بدأت توافق بعض الكنائس على زواج الرجال من بعضهم والنساء أيضا، ضاربة عرض الحائط بتعاليم الإنجيل وكل الكتب السماوية فى محاربتها للشذوذ، من هؤلاء آباء الكنيسة فى انجلترا الذين أيدوا مجلسى اللوردات والعموم فى إباحة اللواط! وظهرت كنائس فى أوروبا تعقد الزيجات بين الشواذ وتنظم الطلاق والميراث بينهم.

إن كل الموبقات التى تشهدها بلاد أمريكا وأوروبا تتحدى النصوص الصريحة للكتاب المقدس بنصوصه الحالية المتداولة بين أيدى القوم.. ومنها مثلا:

(لا تزن).. (لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته).

(لا تضلوا. إنه لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله).. (لمن الويل؟ لمن الشقاوة؟ لمن المخاصمات؟ لمن الكرب؟ لمن الجروح بلا سبب؟ لمن ازمهرار العينين؟ للذين يدمنون الخمر...).

كنائس الغرب بكل فروعها تتسم بالبرود الشديد إزاء هذه الظواهر ولكنهم يشمرون فقط عن سواعد الجد فى حملاتهم التبشيرية فى أفريقيا وآسيا فى حين أن أوروبا وأمريكا هى أكثر البلاد حاجة للتبشير بتعاليم

المسيح! ثم ما هو موقف الكنائس الغربية (بعد كارثة الحملات الصليبية) من الاستعمار؟ لقد شاركت بصورة فعالة مع جيوش الاحتلال الزاحفة فى بسط النفوذ الاستعمارى، وتشارك الآن مع الاستعمار الجديد الذى يأخذ أشكال التبعية الجديدة؟ وما هو موقفها من إسرائيل والعدوان الإسرائيلى المتواصل على العرب والمسلمين؟ ما هو موقفها من المذابح التى ترتكبها أمريكا فى العراق؟ . . إلخ.

ولكن من المهم أن نؤكد بداية أن الإسلام لا يعرف المواقف العنصرية ولا التصنيفات الطائفية. . لذلك لا يوجد نص صريح على أفضلية نصارى الشرق على نصارى الغرب (فيما عدا الآية التى ألمحت إلى ذلك ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾) لأن بعض نصارى الشرق كان لهم دور شائن فى ضرب أوطانهم من الداخل (أبرز مثال هو دور الموارنة تاريخيا فى لبنان وإن لم يخلوا بدورهم من النماذج القليلة ذات التوجه العروبى) وكذلك لأنه لا يمكن أن نجرد كل نصارى الغرب من أى إخلاص دينى بالمعنى الإيجابى لهذا الإخلاص.

وفى إطار الدائرة الشرقية سنجد لأقباط مصر مكانا متميزا، حيث تحدث الرسول - عليه الصلاة والسلام - عنهم دون غيرهم فيقول «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم منكم صهرا وذمة» وهذا من إعجاز الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأن أقباط مصر. . هم بالفعل حالة خاصة حتى فى إطار الدائرة النصرانية الشرقية. ومن المهم هنا أن نقف وقفة سريعة أمام تاريخ الأقباط. . وعلاقتهم بالإسلام والمسلمين، وهى تمثل نموذجا حضاريا نباهى به سائر الأمم.

وقد عرف المصريون المسيحية فى منتصف القرن الأول الميلادى حينما بشرهم بالمسيحية أحد تلاميذ المسيح.. أما أقدم كنائس العالم فكانت أورشليم حيث بدأت المسيحية، ثم كنيسة أنطاكيا فى سوريا ثم كنيسة الإسكندرية ثم كنيسة روما، والأوضاع السياسية العالمية هى التى جعلت روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وبالتالى أصبحت كنيسة روما هى أولى الكنائس، ثم أصبحت كنيسة القسطنطينية الثانية رغم أنها تأسست فى القرن الرابع نسبة إلى الملك قسطنطين باعتبارها مركز الإمبراطورية الرومانية الشرقية تأتى بعد ذلك كنيسة الإسكندرية ثم أنطاكيا.. وكان هذا التقسيم فى منتصف القرن الرابع.

●●●●●

## الانقسام الكبير بين كنائس الغرب والشرق:

شهد التاريخ دور الإمبراطورية الرومانية الاستبدادى فى قمع انتشار دعوة الدين المسيحى.. فى الغرب والشرق.. وشهدت مصر بالذات عصر الشهداء.. حيث كانت الإمبراطورية الوثنية تبيد المؤمنين بالله وتصفيهم جسديا.. كما تعودت أوروبا أن تمارس خلافاتها العقائدية والطائفية والقبلية.. ولما دخلت روما المسيحية.. أو ترومنت المسيحية على يديها.. مارست نوعا استبداديا شاذا لفرض المذهب الملكانى الرسمى.. على المذهب الأرثوذكسى.. ومارست روما «المسيحية» استبدادا ووحشية تجاه الأقباط لا يقل بل يفوق الاستبداد الذى مارسته روما الوثنية.. وكل ذلك بسبب خلاف مذهبى حول طبيعة المسيح.

كانت النتيجة المباشرة لقرارات مجمع خلقيدونية ٤٥١م هو الانقسام

الأول للكنيسة، حيث تبنت الكنائس الغربية فى هذا المجمع القول بطبيعتين فىّ المسيح، بينما أصرت الكنائس الشرقية على الطبيعة الواحدة للمسيح وهى كنائس الإسكندرية والإثيوبية والسريانية والأرمينية والهندية وهى الكنائس الأرثوذكسية غير الخلقيدونية.

وعندما رفض بابا الإسكندرية هذه المقررات.. لم تتصور الإمبراطورية البيزنطية إمكانية وجود تعدد فى المذاهب أو الآراء أو الاتجاهات.. فتم حرمه ونفيه فى جزيرة حتى وفاته، وأرسلت تعليمات الإمبراطور إلى مصر.. (أما المخالفون الساكنون فى الإسكندرية وفى أقاليم مصر فإننا نأمر أن يعودوا تحت عذاب الملوك السالفين) وعددت حرمان المخالفين من كتابة الوصية أو الحصول على الميراث أو قبول الهدايا أو التصرف فى ممتلكاتهم وعدم تعمير كنائسهم ولا أديرتهم ومنع مجرد إجراء حوار معهم وتنتهى التعليمات (ومن خالف أمرنا فى المستقبل يعود تحت العذابات المذكورة)!.

وكانت الدفعة الأولى من الضحايا الذين قتلوا ٢٤ ألف مصرى معظمهم من الأساقفة والكهنة والرهبان، وقام الرومان بنهب كنائس القبط وقام الأقباط بثورة وقتلوا البابا الرسمى بروتيريوس وحرقوا جثته.

انضمت كنائس شرقية أخرى لموقف الكنيسة القبطية وأبرزها كنيسة أنطاكيا السريانية، ولكن لم يشهد الشرق صلابة فى المواجهة كتلك التى قام بها أقباط مصر، وبالتالى فإن مصر هى التى شهدت القسم الأعظم من مذابح واضطهاد الرومان. وفى عهد الإمبراطور يوستينوس الأول وصل عدد الضحايا إلى ٢٠٠ ألف قبطى.

وفى عهد جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) تم رفع شعار استبدادى «دولة

واحدة - قانون واحد - كنيسة واحدة» وتم استدراج البابا القبطى إلى القسطنطينية حتى تم اعتقاله، وفى هذا العهد صار الرومان يلقون بالمصريين فى مستوقدات الحمامات ليكونوا وقودا لتسخين مياهها. ويتردد أن هذا العهد أيضا شهد ما لا يقل عن مقتل ٢٠٠ ألف قبطى.

وفى العهد الأخير للسيطرة الرومانية على مصر.. فى ظل حكم هرقل وصل القمع إلى ذروته.. حتى اضطر البطريرك القبطى بنيامين الأول (٦٢٣ - ٦٦٢م) إلى الاختفاء فى صعيد مصر ١٠ سنوات بعد نصيحته لسائر أساقفة مصر بأن يختفوا.. وتم القبض على مينا شقيق بنيامين وتعذيبه إلى حد وضع المشاعل تحت جنبيه حتى خرج شحم كليتيه من جنبه وسال على الأرض وتم خلع أضراسه وأسنانه ثم أغرق فى البحر فى جوال ممتلىء بالرمل، وفى هذا العهد كان الضرب بالسياط والسجن والقتل ومصادرة ممتلكات وأوانى الكنائس واقتحام الأديرة وقتل من فيها من النساك عملا روتينيا.

فى تلك الفترة حل بالأقباط من الإذلال ما لا عهد لهم به من قبل فى كل العصور.

أما نتيجة كل ذلك فهى أن الأقباط حملوا لمضطهديهم من البيزنطيين ولكل ما هو بيزنطى كراهية عميقة وقد عبر الأقباط عن كل ذلك ليس فقط فى العقيدة الأرثوذكسية بل فى اللغة القبطية والأدب القبطى والفن القبطى.

لقد اتسعت الهوة بين الكنيستين القبطية والبيزنطية ولم يعد ممكنا تخطيها لقد ذهبت الخلافات إلى ما وراء حدود المعقول.

وكما يقول رشدى واصف بهمان : «يجب أن ننظر - لهذا الخلاف - على أنه إلى كونه موضوعا عقائديا إلا أنه تعبير خارجى عن نمو الاتجاهات القومية فى مصر ضد الإمبريالية البيزنطية المتزايدة».

والحقيقة أن الخلاف حول طبيعة المسيح بين الكنيستين فى حد ذاته لا يقرب إحدى الكنيستين إلى الرؤية الإسلامية. ولكن قرب الكنيسة المصرية والكنائس الشرقية عموما إلى المسلمين يرجع إلى الجدية الدينية.. إيمان بالآخرة وورع وتقوى وأخلاق والتزام بالشعائر.. وأخذ العقيدة مأخذ الجد.. وبالتالى عدم الخضوع لأوامر إمبراطورية لتغيير العقيدة.. مهما كانت التضحيات.. وأيضا التزام كنائس الشرق بما ورد فى الإنجيل من أن رسالة المسيح رسالة سلام ونبذ للعنف.. وعدم فرض الرأى والعقيدة بالقوة!.

فى الغرب نجد «الدين» حلية توضع على تاج السلطان أو الإمبراطور.. وجزءا من وجاهة وشرعية الملك، وسلاحا للسيطرة على الرعية! وسنجد أن هذه التوجهات ترعرعت أكثر على الأرض الأوروبية منذ مقررات خلقيدونية ٤٥١ حتى قيام الثورة الصناعية الحديثة فى القرنين ١٨، ١٩.

يقول البابا شنودة موضحا موقف الكنيسة المصرية من الغرب وحروبه المستمرة على مصر: «لا نقبل أية دولة كائنة من كانت أن تتدخل فى سياسة دولتنا ولن نجامل أية دولة وطوال تاريخنا منذ ما دعى بالحروب الصليبية التى أسميها بحروب الفرنجة لأنه لا علاقة لهم بالصليب كان موقفنا مع صلاح الدين الأيوبى ضد هؤلاء الفرنجة وأيضا أثناء حرب

الاستقلال الحديثة كنا كلنا نهدف إلى استقلال مصر ونقف ضد الاحتلال البريطانى رغم أن بريطانيا دولة مسيحية».

لو قفزنا سريعا من لقاء عمرو - بنيامين ثم الموقف من الحروب الصليبية.. إلى العصر الحديث.. سنجد الآتى:

فى عام ١٧٦٩ أرسلت كنيسة روما الكاثوليكية برسالة إلى الكنيسة المصرية تدعوها للاتحاد أو للانضمام تحت لواء روما، فرفض البطريرك القبطى تلك الدعوة فى خطاب اشتمل على أقسى أنواع العنف والسخرية.

فى ظل الحملة الفرنسية لم يجد الفرنسيون من الأقباط من يتعاون معهم إلا الجنرال يعقوب.. الذى كان منبوذا من الأقباط حتى إنه اضطر للرحيل مع قوات الحملة الفرنسية عن مصر. ومات قبل أن تصل سفينته إلى فرنسا!.

وكما شعر المسلمون بمخاطر الاحتكاك مع الغربيين.. سنجد البطريرك المصرى مرقص الثامن يحذر الأقباط من آثار الحملة الفرنسية قائلا:

ابتدأنا نتعلم عادات الأمم الغربية ولازمنا معاشرة فاعلى الشر وأبدلنا حب بعضنا بعضا بالعداوة وكل ذلك ونحن لا نرجع عن فعلنا الردىء.. وأما نحن الآن فمثابرون ليس على الأعمال الصالحة بل على ضد ذلك، عكسنا المقدمات كلها وأضعنا تدبير حياتنا فيما لا ينفع ولا يبنى، فلا الشيخ يستحى من شيخوخته ولا الشاب يشفق على شبابه ولا النساء تستحى من بعولتهن ولا العذارى من بتولتهن.

أما المعركة الحديثة الكبرى فى مواجهة الغرب فكانت فى القرن ١٩ ضد حملات التبشير التى قامت بها الكنائس الغربية حيث خاض البطريرك المصرى حملة كبرى لمنع القبط من إرسال أبنائهم إلى مدارس التبشير وأعلنت الحروم الكنسية ضد من يرسل أولاده إلى مدارس الإرساليات أو يزور مكتباتها أو يقرأ كتبها أو يصافى أو يصادق أحدا من المبشرين وعندما ذهب المبشر الإسكتلندى هوج متكئا على القنصل الأمريكى لمناقشة البطريرك المصرى فى هذه الحملة ضد التبشير، حيث قال هوج: إن مدارس التبشير لا تفعل أكثر من أن تعلم الإنجيل للتلاميذ.. وهنا استشاط البطريرك غضبا وقال بصوت عال:

«الإنجيل الطاهر! وهل الأمريكان وحدهم هم الذين عندهم الإنجيل؟ ولماذا لا يعلمونه لعبيدهم إذا كان عندهم؟ لماذا يذهب الأخ إلى الحرب ضد أخيه ـ مشيرا إلى الحرب الأهلية فى أمريكا ـ لماذا جاءوا إلى مصر بكلماتهم الناعمة الطيبة؟ إن الإنجيل عندنا قبلما تولد أمريكا فى الوجود إننا لا نحتاج إليهم ليأتونا ويعلمونا فنحن نعرف الإنجيل أحسن منهم».

وبدا واضحا موقف الكنائس الشرقية عموما والكنيسة المصرية خصوصا من رفض معاونة الغزو الغربى حتى إن المبشرين والمستشرقين أعلنوا أن الكنائس الشرقية والكنيسة القبطية ليس لدى أى منها خطة ولا برنامج لتبشير المسلمين، وأن قبط مصر فهموا واجبهم الأول كنصارى قوميين عرب وعزموا ألا يلعبوا لعبة مزدوجة وألا يتوسلوا إلى حماية الدول الأجنبية.. وهذا ما واصل اللورد كرومر الشكوى منه فى تقاريره الدورية للحكومة البريطانية واعترف بأن ما بين قبط مصر ومسلميها من الروابط يفوق بما لا يقاس ما بين مسيحيى مصر ومسيحيى أوروبا، ودل على

ذلك ما سجله من أن الأقباط لم يظهروا شعورا بالمصادقة تجاه المصلحين الإنجليز (يقصد الاحتلال البريطانى) وأن مبادىء هؤلاء «المصلحين» بدت أجنبية وبعيدة عن طبيعة القبطى.

## الموقف من إسرائيل :

الغزو الصهيونى لفلسطين ولمنطقة ما بين النيل والفرات.. هو الغزوة الصليبية المعاصرة (أو لنقل غزوة الإفرنج) فهى ثمرة تحالف يهودى - صهيونى - أمريكى لتحقيق الأهداف المشتركة لهذا الحلف.. وموقف الكنيسة المصرية بالنسبة لهذه الغزوة أمر محورى ومهم للغاية بالنسبة لنا.. وهنا سنجد فى عقائد الكنيسة مساحة مشتركة ضد بنى إسرائيل.. على عكس كنائس الغرب التى رفع بعضها لواء «المسيحية الصهيونية».

يقول الأنبا شنودة عن إسرائيل :

إن عهد الرب إلى إسرائيل لم يتم بسبب عدم طاعتهم له ودليل ذلك ما ورد فى سفر الخروج «أنا أفنيهم»، لأن وعد الله لهم كان مشروطا وقد خالفوا شرطه ونقضوا عهد الله معهم بعد أن ائتمن شعبهم على الإيمان ليحفظه بعيدا عن عبادة الأصنام. وصل الأمر بشر هذا الشعب أنهم وقعوا جميعا فى عبادة الأصنام.

لقد اختير الإسرائيليون شعبا لله على شرط تنفيذ وصاياه، فلما لم ينفذوها لم يعودوا شعبا مختارا، وهم ليسوا أولاد إبراهيم لأن العبرة بالنسل الروحى لا بالنسل الجسدى، وقد أسماهم سفر الرؤيا «مجمع الشيطان»، ورفضهم الله لشرورهم كما رفضهم السيد المسيح، وبلغ غضب الله عليهم أن رفض شفاعة الأنبياء فيهم، إن مملكة إسرائيل فى المسيحية مملكة سماوية وقد رفض السيد المسيح ملك الأرض. والشعب

المختار فى المسيحية هو جميع المؤمنين بالله. ونحن لا نعترف باليهود كأصحاب ديانة قائمة، فمن الناحية الدينية كانت اليهودية ممهدة للمسيحية، فلما أتت المسيحية لم يعد لليهودية وجود كديانة قائمة بذاتها.

ويقول الأنبا شنودة : «إن مصر بالنسبة لليهود كانت أرض عبودية لهم ذلوا فيها بسبب خطاياهم وأن سيناء كانت لهم أرض متاهة وأرض عبور وأرض عقوبة أما فلسطين فكانت لهم سكنا مؤقتا كمعزل دينى» ويذكر أن فكرة العزل الدينى قد استوفت وقتها وانتهت «انتهى دور اليهود كمجموعة تحمل الإيمان وأصبح الإيمان فى وقتنا الحاضر والإيمان بوجود الله - أصبح الإيمان بوجود الله فى كل ركن من أركان الأرض، ولم يعد من المعقول ولا من الممكن أن نجمع المؤمنين بالله من أرجاء العالم كله ومن كل القارات لكى نضعهم فى أرض معينة».

ويقول الأنبا غريغوريوس بناء على هذا الموقف إن فلسطين لعرب فلسطين سكانها الأصليين قبل أن يسكنها اليهود بآلاف السنين، ثم تحدث عن اعتداءات دولة إسرائيل المتكررة على الكنائس والأديرة والمقدسات المسيحية منذ إنشاء هذه الدولة فى ١٩٤٨، إذ دمروا فى ذلك العام وحده أكثر من ثلاثين ديرا وكنيسة ومعهدا، وقتلوا عددا من رجال الدين.. إن عداوة اليهود للمسيحيين منذ نشأة المسيحية عداوة أصيلة وقائمة والمسيحى هو لليهودى العدو رقم ١.

ويذكر الأنبا يؤانس أن إسرائيل الحالية لا علاقة لها بإسرائيل القديمة التى وردت بالكتب المقدسة بل هى عصابات صهيونية تمثل حركة استعمارية فاشية عنصرية تقوم على مذهبية ترتكز على الاستغلال

والعدوان وتستند إلى نظريات التوسع والسيطرة وتستخدم العنف فى وسائل تطبيقها وممارستها كأداة لتحقيق أغراضها، وقد وصفهم السيد المسيح قائلا : «يا أولاد الأفاعى، أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا».

وقد وقفت الكنيسة المصرية فى الستينيات ضد ما قررته بابوية روما من تبرئة اليهود من دم المسيح، وأعلن الوفد القبطى المراقب فى مجمع الفاتيكان فى ديسمبر ١٩٦٣ أن نقاط الالتقاء بين الإسلام والمسيحية أعظم من نقاط الالتقاء بين اليهودية والمسيحية، وساق الأنبا غريغوريوس - رئيس الوفد - دليلا على ذلك أن المسلمين يؤمنون بالتوراة والإنجيل وأنهم يؤمنون بالمسيح وأنهم يكرمون مريم العذراء وذلك كله مما لا يقبله اليهود.

وانتقدت المطبوعات الصادرة عن الكنيسة المصرية موقف الكنيسة الغربية المساند لإسرائيل عندما أصدرت وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح، وأعطت بذلك الدول التى يهمها مناصرة إسرائيل سياسيا وعسكريا كل التفويض للقيام بما يكفل تعويض اليهود المشلين فى إسرائيل عن تجنى الكنيسة السابق وهذا موقف يراه أحد كتيبات الكنيسة مدانا أمام الله وأمام العالم ولا يسعنا الآن إلا أن نقول إن الكنائس الغربية مسئولة عن مشروعية مساندة إسرائيل عسكريا، ثم ذكر أنه «من المقطوع به أن هاتين الحكومتين (بريطانيا وأمريكا) لا يهمهما شىء فى الوجود لا الكنيسة ولا الدين ولا الأخلاق ولا الضمير بل ولا المسيح فى سبيل تنفيذ مخططهما الاستعمارى» وإسرائيل تستند إلى الشيطان والباطل لا إلى الله والحق.

«إن الضمير الانجلو أمريكى لا يزال تتحكم فيه عوامل بربرية ورثها من العصور الوسطى ولاتزال تتردد فى جوانبه أصداء الحروب الصليبية».

●●●●●

## آثار حقبة التبعية على العلاقات بين المسلمين والأقباط:

بعد أكثر من عقدين من الزمان عانت فيها مصر من سياسات التبعية لطواغيت الأرض (الأمريكان - واليهود الصهاينة) وكما أدى ذلك إلى سقوط المسلمين فى هوة الموالاة (التبعية)، وما أدى إليه ذلك من اختراق النفوذ الصهيونى - الأمريكى لصفوف المصريين المسلمين.. فإن ذلك الاختراق حدث بالطبع وبدرجات متفاوتة فى صفوف الأقباط.. وقد أدى ذلك إلى تدهور العلاقات بين المسلمين والأقباط لأن المناخ الوطنى الصحى الذى كان يجمعهما.. تبدد إلى مناخ بالغ السوء.. وتقع المسئولية بطبيعة الحال على عاتق حكام البلاد فى المقام الأول.

وقد بدأت البذرة فى عهد عبد الناصر.. حيث فكر الأمريكان - ضمن باقى خططهم فى كيفية اختراق المجتمع المصرى - بـ «ورقة» الأقباط.. وفتحوا باب الهجرة بشكل متميز وخاص لهم ليس إلى الولايات المتحدة فحسب ولكن إلى باقى دول الأنجلوسكسون (كندا - أستراليا).. وبدأوا يعطون لهم أولوية فى قبول الإقامة والجنسية على أساس أنهم فئة مضطهدة.. وقد عبر أحد الكتاب الأمريكيين عن الاستراتيجية الرسمية بقوله إن هناك أملا فى ظهور راهب من أحد الكهوف المنعزلة فى الصحراء يتخذ مسوح المخلص.

وفى إطار هذه الهجرة تمكنت الولايات المتحدة من استقطاب أقلية أحاطتها بكل الرعاية.. وكذلك أقامت هذه الأقلية جسورا مع اليهود

والصهـاينة فى أمريكا وإسرائيل. . وبـدأت هذه الظاهرة تثمر مـا يسمى مجـموعة أقبـاط المهجر المعـادين للنظام المصرى باعتـباره نظاما إسلامـيا متـعصبا!! واللافت للنظر أن المؤلـف الأمريكى المشار إليه كـتب فى عام ١٩٦٣ وكـأنه يروى ما حـدث فى مصـر عام ١٩٩٨. . عن اسـتغـلال الإعلام الخارجى فى الضغط على النظام المصرى فقال:

«إن القبط بإقامتـهم الروابط مع التيار الأساسى للمسيـحية فى العالم، ومع تنمية انتماءاتهم الدولية، يجعلون من الصعب على أى نظام مصرى أن يتعرض لهم بغـير أن يتعرض هذا النظام لردود فعل قـوية، وبقدر ما تهتم الحكومة المصـرية بالدعاية الخارجية، يجب على الأقبـاط أن يهتموا بهذا السـلاح الاحتياطى فـإن خطبة واحدة تظهـر شكاوى القبط فى أى اجتماع دولى، وتصطحب بالتغطية الصحـفية المناسبة، لقادرة على جذب اهتمام عبد الناصر إلى صيحات القبط فى بلده».

إن اسـتغـلال أحداث الكشح الذى وقع عـام ١٩٩٨ من قبل أمـريكا والأقلية القبطية فى المهجر التـابعة لها. . وحالة الفزع التى أصابت الحكم فى مـصر من هذه الحـملة المعـادية. . توضح إلى أى حـد قطع المخطط الأمريـكى شوطا خطيـرا (حادث قـرية الكشح كان عـبارة عن تعـذيب مارستـه الشرطة على مواطنين أقبـاط بحثا عن جان قبـطى، فهو يندرج تحت حالات انتـهاك حقوق الإنسـان وليس له أساس طائفى، ومع ذلك فقد حوله الإعلام الأمريكى. . الإنجليزى إلى اضطهاد طائفى).

إن الأجواء المسمومـة التى عاشتها مصر فى أعقـاب كامب ديفيد أدت إلى اندفـاع الحكام والمحكـوميـن. . المسلمـين والأقـبـاط. . فى شـبكة العلاقات الخاصة مع أمريكا والغرب. . ثم مع اليهود وإسرائيل. . وقضية

الارتباط بعلاقة خاصة مع أمريكا أصبحت مسألة «مشروعة» من الناحية السياسية ومطّروحة على المجتمع بأسره. . وقد أدى هذا لإفساد المسلمين والأقباط على حد سواء تجاه قضاياهم الوطنية والقومية والدينية. وقد أشار د. ميلاد حنا منذ وقت مبكر ١٩٧٩ إلى هذا الاحتمال عندما كتب يقول:

إن هناك طريقين يتجاذبان أقباط مصر، الطريق الأول: وليس بالضرورة هو الأصوب - طريق تشده فكرة القومية المصرية والانتماء الفرعونى، ويرى الارتباط مع الغرب فيه مصلحة لمصر، باعتبار أن الدول الغربية تدافع عما أسماه تشرشل (حضارتنا المسيحية). ويرى هذا الاتجاه أن البعد عن العرب فيه ضعف للإسلام وبالتالى عدم سيطرة التيار الدينى الذى يخشاه الأقباط ويرقبون حركته فى حذر وترقب. وهذا التيار متعاطف مع ما يسمى (السلام مع إسرائيل) ويرى فيه أيضا قبولا لمبدأ التعدد فى الأديان، ومن ثم يسمح بنشاط وتواجد التيار الدينى المسيحى. . . ونلمس جميعا كيف تتم الاستفادة من هذا التيار فى الممارسة اليومية للحركة السياسية، ويشير د. ميلاد حنا إلى الطريق الآخر. . وهو الطريق التقليدى والتاريخى للأقباط ضد إسرائيل والاستعمار وارتباط الأقباط بمسلمى مصر وقضايا العروبة.

والملاحظ أن مرور ٢٠ عاما على هذا التحليل. . يؤكد أن التيار الأول المتغرب حقق قدرا من التقدم يثير القلق، وفى تقديرى أنه الأخطر فى تاريخ مصر المعاصر. ويحتاج لجهد مكثف من النخب الواعية المسلمة والقبطية لتجاوزه، وقد ساهم فى تعقيد القضية الأطراف الثلاثة:

١ـ سياسات الحكومة.

٢ـ بعض مواقف الحركات الإسلامية.

٣ـ بعض مواقف وسياسات الكنيسة.

ونكتفى الآن بجوانب القضية المتعلقة بعلاقتنا بالغرب والولايات المتحدة (موضوع هذه الدراسة).. التى نحددها فى النقاط التالية:

**١ـ استطالة أمد الحكم العلمانى:**

عملية الفصل بين الدين وكل من السياسة والتعليم والتشريع والحياة عموما بدأت بالفعل كعملية طويلة معقدة قبل الاحتلال البريطانى لمصر وتواصلت خلال فترة الاحتلال.. أما ثورة يوليو - فبرغم مواقفها الوطنية والقومية - إلا أنها لم تقطع استمرار هذا الخط العلمانى.

وبالتالى فإن طرح إعادة البناء الإسلامى للحياة السياسية والاقتصادية والتشريعية والتعليمية للمجتمع.. أصبح أشبه بالانقلاب الثورى العنيف.. بينما نشأت أجيال من المصريين مسلمين وأقباط لم تعش بنفسها خبرة الحياة فى نظام إسلامى حيث للإسلام المرجعية الدستورية والشرعية للحكم.. وإذا كان الحكام وشرائح من المسلمين أنفسهم.. تنظر بقلق وتوجس إلى عودة هذه المرجعية.. بسبب نقص الثقافة الإسلامية على أحسن الاحتمالات والفروض.. فمن باب أولى أن نتخيل أجيال الأقباط التى نشأت فى ظل النظم العلمانية.. ويتم إرهابها وتخويفها من مخاطر الحكم الإسلامى.

وقد كان للحلف الصهيونى الأمريكى دور خطير فى إذكاء هذه النغمات من خلال الحملات الإعلامية.. والتدخل فى مناهج التعليم..

والتشـريعات. . فلـم يعد من قبـيل الأسرار الآن أن نقـول إن الولايات المتحدة هى التى ضغطت على الرئيس المصرى السابق لوقف عملية تقنين الشريعة الإسلامية والتى كانت قد قطعت شـوطا كبيرا فى مجال الصياغة والإعداد فى مجلس الشعب.

**٢- مواقف بعض الحركات الإسلامية:**

طرحت بعض الفصـائل الإسلامية خـلال مراحل سابقة مـواقف بالغة التشدد تجاه الأقـباط مستقاة من بعض أحكام الفقـه الإسلامى فى عصور محـددة، وخارج سيـاق وظروف هذه الأحكام. . وكمـا يقول المستـشار طارق البشـرى : (إنه يتوجب التمـييز الواضح بين الـنصارى المواطنين، والحربيـين من أهل الكتاب، سواء فى المواقف التـاريخية أو الحـالية وهو تمييز يفتقـد كثيرا فيما يكتب فى الأدبيات الآن. وفقـدان هذا التمييز من شأنه إشـاعة الكراهيـة تجاه فـريق من أبناء الوطن بغـير مسـتند من واقع تاريخى، ولكن الحـاصل أن بعضـا من الجمـاعات يستـبد بهـا الغلو أو يخضع بعضها لما لا يعـرف من المؤثرات، لإشاعة الكراهية ضد المواطنين من غير المسلمين، وهذا جهاد فى غير مـيدانه، وتوجيه للكراهية إلى غير مستحقها وصرفها عمن يستحقها من الأعداء الحقيقيين للوطن والإسلام، وشغل للناس بغير الحقـيقى من الأخطار شغلا لا يقف ضرره عند ذلك، ولكنه يمـتد إلى المساهمـة فيـما يراد من خلق الصـراع خلقا بين فـئات الشعب بعضها وبعض).

**٣- مواقف الكنيسة والنخبة القبطية :**

تأثرت النخبة الـقبطية كما تأثرت النخـبة الإسلاميـة. . بمناخ التغريب والتبعية وهذا فى إطار الخيارات السيـاسية والفكرية، أما بالنسبة للمواقف

الكنسية فلا يمكن أن نقول إن الكنيسة قد أصدرت وثائق أو بيانات تخالف ثوابت الكنيسة المصرية. . ولكن الأوضاع العامة للمؤسسة الكنسية لم تجعل الكنيسة فى أقصى درجات حيويتها الفكرية والسياسية. . وتعانى المؤسسة الكنسية من تراجع المناخ والتقاليد الديمقراطية العريقة بها. . والضيق بتعدد الآراء أو تعدد الأقطاب الدينية. . وفى العقدين الماضيين قامت الكنيسة بدور غير مسبوق فى التاريخ الحديث بتحويل المؤسسة الكنسية إلى مؤسسة شبه حزبية. . لها توجهات فى الانتخابات العامة والنقابات ومحاولات استيعاب طاقات الشباب القبطى داخل أنشطة الكنيسة بدءا من الدروس الخصوصية والنشاط الرياضى والرحلات إلى الدروس الدينية. . وبذلك تقلصت إلى حد بعيد نقاط التماس والالتقاء بين الشباب القبطى والمسلم. . وبالتالى فإن آليات الامتزاج الحضارى أصبحت محاصرة أو معطلة. . وبالتالى أصبح النموذج المصرى الحضارى مهددا، أما بالنسبة للموقف الرسمى من اليهود وإسرائيل فهو لا يزال ثابتا. . ويذكر للأنبا شنودة موقفه الحاسم من التطبيع مع العدو الصهيونى، أما علاقة الكنيسة بالكنائس الغربية فلم تعد بالصرامة والوضوح السابقين بعد إنضمامها (أى الكنيسة المصرية) إلى مجلس الكنائس العالمى.

ورغم كل ذلك فإن الحد الأدنى من الثوابت لا يزال متوافرا. . ونذكر البيان التاريخى الذى وقعه عدد كبير من أبرز مثقفى أقباط مصر اعتراضا على قانون حماية الأديان الذى صدر فى الولايات المتحدة.

ولكن كان لابد من الإشارة إلى بعض التعقيدات التى نشأت فى العقدين الماضيين على هذه الجبهة وهذه لن تحل بدون مواجهة وفتح

مناقشات مبدئية واسعة لإعادة الوعى المصرى إلى حالته ومستواه الحضارى المعهـود. . ولا نترك المشكلات تتفـاقم استنادا إلى الرصيـد التاريخى. . فهذه غفلة لا يقبلها الله. . ولا يرحمها التاريخ.

كما ذكـرنا، فإن موضوع الوحدة الوطنيـة المصرية من منظور إسلامى محل دراسة منفصلة، ولكن كان لابـد من هذا الفصل فى سياق دراستنا الحاليـة. لتوضـيح الفارق الجـوهرى والحاسم فى الموقف الإسـلامى تجاه مواطنى الدولة الإسلامية من أهل الكتاب الذين يتـمتعون بحقوق المواطنة الكاملة والمعاملة معهم بالبر والقـسط بالمقارنة مع أهل الكتاب الحربيين. . وهم الأعداء الذين نزلت فى حقهم أحكام تحريم الموالاة.

●●●●●

الفصل السادس

# سيرة الرسول
# والتطبيع مع اليهود

# ليس معقولا أن يقوم الأزهر بتنشيط التطبيع مع العدو اليهودى الصهيونى(*)

«الجبن والعجز والسفه». . «أحتقر آراءهم». . «لا يقوله عاقل». . «منطق الجبناء الأذلاء العاجزين»!!

هذا هو القاموس الذى لجأ إليه فضيلة شيخ الأزهر. . لا لمخاطبة إسرائيل وحاخاماتها. . ولكن فى رده على جمهرة من علماء المسلمين والمفكرين من مختلف التيارات السياسية فى مصر الإسلامية. . وما كنا نرغب أو نتوقع من فضيلته أن يكون هذا هو قاموسه فى الحوار مع مخالفيه فى الرأى. . وفى قضية مصيرية. . تتعلق بمواجهة العدوان الإسرائيلى. . واغتصابه للقدس. . فكما ذكرنا فإن شيخ الأزهر ليس ملكا لنفسه. . ويجب أن يتحلى بالحلم والصبر. . وأن يكون قدوة فى آداب الحوار الإسلامى. . حتى يتعلم الشباب الإسلامى المتحمس منه هذه الفضائل. . وليس من حق شيخ الأزهر أن يتخذ قرارا فرديا بإجراء ما أسماه «حوار أديان» مع اليهود الصهاينة المحتلين. . ولابد من إيجاد آلية للشورى داخل هذه المؤسسة العتيدة. . فحتى لو كان منصب شيخ الأزهر

---

(*) جريدة الشعب ٢٦/١٢/١٩٩٧.

هذا المقال توطئة للدراسة التالية، ويتضح منها التقييم الموضوعى لتحسن الموقف الحكومى المصرى من مسألة التطبيع مع العدو الصهيونى على ضوء مقاطعة قمة الدوحة الشرق أوسطية ومقررات القمة العربية لعام ١٩٩٦، وهو ما يعكس أننا لم نكن ندين الحكام بصورة دائمة، ولكن موقفنا منهم على أساس المبادىء الشرعية، ومدى اقترابهم أو ابتعادهم عنها أما الآن فى عام ٢٠٠٣/٢٠٠٤ فان الوضع بالغ السوء من زاوية اصرار حكام مصر على موالاة الحلف الصهيونى - الأمريكى.

بالتعيين حتى الآن . . إلا أن الهياكل الداخلية لمؤسسة الأزهر يجب أن تعمها الشورى . . خاصة عند اتخاذ مواقف أساسية «كالحوار مع العدو» . .

لأن معنى حديث شيخ الأزهر . . عن الجبن والعجز والسفه . . لكل من رفض موقفه . . ووصف مخالفيه فى الرأى . . بأنهم غير عقلاء . . وأنه يحتقر آراءهم . . معنى هذا الحديث أن كل من تولى قيادة مشيخة الأزهر من قبله . . ورفض مقابلة الأعداء الصهاينة . . تنطبق عليهم هذه الأوصاف المشينة . . وهذا ما لا نقبله فى حق شيخ الأزهر الحالى .

ونحن فى صحيفة «الشعب» التزمنا فى خلافنا (حول هذه القضية المصيرية) مع شيخ الأزهر آداب الحوار الإسلامى . . ولم نوجه له كلمة نابية . . ولم نتطاول عليه . . كما قال بعض الموظفين العاملين لدى فضيلته . . بل وأدنا أى محاولة لهذا التطاول .

ونقول إن اللدد فى الخصومة ليس من أخلاق الإسلام . . ولكن شيخ الأزهر يصر فى تصريحاته لمجلة المصور على أنه سيواصل لقاءاته مع ألف حاخام يهودى! وهذه مسألة يرفضها الشارع الإسلامى والوطنى .

ونحن نذكر فضيلته بموقف البابا شنودة بمقاطعة إسرائيل . . ونذكر فضيلته بالمواقف الأخيرة للحكومة المصرية تجاه مؤتمر التطبيع فى الدوحة . . ونذكر فضيلته بمواقف رجال الأعمال المصريين الذى توقفوا عن التعامل مع العدو الإسرائيلى . . وهل يرى فضيلته أن هذه المواقف بدورها من قبيل العجز والسفه والجبن . . وأنها لا تصدر عن عاقل أو أنها تستوجب الاحتقار؟!

ويتحدث شيخ الأزهر.. عن قدرته على إخراس وإسكات وردع وتأديب أى حاخام يخطىء فى الحديث معه.. والحقيقة أن مشكلتنا مع إسرائيل.. ليست فى المبارزات الكلامية، أو حوارات الديوك ـ على حد تعبير فضيلته ـ أو إلزامهم الحجة.. ولو كانت مشكلات الأمم المتحدة تحل بهذا الطريق.. لانتهت مشكلات العالم خلال أسبوع واحد.

وإنما تحل مشكلات الأمم بامتلاك القوة والعزة والمنعة.. **﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾**.. ونحن إزاء صراع عقائدى رهيب مع هذا الكيان العدوانى نحسب ألا مثيل له فى العالم.. بل هو محور الصراع العالمى.. وإن إجراء حوارات مع العدو الغاصب المحتل تحت شعار «حوار الأديان».. وتحت إشراف رئيس دولة أوروبية لا يحقق شيئا إلا تمييع قضية صراعنا الرهيب مع هذا العدو المسلح بأفتك أسلحة الدمار.

إن الاحتماء بالسيرة النبوية الشريفة.. لا يجوز إلا باتباع القياس الدقيق.. ومقارنة الظروف.. وهذا ما يتطلب من القائد الإسلامى أن يكون على دراية كافية بتحليل الأوضاع السياسية.. حتى يستطيع أن يقتبس من وقائع السنة النبوية الشريفة.. ويقيس عليها.. لاتخاذ موقف صحيح.

فقد عشنا فى السنوات القليلة الماضية نواجه مخططا خطيرا.. وهو اقناعنا من خلال النظام العالمى.. بتقبل إسرائيل الكبرى.. ومن هنا نشأ مصطلح «التطبيع» و«السوق الشرق أوسطية».. وذلك بمنطق تقبل الأمر الواقع.. وأن إسرائيل أقوى من العرب والمسلمين.. ولذلك كانت

مقاومة التطبيع موقفا عقائديا وسياسيا صحيحا . . لوقف تسرب السم إلى جسد الأمة.

وإذا كانت مؤسسات الدولة نفسها قامت فى الآونة الأخيرة بتحفظات كبيرة . . على كثير من عمليات التطبيع . . وفى هذه اللحظة بالذات . . يخرج علينا شيخ الأزهر . . باكتشاف أهمية الحوار مع العدو وإلزامه الحجة!! وكان هذا هو ما توهمه السادات حين ذهب إلى الكنيست عام ١٩٧٧ . . فسمع هناك ما لا يرضيه. أما الآن فيجب تشجيع الدولة على تصليب مواقفها . . وإعطائها أبعادا شعبية وعقائدية.

لقد كان ـ ولا يزال الآن ـ واجبا عقائديا . . أن نسد كل المنافذ على تسرب السم . . الذى يأخذ قيام الصهاينة بملاطفتنا . . واختراع أشكال للحوار . . فى كوبنهاجن والأزهر!! وهم لا يهدفون من ذلك إلا تكريس مفهوم الأمر الواقع . . وأن نتعامل مع إسرائيل الكبرى كما هى . . وبالتالى فإن رفض هذه اللقاءات . . هو الموقف الشرعى الصحيح . . ومحاصرة مبنى السفارة الإسرائيلية . . حتى يصاب الدبلوماسيون الصهاينة بحالة من الاكتئاب النفسى كما حدث لبعضهم بالفعل . . هذه المحاصرة فرض عين . . لا يجب أن يتخلى عنه شيخ الأزهر . . وبينما لا يجد السفير الإسرائيلى من يقابله إلا أشخاصا معدودة . . رأى شيخ الأزهر أن ينضم لهذا النفر المحدود . . فأى خيار هذا؟!

إن التكتيك الإسرائيلى . . هو الإكثار من هذه اللقاءات . . لكسر الاحساس بالعداوة بصورة ظاهرية . . بينما هم يتمسكون بكل الأراضى

المغتصبة وعلى رأسها القدس.. وعندما نقع فى هذه الخديعة.. بعد ٣٠ سنة من احتلال القدس.. فهنا ينطبق علينا قول الله عز وجل ﴿ **هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ** ﴾.. ولا أريد الاستفاضة فى شرح الوضع السياسى لعلاقتنا مع إسرائيل.. حيث أصبح الأمر واضحا لجمهرة الأمة.. ولكن شيخ الأزهر فيما يبدو لايزال يعيش فى أجواء ما قبل الدوحة.. وما قبل مؤتمر القمة العربى فى يونيو ١٩٩٦، بل إنه ربما عاد لأجواء مبادرة زيارة السادات للقدس!

وفى هذا المجال لا يصح القول بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد التقى باليهود.. لإبلاغهم بالدعوة.. هذا موضوع آخر لا يتعلق بما نحن فيه الآن.

لا وجه للمقارنة بين وضع يهود الجزيرة العربية ـ وقد كانت قبائل كغيرها من القبائل ـ ويهود إسرائيل .. الذى شطروا الأمة العربية إلى نصفين.. ويمثلون أكبر تهديد عسكرى للأمة العربية الإسلامية.. بالتحالف مع القوى العظمى.. وتقوم سياستهم على فرض توسعهم الاستيطانى بقوة السلاح!

ولا يصح التعامل مع السنة النبوية الشريفة بمنطق انتقائى.. وبدون فهم ظروف كل واقعة.. لأننا سنجد فى السيرة النبوية الموقف وعكسه.. ولا يمكن إدراك الانسجام بين الموقفين إلا بفهم ظروفهما.. فالرسول عليه الصلاة والسلام.. رفض فى ظروف مشاركة غير المسلمين فى القتال ضد المشركين.. ولكنه وافق فى ظروف أخرى (شرحت ذلك فى دراستى

«أزمة الخليج بين أحكام القرآن وفتاوى السلطان»). وبالنسبة لموضوعنا هذا.. فاليهود كانوا جزءا من رعايا المدينة.. وميثاق المدينة (أشبه بدستور اليوم) أكد حقوق المواطنة السياسية المتساوية بين أهل المدينة من المسلمين واليهود.. وحيث كان يهود بنى قنينقاع حلفاء الخزرج، وكان يهود النضير وقريظة حلفاء الأوس!

فما وجه الشبه بين اليهود من المواطنين.. ويهود غاصبين.. اليهود الغاصبون هم أهل كتاب محاربون ينطبق عليهم قول الله عز وجل..

**﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.**

هؤلاء لا تنفع معهم سوى لغة السيف.. ولا تصح موالاتهم بادعاء وجود قضية مشتركة معهم كمواجهة الإرهاب!! الأمر الذى يستدعى دراسة فقهية حول هذا الموضوع.. تربط الأحكام بالوقائع السياسية.. وحتى لا تستخدم وقائع فى سيرة الرسول فى غير موضعها.. وللدفاع عن مواقف خاطئة.

وأخيرا لقد أصابتنا الحيرة من موقف شيخ الأزهر من العمل السياسى.. فهو الذى صرح مرارا بأنه لا يعمل فى السياسة وأن السياسة من اختصاص الحكومة.. وهو موظف يعمل لديها (حديث سابق للمصور).. ونرى أن مقابلة الحاخام الأكبر لإسرائيل من صميم العمل السياسى.. وليست مسألة دينية كما يقول فضيلته.. ولذلك نحن ننصح فضيلة الشيخ بأن يعين مستشارا سياسيا له.. أو مجموعة من المستشارين وفقا للتخصصات المختلفة.

نعم نحن نؤمن بأنه لا فصل بين الدين والسياسة.. ولكن الفصل تم فى الماضى بشكل مؤسسى وأدى إلى نقص معرفة كثير من السياسيين بشئون الدين.. ونقص معرفة كثير من رجال الدين بشئون السياسة.. وليس عيبا أن يتم تدارك هذا الصدع بعمل مؤسسى يجمع بين الطرفين، خاصة وأن شيخ الأزهر يصر على أن السياسة ليست من اختصاصه.. فمثلا عندما سألته الزميلة سناء السعيد.. عن التزوير.. رفضه..فقالت له: «معنى هذا أن مجلس الشعب يصبح باطلا عندما تحكم محكمة النقض ببطلان عضوية ١٧٠ من أعضائه؟»، فقال: (كون محكمة النقض أو غير محكمة النقض قد حكمت فهذه مسائل يسأل عنها أهل الاختصاص ولا يسأل عنها شيخ الأزهر)!!

●●●●●

وأخيرا نحن لا نريد ردا صريحا من فضيلة شيخ الأزهر.. ولكن ندعو الله أن يشرح صدره.. وأن يقرر بينه وبين نفسه.. التوقف عن مقابلة الإسرائيليين.. مدنيين وحاخامات ودبلوماسيين.. وأن يستشير أهل الفكر السياسى ممن يثق بهم.. وممن هم أهل للثقة.. فى مثل هذه الأمور.

**﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾** صدق الله العظيم.

# الرسول كان أول قائد لمقاومة التطبيع ومحاربة الكيانات اليهودية المعتدية(*)

لايزال الشيخ طنطاوى يستصدر البيانات المؤيدة لموقفه.. الذى يؤكد مواصلة اللقاءات مع السفير الإسرائيلى.. ومع حاخامات إسرائيل.. بل أعلن فضيلته أنه مستعد لمقابلة نتنياهو.. وأنه مستعد للسفر هنا أو هناك.. وأشار على الفور إلى سفر السادات إلى القدس.. وبما يعنى أن فضيلته يشير إلى احتمال سفره إلى إسرائيل.. وقال سيادته إن الذين عارضوا سفر السادات لإسرائيل ولاد «...» (راجع الشريط.. ولا أريد تكرار ما لا يليق أن يذكر فى أى مجلس .. ناهيك عن مجلس شيخ الأزهر).

ومن الواضح أننا لسنا أمام هفوة أو كبوة.. بل نحن أمام تصميم مع سبق الإصرار والترصد.. لمواصلة التطبيع مع المؤسسات الصهيونية الدينية.. وكأن شيخ الأزهر يريد أن يسير فى اتجاه معاكس لاتجاه الدولة والمجتمع والشعب.. فالدولة بكل مؤسساتها الرسمية لم تعد تشجع التطبيع مع العدو الصهيونى.. وتحصر الاتصالات معه فى أضيق الحدود الدبلوماسية والسياسية.. وعلى رأس ذلك الرئيس مبارك الذى قال إنه ليس على استعداد لاستقبال نتنياهو إلا إذا كان لديه جديد.. فى نفس اللحظة التى يعلن فيها شيخ الأزهر استعداده لاستقبال ذاك اللئيم بدون شرط.. ونحن من أكثر المشجعين على أن تكون مؤسسة الأزهر مستقلة

(*) جريدة الشعب ٣٠/ ١٢/ ١٩٩٧

عن السياسة الحكومية.. ولكننا نقصد الاستقلال فى الخير، وليس فى الشر!!

وتكاد المواقف المعلنة لشيخ الأزهر.. أن تدفعنا إلى أن نطالب الحكومة بأن ترشد مواقف فضيلته.. حتى لا تتأثر هيبة الأزهر.. لأن الأمة ستكون هى الخاسرة فى النهاية.. فالأزهر لم يؤسس من أجل إجراء المفاوضات مع العدو.. وحتى إذا اضطرت الحكومات للتفاوض معه.. فلا يحق ذلك لهذه المؤسسة التى يفترض فيها أنها ترعى المقدسات.. وتدافع عن الثوابت.. ولا تنجر إلى شئون السياسة اليومية.. حقا لقد كان الأزهر - قبل الفصل بين الدين والسياسة - مركزا للقيادة الشعبية الشاملة (سياسيا ودينيا).. ولكنه كان دائما مركزا للجهاد.. والتصدى للعدوان على مصر.. وعلى أمة العرب والمسلمين.

**قيادة الأزهر والسياسة:**

وإذا أرادت قيادة الأزهر اليوم أن تقتحم مجال العمل السياسى.. فلتفعل ذلك بشكل منسجم.. فتقاوم الفساد والظلم والتزوير.. وتقاوم الفرقة بين العرب والمسلمين.. ولتقاوم الحكام الذين يحاربون الإسلام فى أى مكان من العالم الإسلامى.. ولتحدد موقفها من مفهوم (موالاة الكفار والمشركين) القرآنى.. فى آواخر القرن العشرين.. لا أن يقول شيخ الأزهر ردا على سؤال حول المخططات الإسرائيلية تجاه مصر إن (الذنب ذنبنا.. وأننى إذا استمعت إلى التآمر الإسرائيلى ونفذته أكون حمارا) فإذا كان من يفعل ذلك حمارا.. فإن هذا لا يغنى شيخ الأزهر

عن توصيف وتحليل وتشخيص طبيعة الهجمة الصهيونية ـ الاستعمارية على بلادنا.

نحن لا نريد أن تدخل قيادة الأزهر السياسة.. من الباب الخلفى.. أى من باب الألعاب الدبلوماسية الصغيرة مع العدو.. التى لم تنهض بها أمة.. ولم يحقق بها إنجاز لأى شعب.

وإذا كان لشيخ الأزهر أن ينخرط فى السياسة فليذهب إلى جبهة القتال فى لبنان.. ليرفع من معنويات المجاهدين ضد الاحتلال الإسرائيلى (كما فعل د. عصمت عبد المجيد الأمين العامة لجامعة الدول العربية).. لا أن يفتح أبواب الأزهر للصهاينة.. كى يقول لهم.. أنتم غلطانين.. «فنحن نحارب الإرهاب قبلكم».

من الواضح أننا لسنا أمام هفوة أو كبوة.. فقد ذكر بيان صادر عن الأزهر.. أن التفاوض مع اليهود فريضة دينية.. وكأنها هى الفريضة الغائبة.. وهذا ما لم يسمع به أحد فى الأولين أو الآخرين.

من الواضح أننا لسنا أمام هفوة أو كبوة عارضة.. فقد أعلن حاخام إسرائيل فور عودته إلى القدس المحتلة أنه اتفق مع الشيخ طنطاوى على تطبيع العلاقات الدينية بين الأزهر والمؤسسة الدينية للدولة العبرية، وأنه جرى التحضير لعقد لقاء بين «علماء» المؤسستين يستهدف دعم عملية «السلام» والتصدى للإرهاب، وزعم الحاخام أن الشيخ طنطاوى وعده بزيارة إسرائيل!!

وقالت مصادر دبلوماسية لـ«الشعب» إن الحاخام الصهيونى جاء للقاهرة

خصيـصا بتكليف من رئيس وزراء العدو بنيامين نتنيـاهو لإقناع القيادات الدينية والسيـاسية بمصر بأن المؤسسـة الدينية الإسرائيلية ليـست متطرفة، وإنما تتبنى مطالب عقائدية تمثل حقوقا لليهود فى فلسطين.

وتشير تقارير السلطة الفلسطينية ـ كما جاء فى النبأ المنشور فى الصفحة الأولى بهذا العدد ـ إلى أن الحاخام «الأكبـر» الذى تم استقباله فى رحاب الأزهر عـرض خطة على نتنيـاهو لنسف المسـجـد الأقـصى قبـيل عـام ٢٠٠٠.. وتقسيم موقعه لبناء الهيكل اليهودى ومسجد صغير للمسلمين على أن تلصق تهمة نسف المسجد الأقصى بعناصر يهودية متطرفة.

## ماذا يقولون فى إسرائيل؟

وتؤكد الصـحف الإسرائيليـة أن لقاء الشـيخ ـ الحاخام لـيس عابرا.. وتشير صـحيفة «هاآرتس» ـ على سبيل المثـال ـ إلى أن الحاخام «دورون» حاخام اليهود الشرقيين بإسرائيل يسعى بدوره لمناقشة «لاو» حاخام اليهود الغربيين فى عمـلية التطبيع مع الأزهر.. وأنه التقى سـرا بعدد من رجال الدين المصريين.. وتنقل الصحـيفة الصهيونيـة عن «لاو» قوله إن دعوته لزيارة مصر كانت (رحلة للجهاد اليهودى فى قلب دولة الإسلام).

وتقول «هاآرتس» إن الحاخـام «لاو» استقبل فى مصر استـقبال الملوك، وقد نال شرف مـقابلة شيخ الأزهر وهى «مقابلة تاريخيـة»، حيث تحدث الجانبان فيها عن تعثـر السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وعن علاقة الدين اليهودى بالإسلام.

وتدعى الصحيفة أن محادثات سـرية جرت بالفعل منذ عدة شهور بين

«دورون وطنطاوى» دون أن تحدد مكان حدوث هذه المحادثات.. وخلال هذه المحادثات طلب «دورون» حاخام الشرقيين زيارة مصر وبالفعل وعده «طنطاوى».. ولكنه وجه الدعوة لمنافسه «لاو»، وتؤكد «هاآرتس» أن الحاخام «لاو» سعيد جدا لزيارته مصر وإنجازاته التى استطاع تحقيقها هناك.

وتؤكد الجريدة الإسرائيلية - والعهدة فى الترجمة على صحيفة العربى - عقد عدة لقاءات معظمها تحيطها السرية التامة بين بعض رجال الدين الإسلامى البارزين فى الشرق الأوسط وحاخامات إسرائيل.. للحصول على فتاوى إسلامية ضد العمليات الاستشهادية.. التى تأكد الإسرائيليون من أنه لا يمكن منعها إلا بواسطة رجال الدين فقط.

وكان الحاخام دورون قد بدأ منذ فترة جمع التوقيعات من رجال الدين فى العالم، للتصديق على معارضة الإرهاب والمطالبة بإيقاف العمليات الإرهابية (الاستشهادية).. وأشارت الصحيفة الإسرائيلية إلى إدانة الشيخ طنطاوى بشدة للإرهاب وتصريحاته عن معارضة الشريعة الإسلامية لأى عمل يؤدى إلى إلحاق الضرر بأى برىء لم يرتكب أى ذنب.. فنحن - كما يقول طنطاوى - «ضد الإرهاب فى الشرق والغرب والشمال والجنوب». وتتوقع الصحيفة أن يرى النور قريبا هذا المؤتمر الذى دعا إليه طنطاوى وكلف «لاو» بالإعداد له.. لاجتماع ممثلى الأديان تحت إشراف كلينتون!! لإدانة الإرهاب!! ووصفت الصحيفة الإسرائيلية طنطاوى باعتباره زعيما للعالم الإسلامى بأسره.. ونقلت عنه باعتزاز أنه مثل «النبى محمد يتحدث مع الجميع»!!

ويقولون إنهم فى إسرائيل استفادوا كثيرا من هذا اللقاء (طنطاوى - لاو) لبدء محادثات وطريق جديد مع رجال الدين فى مصر.

كما تفتخر الصحيفة بأن الشيخ طنطاوى تبرأ من أن مثل الدكتور «محمد البرى» يمثلون الأزهر (انتهى الاقتباس).

ومن الواضح أن الإسرائيليين قد سال لعابهم من تصريحات سابقة للشيخ طنطاوى أدان فيها العمليات الاستشهادية.. وهم يريدون استثمار هذا الموقف.. والواقع أن الشيخ طنطاوى كان قد عدل عن هذه التصريحات بعد مؤتمر القمة العربى فى يونيو ١٩٩٦.. وأخذ يتحدث عن العمليات الجهادية ضد الاحتلال.. ولكنه عاد ثالثا - لسبب غير مفهوم - ليقترب من موقفه الأول.. عندما يدين العمليات الاستشهادية التى تؤدى إلى مقتل بعض الأبرياء.. فى وقت لا نسمع فيه منه تصريحا عن مقتل الأبرياء كل يوم من جراء القصف الإسرائيلى فى لبنان.. والواقع أن العمل الجهادى فى فلسطين المحتلة.. لا يمكنه أن «ينشن» بدقة على البالغين من الذكور والإناث (وهم جميعا من العاملين فى الجيش الإسرائيلى).. ويبقى أن هذا العمل الجهادى لم يقتل مضطرا أطفال الصهاينة إلا بنسبة واحد على مليون بالمقارنة مع قتل الصهاينة لأطفال العرب والمسلمين.

ويبدو أن الشيخ طنطاوى قد عاد لموقفه الأول.. فقد قال - حسب تصريحاته هو - «لأخونا وابن عمنا» «إسرائيل لاو»: أنا أحارب الإرهاب.. وأنت تحارب الإرهاب.. فلماذا نصدر بيانا مشتركا.. بل

لنجـمع علماء الأديـان جمـيعـا تحت إشـراف رئيس دولة غربيـة لإدانة الإرهاب». عن أى إرهاب تتـحدث يا مـولانا؟ هل أتاك حـديث إرهاب الغرب ضد أطفـال العراق؟ هل أتاك حديث إرهاب الغـرب ضد الشعب الليبى؟ هل أتاك حـديث مجلس الأمن الذى يوافق أو يمنع حـجاج بيت الله الحرام من أداء فريضة الحج؟

هل أتاك حـديث العـدوان الإجرامى علـى جنوب السودان بـتمـويل كلينتون. . الذى تريده رئيسا لمؤتمر مكافحة الإرهاب. . وزعيما للأديان؟

هون عليك يا شـيخنا. . فـالإرهاب الذى يحاصـرنا بنسبـة ٩٠٪ هو بتحريك من أصابع هؤلاء الحاخامات. . وكلينتون ذى الطاقية اليهودية. . ونتنياهو الذى تقول إنك ستسقبله!!

ترى هل فات أمة لا إله إلا الله. . فى عام ١٩٤٨. . أن تدفع برجال دينها. . ليسحقوا حاخامات إسرائيل على موائد المفاوضات الدينية بالحجة والمنطق. . فمـا قامت دولة إسرائيل. . وما أخـرج المسلمون من ديارهم؟ وترى هل تعتقد فضيلتك فعلا أن هذا ـ أى التفاوض الدينى ـ هو السلاح الذرى الذى كـان مـعـنا دائمـا. . ولكننا كنـا مـغـفلين وولاد «. . .»، وجبناء. . فلم نستعمله؟!

يأتى هذا التنشيط المذهل للتطبيع من جانب قيادة الأزهر معاكسا لاتجاه حـركة المجـتـمع المصرى حكامـا ومـحكومين. . والمجـتمع العـربى. . والإسـلامى. . يأتى هذا التنشـيط المذهـل للتطبـيع بين الأزهر والكيـان الصهيونى فى وقت بدأنا فيه نمنع أبناءنا من السفر لإسرائيل. . حيث تبين

أنه تجرى لهم عملية تجنيد واسعة النطاق للعمل فى الموساد.. وربما للقيام بأعمال تخريبية فى أرض الوطن.

والمثير للدهشة أن الشيخ طنطاوى يريد أن يحل مشكلة فلسطين بعد ٥٠ عاما من خلال المدخل الدينى.. وبهذا المعنى تكون جماعة كوبنهاجن أكثر اتساقا مع نفسها من الشيخ طنطاوى.. لأن عقدة التعايش مع إسرائيل تظهر واضحة أكثر فى شقها الدينى.. فهى دولة يهودية.. قامت على التفسيرات التوراتية.. والتمسك بالقدس رمزا لهذا المشروع.. والضفة الغربية.. هى يهودا والسامره.. والشيخ طنطاوى يتفاوض مع الطرف ليس فقط الأكثر تصلبا.. بل المنظر العقائدى لدولة إسرائيل الكبرى!! وبالتالى تكون جماعة كوبنهاجن أكثر اتساقا مع نفسها لأنها تدعى أنها ستقيم دولة فلسطين فى الضفة والقطاع من خلال الاتصال ببعض المثقفين اليساريين الأقل تمسكا بالتوراتية.. ومع خلافنا مع المنهجين.. إلا أننا نرى أنه يبقى فى المقام الأول.. ابتعاد قيادة الأزهر.. عن هذه اللعبة الخطرة.. التى لن نجنى منها إلا اهتزاز هيبة الأزهر.. وتثبيت مواقع العدو.. وبلبلة الرأى العام المصرى والعربى والإسلامى.. لأن الشيخ طنطاوى أراد أن يعود بنا إلى المربع رقم ١ لعام ١٩٧٧ (وهو إلزام إسرائيل بالحجة!!) رغم أن الموقف الرسمى للحكومة يقول إن محادثات السلام وصلت إلى طريق مسدود.. وعلى وشك الانهيار.. وإن البديل مخيف (فى إشارة لعودة أجواء الحرب)..

وإذا جاز للمسئولين الحكوميين أن يواصلوا الاتصالات بالعدو

الإسرائيلى.. فمن المذهل فى هذه الأجواء أن يقوم شيخ الأزهر بكل جلال ومكانة الأزهر.. بدور سفير مصر فى تل أبيب.. أو دور موظف بالخارجية مضطر لاستقبال السفير الإسرائيلى.

يقول الشيخ طنطاوى إنه يريد أن يواجه الحاخام بموقف الإسلام..ألا يعرف سيادته أن إسرائيل تترجم كل شاردة وواردة تصدر فى مصر.. بدءا من الشعر والقصص.. مرورا بالمقالات المتنوعة.. والكتب السياسية.. خاصة إذا كانت حول إسرائيل.. وعلى سبيل المثال منذ ١٦ عاما كتبت ـ أنا الفقير إلى الله ـ سلسلة من المقالات حول اليهودية والصهيونية فى مجلة الأهرام الاقتصادى.. وبعد عدة سنوات علمت أن مقالاتى ومقالات الآخرين حول نفس الموضوع تمت ترجمتها بصورة وافية فى كتاب بالعبرية فى إسرائيل.. ثم تمت ترجمتها إلى الإنجليزية وطبع الكتاب فى لندن.. ووصلتنى نسخة منه!!

فليس من حق شيخ الأزهر أن يقلق.. فمواقفه معروفة ولابد أنهم يهتمون بترجمتها أكثر من مقالات شخصى الضعيف.. بل والدليل على أنهم يتابعون فضيلته أنهم سعوا إليه سعيا عندما استراحوا إلى تصريحاته ضد حماس والجهاد الفلسطينى.. فلا توجد أفكار لسيادته غائبة عن فطنة الحاخامات.. وبالتالى فإن هذه المقابلات لا قيمة لها لنا.. بل لها كل الضرر.. ولها كل القيمة للعدو.. ومنافع كثيرة له!

فقد أدركوا أن تصريحات فضيلته أقل تشددا من مقررات القمة العربية فى القاهرة (يونيو ١٩٩٦).. والتى فرقت بحزم بين الإرهاب.. وكفاح

التحرر الوطنى.. ورأوا أن مواقف فضيلته أفضل ـ من وجهة نظرهم ـ من مواقف الأمين العام لجامعة الدول العربية.. وأفضل - من وجهة نظرهم ـ من الموقف الرسمى المصرى..

نقول: لا فائدة إذن من هذه اللقاءات.. فهى لن توضح لهم شيئا لا يعرفونه من مواقف صادرة عن قيادة الأزهر سواء أكانت صحيحة أم خاطئة.. ولن تقنعهم ولن تردعهم.. ولا نتصور أن الشيخ طنطاوى.. سيخلع حذاءه ويضرب الحاخام كما قال فى أحد تصريحاته.. بل سيشرب معه القهوة والشاى ويتجاذبان أطراف الحديث.. أما لو قام الشيخ طنطاوى بضرب الحاخام بالحذاء.. فستكون هذه دعاية سيئة للإسلام!! ولا داعى فى هذه الحالة لهذا اللقاء أصلا.

## مخاطر اللقاء بين طنطاوى ولاو:

قد يقول البعض: نتفق معك على أن مثل هذه اللقاءات ليست مفيدة.. ولن تحرر أرضا.. ولن تعيد حقا واحدا لأصغر طفل فلسطينى.. ولكن ما الضرر منها، خاصة بعد كل المياه التى جرت فى مجرى التطبيع؟!

نعود فنؤكد أن الأمة ـ أو من انخدع منها ـ تراجع تقييم مسيرة التطبيع مع الصهاينة.. وهى تقوم بعمل عكسى. .فى اتجاه إعادة محاصرة الصهاينة وتوحيد الصف العربى والإسلامى.. وإدراك أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة».. وكل الأمة تقاوم إسرائيل باليد.. كالقائمين على الثغور من حماس والجهاد وحزب الله.. ومن خلفهم سوريا وإيران..

وباللسان (كل العمل الفكرى والسياسى والفقهى الذى يبث الوعى بطبيعة الصـراع).. وبالقـلب وهو أضـعف الإيمان.. بمقـاطعـة الإسـرائيليين المحتلين.. ومقاومة التطبيع معهم.. فهل يمكن لقلعة الجهاد (الأزهر) أن تخـذل الذين يقـاومـون المنكر الإسـرائيـلى بالقلب.. ولا نقـول حـتى باللسان.. أو اليد؟! حسبنا الله ونعم الوكيل.

## الحاجز النفسى:

نعود إلى مقولة السـادات المهمة التى ذكر فيهـا أن معظم خلافاتنا مع إسرائيل هى خلافات نفسية (سيكولوجية).. وقد عارضنا فى حينها هذه المقولة لأنهـا تقزم من طبيـعة وحقـيقة الصـراع.. ولكنها كانت مـقولة صحيـحة بتفسـير مختلف عـما كان فى عقل السـادات.. فنتيجة الـبعد القومى ـ العـقائدى للصـراع.. وما صـاحبه من قـتل وتشريد واحـتلال أراض وتشريد شعب بأسره.. أصبح هناك حاجز سيكولوجى بالفعل بيننا وبين إسرائيل.. ولكن خـلافنا مع السادات كان حول رفض إسـقاط هذا الحاجز السيكولوجى.. لأن التعبئة النفـسية ضد العدو ضمان أساسى.. للانتصار فى الصـراع.. وبتفريغ هذه الشحنة النفـسية تتميع القـضية.. فيحاول البعض أن يقارن مثلا بين الخلاف مع إسرائيل، والخلاف الفرنسى ـ الألمانى .. أو أنه مـجـرد سـوء تفـاهم يمكن حله عـن طريق زيارة للكنيست، أو إطلاق صفة صديقى على وايزمان أو بيجين كما كان يحلو للسادات أن يفعل!

ويمكن هنا الإشارة إلى تجربة سوريا.. التى دخلت فى المفاوضات .. ولكنها كانت حريصة ـ ولا تزال على هذا الحاجز النفسى.

حتى السياسيون ورجال الدولة يرفضون المقابلات فى لحظات.. وأحيانا فى مراحل كاملة.. من حيث المبدأ.. لأن مجرد عقد اللقاء مع طرف معين.. له مغزى ومعنى محدد.. وقد يكون من المصلحة عدم إعطاء هذا الطرف هذه الميزة.. مجرد ميزة اللقاء للتعبير عن موقف احتجاجى محدد.

إذن حتى السياسيون يمارسون حكاية «مقاطعة طرف آخر» ورفض مقابلته.. وهذه ليست بدعة بين السياسيين.. فما بالنا بالزعماء العقائديين غير المرتبطين بأية سلطات تنفيذية أو التزامات دولية.. إن هؤلاء لهم حرية أكبر فى ممارسة هذه المقاطعة عند الضرورة.. وليكن واضحا أنه لو تمت تسوية ما مع إسرائيل.. فى قضية ما.. فلن تكون عن طريق مقارعتهم الحجة بالحجة فى تفسير التوراة!! ولكن سيكون من خلال توازنات سياسية وعسكرية محددة تفرض على إسرائيل تقديم تنازلات معينة.

نقول: بينما الأمة تعيد بناء الحواجز السيكولوجية ضد هذا العدو الغادر.. يخرج علينا الشيخ طنطاوى.. بمبادرة جديدة لتدمير هذه الحواجز.. وتحويل صراعنا العقائدى الرهيب مع العدو إلى مجرد «حوار ديوك».

ودور مؤسسة الأزهر أن تكون فى طليعة بناة هذه الحواجز.. وأن تشحذ همم المقاتلين فى بعض المواقع.. وأن تحرض المؤمنين على القتال.. وأن تفضح نوايا إسرائيل فى ضرب إيران وسوريا والعراق والسودان.. لا أن تتحاور مع الحاخامات حول سفر الخروج.. وسفر

التكوين. . بل تصدر مثلا الفتاوى بمنع سفر شبابنا إلى إسرائيل. . ومنع سفر الوفود الزراعية إلى إسرائيل. . ومنع البترول عن إسرائيل. . وأن يكون الأزهر الأب الكبير الذى يحمى أبناءه من الخطأ والزلل. . وأن يضم الصفوف. . ويوحد الأمة على كلمة سواء. .

## رسولنا الكريم.. والموقف من اليهود:

وهنا نصل إلى مسألة فقهية جوهرية. . فقد استند الشيخ طنطاوى ـ ومن أيده ـ إلى قيام الرسول ﷺ بنشر الدعوة فى الجزيرة العربية. . وما تطلبه ذلك من مقابلة اليهود والحاخامات. . وكأنهم تذكروا هذه الوقائع فجأة بعد ٥٠ عاما من إنشاء الكيان الإسرائيلى. . وبعد ٢٠ عاما من مبادرة السادات التى لم يشاركه الأزهر فيها بأى خطوة عملية. . وسنفترض أن الشيخ طنطاوى قد تذكر هذه «الفريضة الغائبة». . (أى الحوار مع اليهود). . فى هذه الحالة يجب تطبيق قواعد القياس الفقهية عندما نقتبس من السنة النبوية الشريفة كما ذكرت فى المقال السابق. . ولكن الأمر يحتاج لشرح وتوضيح. . وما أجمل أن نعيش فى رحاب السيرة المشرفة لرسولنا الكريم ونحن على أبواب هذا الشهر المعظم. . ولنقارن بين سيرة الرسول تجاه اليهود. . وهذا الذى يدعونا إليه الآن فى آخر عام ١٩٩٧. . سنجد أنهم يختارون من السنة ما يبرر موقفهم. . دون أن تكون ذات صلة به. . ويتجنبون المواقف الأخرى المماثلة لحالنا الآن.

فقد كان رسول الله ﷺ. . مرسلا للناس كافة. . ووادع اليهود. . وأعطاهم المواطنة الكاملة. . ولكنهم عندما نكثوا عهودهم. . كان حربا

عليهم.. وكان أول قائد لمقاومة التطبيع مع الكيانات اليهودية المتحالفة مع المشركين.. وما كان الرسول فى زمن الصراع والحرب.. ليتفاوض معهم بنفسه.. بل كان يرسل أحيانا مبعوثين دبلوماسيين وعسكريين لإنذارهم.. قبل اقتحام حصونهم!! وكان أحيانا يرسل لهم من يخدعهم ويناور معهم (كما حدث فى غزوة الخندق).. وفى لحظات الصراع لم يعرف أبدا معهم إلا لغة السيف.. بل إنه عندما عاد من غزوة الخندق وقد نصره الله.. خلع سيفه وأراد أن يغتسل.. فجاءه جبريل: وقال له: هل وضعتم أسلحتكم؟! قال الرسول: نعم.. قال جبريل: ولكننا لم نضع أسلحتنا (أى الملائكة)؟! وسنتجه إلى بنى قريظة. وكان بنو قريظة قد خانوا عهد الرسول.. فى ظل حصار المدينة.. وتحالفوا مع الغزاة المشركين فقام رسول الله.. وارتدى على عجل ملابسه العسكرية.. ونادى فى القوم: «من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة»..

# السيرة النبوية واليهود(*)

لم يجب مجمع البحوث الإسلامية على أسئلة أحد الكتاب الإسلاميين. . وكان من أهم هذه الأسئلة: ما يشير إلى ضرورة التفرقة فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بين موقعه كإمام، وقاض، وفقيه، وقائد عسكرى. . ورئيس دولة. . وفوق ذلك كله وقبله. . كرسول ونبى. . وقد عنى الفقه الإسلامى بالتفرقة بين تصرفات الرسول. . بالنسبة لهذه المواضع. . للتفرقة بين القرارات السياسية المتغيرة. . وأحكام الدين الثابتة. . وفى ذلك وجدنا فى السيرة النبوية مستويات متعددة. . من القرارات الاقتصادية والعسكرية والسياسية. . التى لم تكن من ثوابت الدين.

وقد كان هذا التميز واضحا فى عهد الرسول ﷺ. .

١ - فى واقعة تأبير النخيل. . ألغى الرسول قراره ذى الصبغة الفنية (التكولوجية بلغة عصرنا). . وقال قولته الشهيرة (أنتم أعلم بشئون دنياكم).

٢ - فى واقعة غزوة بدر. . عندما سأله أحد الصحابة عن اختياره لموقع تمركز قوات المسلمين (أهو منزل أنزلكه الله. . أم هو أمر المكيدة والحرب والمشورة)، فقال له الرسول ﷺ: (بل الحرب والمشورة). . واستمع إلى اقتراحه وأخذ به.

٣ - وتكرر نفس الشيء فى غزوة الخندق. . عندما عرض الرسول على

(*) جريدة الشعب ٦/١/١٩٩٨.

زعماء الأوس والخـزرج مشروعا وسطيا لفـك الحصار عن المدينة.. بأن يعطوا قسـما من ثمـار نخيل المدينة لقريـش.. حتى ينسحـبوا ويفكوا حصـارهم.. فسـأل زعماء الأوس والخـزرج الرسول.. إذا كان هذا أمرا إلهيا.. أم شيـئا يريد به الرسول أن يخفف معاناة أهل المدينة، فقال الرسول.. بل هى الأخـيرة.. فرفض زعماء المدينة أن يعطوا المشركـين تمرة واحدة.. وقالوا: مـا تنازلنا لهم عن شيء فى الجاهلية، فكيف نفعل وقد أعزنا الله بالإسلام.

مثل هذه القرارات السـياسية والعسكرية يمكن أن نأخذ العـبرة منها.. فى الشورى(بالنسبة لواقعة بدر).. وفـى الشورى وإمكانية بحث مساومة العدو (واقعة الخندق).. ولكن الوقـائع ذاتها ليست من ثوابت أو أحكام الدين.. حيـث تداخلت مواقف وقرارات الـرسول مع مواقـعه المخـتلفة كرجل دولة ـ بعـد الهجرة ـ وقائد عسكـرى.. وإمام، ونبى.. وإن كان تعدد هذه المواقع يقطع باليقين.. بموقف الإسـلام بعدم الفصل بين الدين والسياسة.. إلا أنه لا يطابق بين الدين والسيـاسة.. الدين كعقائد منزلة من السمـاء.. وقرارات المكيدة والحرب والمشـورة.. التى تدرس موازين القوى السيـاسية والعسكرية.. وتنظر إلى الأمـور الفنية.. وهى قرارات غيـر قابلة للاقـتداء بها حـرفيا (على خـلاف الاقتـداء بالرسول فى أداء الصلاة والصـيام والحج)، بل وبعض هذه القرارات لا يمكن الاقتـداء بها أصلا.. كالخطط العسكرية!!

أمـا الأحكام المتعلقـة بأمور الـدولة والسيـاسة فـيجب الاقـتداء بهـا

بظروفها. . وهذا ما يتطلب دراسة الظروف السياسية فى صدر الدعوة والظروف السياسية الراهنة.

وقد كان النقل العشوائى الذى لا يلتزم بهذه القاعدة. . قد أدى إلى انحراف بعض الجماعات الإسلامية. . فرأوا فى حمل الرسول ﷺ للسلاح وقتاله للمشركين. . دليلا كافيا على حمل السلاح ضد الحكام الذين لا يلتزمون بصورة تامة بتطبيق الشريعة الإسلامية. . فأخطأوا مرتين. . مرة حين طابقوا بين مشركى قريش، وحكام الدول الإسلامية الذين لا يلتزمون تماما بشرع الله (وقد يكون عدم الالتزام هذا فى بعض الأحيان عن نقص فى الثقافة الإسلامية، بسبب الحقبة الاستعمارية التغريبية. . وليس عن كفر بواح). . وأخطأوا مرة ثانية. . حين لم يلاحظوا أن الرسول ﷺ لم يستخدم السلاح وهو فى «المعارضة». . وإنما استخدمه وهو فى وضع الدولة المنظمة لحماية هذه الدولة من غائلة العدوان.

بالإضافة لخطأ ثالث شائع. . وهو المطابقة الحرفية بين ظروف الدعوة الإسلامية الأولى. . وظروف العمل الإسلامى المعاصر. . الذى يجدد الدين. . ويعيد إليه حيويته الأولى. . ولا ينشىء دينا جديدا. . فى مواجهة الجاهلية. . وكأن ١٤ قرنا من الإسلام قد راحت سدى!

أما السؤال الثانى الذى لم يجب عليه المجمع. . فهو مسألة تغير الفتاوى مع تغير الزمان والمكان. . أى مع تغير الواقع والوقائع. . وهذه

قاعدة مستقرة فى الفقه الإسلامى.. لا خلاف عليها.. ومن المهم أن نتذكر ذلك لأن كثيرا من أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية الآن تختلف عن أحوالهم فى صدر الدعوة.. وكذلك فإن دولة يهودية شبه عظمى لم تكن موجودة فى صدر الدعوة.

وتلمس الإجابة عن هذين السؤالين.. سيكون محور حديثنا من خلال عرض تحليلى للوقائع الأساسية فى السنة النبوية الشريفة فيما يتعلق بموضوع اليهود.

## الرسول.. لا نبى بعده:

كان محمد ﷺ رسولا نبيا.. للناس كافة.. ومن واجبه إبلاغ الرسالة للعالمين.. ولا مجال للقياس على هذا الدور.. حقا إن الدعاة والمصلحين هم ورثة الأنبياء فى نشر الدعوة.. ولكن حركتهم تكون مقيدة بحسابات وتوازنات ومصالح الأمة الإسلامية.. خاصة إذا كانت درايتهم محدودة بالعمل السياسى.

فعندما يأتى الآن من يقول إنه ذاهب لمقابلة نتنياهو فى تل أبيب لدعوته إلى الإسلام.. أسوة بالرسول الكريم الذى كان يلتقى بقادة اليهود.. فهذا لا يمكن تفسيره إلا بالغفلة.. أو بتخذيل الأمة الإسلامية وإهانتها.. ومع ذلك فإن الرسول قدم لنا سيرة غنية كى يتعلم منها أولو الألباب.. الذين يعرفون - ويتقون الله - كيف يقيسون بين الوقائع المختلفة فى حياة الرسول.. والوقائع المختلفة فى حياتنا المعاصرة.

مرت علاقة الرسول باليهود بمراحل متعددة.. حسب تطور

الأحوال.. ولم تكن أبدا شيئا واحدا متصلا.. ولكن يمكن أن نفصل بين مرحلتين أساسيتين:

## المرحلة الأولى: الهجرة إلى المدينة:

كان أول احتكاك واسع النطاق بين الرسول ﷺ واليهود.. مع دخوله إلى المدينة.. وقد شاء الله عز وجل.. ألا يمر المسلمون بحالة استضعاف مع اليهود أبدا.. فى حياة الرسول ﷺ.. فالرسول ﷺ بمجرد دخوله المدينة أصبح حاكما للمدينة وما حولها.. وكان اليهود من قبيل الرعية.. أى كانت اليد العليا للرسول ﷺ وللمسلمين.. ومن الطبيعى أن يعمل الرسول على نشر الدعوة بين اليهود وغيرهم ممن لم يدخلوا الإسلام فى المدينة.. وقد كانت عملية عسيرة ولكنها واجبة.. البعض أسلم مخلصا.. والبعض أسلم نفاقا.. أما جمهرة يهود المدينة وما حولها فظلت على عنادها وحربها الإعلامية ضد الإسلام.. فيما هو معروف وثابت من كتب السيرة.. وموثق فى القرآن الكريم.. ولا أريد أن أتوسع هنا فيما هو متفق عليه.. ولا خلاف حوله.. لأننى أركز حديثى على نقطة أساسية: (التطبيع مع الكيانات اليهودية المعتدية).. أى الاعتبارات التى حكمت علاقات الرسول ﷺ باليهود.. والتى حكمها بالأساس الموقف العملى لليهود.. فالإسلام لا يخشى الخلاف العقائدى.. وهو لا يكره غير المسلمين على الدخول فيه.. لأنه سيكون دخول المنافقين والخائفين.. بينما يريد الإسلام المؤمنين به حقا وصدقا.. وهو يقر بخلاف البشر المستمر إلى يوم الدين.. وبالتالى لا يسعى لإنهاء هذا

الخلاف بـالقوة! ولكن الإسـلام يحمى نفـسه من العـدوان. . وهذه هى الحالة الوحيدة التى يسمح بها باستخدام العنف (القوة العسكرية المنظمة).

نقول. . اتسمت هذه المرحلة بمحاولة نشر الدعوة فى صفوف اليهود. . وهذا أمـر طبيـعى وواجب. . وهى مرحلـة مسـتمـرة إلى يوم الدين مع اليهود غـير المحاربين، وقد التقـيت خلال أسفارى المتعـددة بيهود دخلوا الإسلام وحـسن إسلامهـم فى أذربيجان والولايات المتـحدة على سـبيل المثال.

ولم يكتف الرسـول ﷺ بالدعـوة إلى سـبـيل ربه بالحكمـة والموعظة الحسنة. . ولكن أبرم معهم دسـتورا سياسيا للمديـنة. . حفظ لليهود حق المواطنة السياسيـة. . وحقق المساواة السياسية بـين مواطنى المدينة كافة. . وهو الأمر الذى تتغنى به الدساتير المعاصرة.

## دستور المدينة:

كتب رسول الله ﷺ خـلال السنة الأولى للهجرة كتـابا بين المهاجرين والأنصار. . وادع فـيه اليـهود وعـاهدهم وأقرهم على دينهم وأمـوالهم واشترط عليهـم وشرط لهم. . وقد جاء فى هذا الكتاب «الدسـتـور» فيما يتعلق باليهود ما يلى:

(إن المؤمنين بعضهم مـوالى بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم).

(وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين مـاداموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من

ظلم وأثم فإنه لايـوتغ «لا يهلك» إلا نفسه وأهل بيـته، وأن ليـهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعـدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة.. إلخ مثل مـا ليهود بنى عوف وأن بطـانة يهود كأنفسـهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بـإذن محمـد). (وأن على اليهـود نفقتـهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن يثـرب حرام جـوفهـا لأهل هذه الصحـيفـة.. وأن الجار كـالنفس غـير مـضـار ولا آثم..).. (وأن بينهـم النصـر على من دهم يثرب)..

نحن أمام صيـاغات قانونية ودسـتورية رفيعة.. ونـحن بالأساس أمام دستـور للمـدينة.. اليهـود يتمـتعـون فى ظله بحق المواطنة السـياسـية الكاملة.. والحرية الكاملة لممارسـة عقائدهم.. وفى هذه المرحلة الأولى نحن أمـام اليهـود المواطنين.. ومن الطبيـعى أن تتعـدد فى هذه المرحلة لقاءات الرسول.. مع هذا القسم من المواطنين.. رغم مكائدهم السياسية والإعلاميـة.. وتشكيكهم فى عقيدة الإسـلام.. والتى لا نريد التوسع فى وقائعهـا المعروفة.. المهم.. مادامت مكائدهـم لم تتـحول إلى عمل سيـاسى مبـاشر.. أى إلى مكائد عـملية بهـدف الإضرار بمنعـة السلطة الإسلاميـة.. فقد كان يتم التـعامل معهم بـوسائل سلمية.. ومـواجهة الحجـة بالحـجة.. ولذلك فـفى العام الثـانى للهجـرة عندما اجـتمـعت مجـموعـة من المنافقين (اليـهود الذين ادعـوا الدخول فى الإسـلام) فى

المسجد ليسخروا ويستهزئوا بدين الإسلام، أمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا، وأمروا بألا يقربوا مسجد رسول الله ﷺ مرة أخرى، وكانت هذه الواقعة من علامات الانتقال للمرحلة الثانية، وتزامنا مع تصاعد تحرشات اليهود بصورة عملية بالمسلمين.

## المرحلة الثانية: نقض العهود.. وإعلان الحرب.. ووقف التطبيع:

.. وكلما نقض فريق من اليهود العهد مع رسول الله ﷺ .. تتوقف العلاقات السلمية.. والتطبيعية.. ولا يكون بين المسلمين وبينهم إلا السيف.. وحيث ينطبق عليهم سائر ما ينطبق على المحاربين من المشركين أو أهل الكتاب.

وكانت البداية مع بنى قنيقاع، فقد كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا الرسول ﷺ فى العام الثالث للهجرة، وفى واقعة اصطدام الرسول ﷺ مع يهود بنى قنيقاع عبرة.. وأى عبرة.. لمن يريد أن يتهاون مع الأعداء.. فقد كان يكفى الاعتداء على امرأة مسلمة واحدة.. كى يشن الرسول ﷺ حربا شعواء.. على بنى قنيقاع.. انتهت بإجلائهم عن وسط المدينة.. ولكننا عشنا لنرى بنى إسرائيل يعتدون على الملايين من النساء والأطفال والشيوخ والرجال.. وأتى من يبشرنا بوجوب التحاور مع هذا الصنف من المعتدين!

فقد جاءت امرأة مسلمة ببضائع لبيعها فى سوق بنى قنيقاع وجلست إلى صائغ هناك منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت..

فعمد الصائغ اليهودى إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها.. فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قنيقاع، وقام الرسول ﷺ بمحاصرتهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه.. فأمر الرسول ﷺ بإجلائهم.. وخرجوا من المدينة تاركين وراءهم السلاح، وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغونه.. حتى وصلوا إلى حدود الشام.. وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام وكان عددهم قرابة السبعمائة.

## مقتل كعب بن الأشرف اليهودى:

وبالإضافة للتأديب الجماعى لناكثى العهود من اليهود.. كانت أحكام الإعدام تصدر فى حق اليهود الذين يتآمرون على الإسلام.. ويتحالفون مع مشركى قريش.. ويعتدون على نساء المسلمين (جرائم الخيانة العظمى.. وقلب نظام الحكم بتعبيرات العصر)..

فى العام الثالث من الهجرة.. وبعد غزوة بدر.. قال رسول الله ﷺ: من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله.. فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال نعم.. وقد كان.

وتكرر ذلك الحدث ولذات الأسباب (الخيانة العظمى) مع أبو عفك اليهودى وتاجر يهودى يدعى ابن سنينة.

ويعلق د. سيد طنطاوى على ذلك بقوله: (وهكذا تعقب المسلمون

بالقتل والإرهاب بعد معركة بدر، كل غادر بعهده، مجاهر بحرب الله ورسوله مؤيد لقريش ودينها، مظهر العطف والأسف على ما أصابها، وذلك ليتفرغوا للقاء أعدائهم، وليطهروا المدينة من الطابور الخامس الذى يعرف مواطن القوة والضعف فيهم، فيبلغها إلى الأعداء . . وبالقضاء عليهم عادت للمسلمين هيبتهم وطمأنينتهم، وأصبحوا أصحاب الكلمة العليا فى المدينة) . . (رسالة الدكتوراه الخاصة بسيادته) ونحن نقول إن حاخامات كيان إسرائيل فى عام ١٩٩٧ ينطبق عليهم أكثر من ذلك . . فهم لا يمثلون مجرد طابور خامس . . بل يمثلون الكيان العدوانى الأول . . أى أساس بلاء المسلمين . . وسنجد دائما فى سيرة الرسول ﷺ أنه فى مراحل البغى والعدوان . . لم يكن يعرف مع اليهود إلا لغة السيف والمحاصرة والطرد . . وفى هذه المراحل لم يدخل معهم فى مناظرات دينية . . ولم يتحاور معهم فى أى شأن من الشئون . . إلا حول شروط التسليم بعد الهزيمة!!

**أحد:**

رفض الرسول - ﷺ - الاستعانة باليهود فى غزوة أحد . . فحين استأذنه الأنصار فى الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة . . قال: لا حاجة لنا فيهم.

## غزوة بنى النضير نموذج لمقاومة التطبيع!

فى السنة الرابعة للهجرة تآمر بنو النضير على حياة رسول الله ﷺ . . بأن اتفقوا مع أحدهم لإلقاء حجر كبير على رأسه بهدف اغتياله . . ولكن

الله أوحى لرسوله بالمؤامرة فترك مكانه قبل تنفيذها.. ثم أصدر الرسول ﷺ أمرا لهم بالخروج من جواره وبلده وأعطاهم مهلة عشرة أيام.. فلما لم يفعلوا.. حمل عليهم بجيش المسلمين وحاصرهم أياما متواصلة.. ورأى أن المحاصرة الاقتصادية هي الوسيلة الأفضل لاستسلامهم.. ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقطع نخيلهم والتحريق فيها.. وهو ما سجله القرآن الكريم فى سورة الحشر ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾.. وهو الأمر الذى أسرع باستسلامهم.. وتم إجلاؤهم وبما يمكن لإبلهم أن تحمل من أموال دون السلاح.. فساروا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام.

## غزوة بنى قريظة:

وتتابعت خيانات اليهود.. ومسلسل نكث العهود.. فأبرموا اتفاقات سرية مع مشركى قريش.. للتحالف العسكرى.. ضد رسول الله ﷺ، وكانت غزوة الأحزاب.. وبدا أن حفر الخندق تكتيك عسكرى بارع.. حتى لا يحارب المسلمون على جبهتين.. ولما انفضت الأحزاب.. وعادت إلى مكة مخذولة مهزومة.. توجه رسول الله ﷺ إلى خونة يهود بنى قريظة.. الذين نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة.. وضيق المسلمون عليهم الخناق.. وأحكموا حصارهم لمدة خمس وعشرين ليلة، فلم يستطع بنو قريظة خلالها أن يخرجوا من حصونهم.. حتى استسلموا.. وحكم فيهم سعد بن معاذ من سادة الأوس.. فحكم بقتل

الرجال المقاتلة وتقسيم الأموال وسبى الذرارى والنساء، فتراوح تقدير الرواة لقتلى اليهود من المحاربين ما بين ٤٠٠و٩٠٠ رجل، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة لأنها قتلت مسلما.. وهو تشريع إسلامى يبيح قتل النساء إذا اشتركن فى القتال (وهو حكم ينطبق على نساء الكيان الإسرائيلى الحالى اللائى يتم تجنيدهن فى الجيش الصهيونى).. وهو ما يعنى ضرورة أن يكف بعض رجال ديننا على الولولة على نساء بنى إسرائيل اللائى يقتلن فى العمليات الاستشهادية بفلسطين المحتلة!

وعقب ذلك استشهد سعد بن معاذ متأثرا بجراح له أصيب بها فى غزوة الخندق.. فاهتز عرش الرحمن لجنازته.. وتم تقسيم أموال بنى قريظة ونسائهم وأبنائهم على المسلمين.. وبالقضاء على بنى قريظة انتهى نفوذ اليهود فى المدينة وأطرافها.

## مقتل أبى الحقيق اليهودى:

وتوالت تصفية رؤوس الفتنة.. فقتلت صفية بنت عبد المطلب يهوديا يتلصص على أحد حصون المسلمين.. وأذن الرسول ﷺ للخزرج بقتل سلام بن أبى الحقيق وهو بخيبر.. ونهى عن قتل امرأة أو وليد أثناء هذه العملية.. التى تمت فى عقر دار أبى الحقيق.. والتزم المجاهدون بذلك فلم يقتلوا امرأته.. رغم أنها كادت أن تفشل العملية الفدائية بصراخها.

ولما علم رسول الله ﷺ بأن أسير بن رزام - زعيم يهود خيبر - يعد الكتائب لغزو المدينة.. أرسل إليه وفدا، لا لمحاورته.. ولكن لخداعه وقتله.. وقد كان.

## خيبر:

وكانت حصون خيبر آخر حصونهم.. وكانت بدورها حصونا للفتنة والمكيدة والتآمر مع مشركى قريش خلال غزوة الخندق.. ثم مع قبيلة غطفان.. ثم بدأ يهود خيبر فى إعداد الجيوش لغزو المدينة كما تقدم. وكانت دولة الإسلام الأولى مهددة من يهود خيبر.. ومن مشركى قريش.. ولم يكن من حسن الفطن المغامرة بالقتال على جبهتين.. وعقب صلح الحديبية مع قريش.. كانت غزوة خيبر.. وخرج رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة بنفسه.. وقاتل بنفسه أشد القتال.. حتى أصيب بنانه عليه الصلاة والسلام بنبل اليهود.. وقام جيش المسلمين بمحاصرة حصون اليهود.. وتكررت عملية الحصار الاقتصادى (مقاومة التطبيع) بقطع نخيل اليهود.. حتى يجبروهم على الخروج من حصونهم.. كذلك قطع المسلمون عنهم الماء أيضا لإجبارهم على الخروج للقتال المباشر.. وفتحت معظم الحصون عنوة.. وبعد هزيمة اليهود قبل رسول الله ﷺ بقاء أهل خيبر فى مواقعهم بشرط أن يكون نصف ثمارها للمسلمين.. واستمرت هذه المعارك شهرين فقد فيهما المسلمون ١٥ شهيدا.. وقتل من اليهود قرابة المائة.

وقد أعقبت هذه الحملة محاولة امرأة يهودية اغتيال الرسول ﷺ من خلال السم، ولكن الرسول عفا عنها.. بينما لم يحارب الرسول اليهود الذين لم يجاهروا بعدائهم للإسلام، كيهود البحرين واليمن وبنى غادية وبنى عريض.. حيث دفعوا الجزية.. وكان لهم الذمة.. كما رد صحائف التوراة إلى يهود خيبر.

ولكن الرسول ﷺ وهو يوحى إليه توقع استمرار اليهود فى غدرهم.. فأوصى قبيل وفاته بإخراج اليهود من جزيرة العرب حتى لا يبقى بها دينان، وهذا ما تحقق فى عهد عمر بن الخطاب.. وفى أعقاب تعدد عمليات الغدر من قبل اليهود (اغتيال المسلمين).

●●●●●

من هذا العرض المركز والمقتضب يمكن القول:

١ ـ إن من يريد الاسترشاد فى عام ١٩٩٧/ ١٩٩٨ ميلادية بسيرة الرسول ﷺ .. فيما يتعلق بالتعامل مع إسرائيل.. يجب أن يقتبس من المرحلة الأخيرة (مرحلة الغزوات).. لأن المرحلة الأولى التى شهدت بداية ولادة أول دولة إسلامية تنطوى على مواطنين يهود.. وفى ظل ميثاق موحد.. وهذه الحالة غير موجودة فى علاقتنا بإسرائيل.. وهى تنطبق الآن على البلاد الإسلامية التى توجد بها أقليات يهودية (كإيران والمغرب واليمن).. مع ضرورة الحذر والتأكد من عدم وجود علاقات ضارة لهم مع الكيان الإسرائيلى.

٢ ـ إن القيادات الشعبية والمرجعيات الإسلامية.. لا يصح لها التفاوض مع الكيان الصهيونى لأنه يتم من موقع الاستضعاف والعجز عن تحرير الأراضى الفلسطينية.. ويحقق غرضا إسرائيليا.. لأن اللقاءات كما أوضحنا هدف فى حد ذاته.. بغض النظر عن النتائج المترتبة عليها.. هدف فى حد ذاته.. لإحداث الفتنة والصراعات الداخلية.. ولتأكيد مشروعية إسرائيل الكبرى.. وتحويل الصراع

المصيرى. . إلى نقاش فكرى مجرد!! وتحطيم الحواجز النفسية التى ترفض هذا الكيان العدوانى.

٣ - إن دور المرجعيات الإسلامية والقيادات الشعبية فى هذه المرحلة هو شحذ الهمم من أجل الجهاد المقدس. . لتحرير القدس. . والأراضى الفلسطينية المحتلة. . ويجب أن تنأى بنفسها تماما عن أية مفاوضات سياسية. . أو حوارات دينية مزعومة. . أو افتعال قضايا مشتركة كمقاومة الإرهاب!

وقد جاء فى رسالة دكتوراه د. سيد طنطاوى التى كتبها فى الستينيات:

(يجب أن تعمل الدول العربية والإسلامية على تقوية الفدائيين الفلسطينيين من كل النواحى، وأن تعطيهم من الإمكانيات ما يجعلهم يستطيعون أن يزلزلوا كيان الصهيونيين عن طريق حرب العصابات، لأن هذه الحرب من شأنها أن تهدد أمن إسرائيل واستقرارها. . واقتصادها. . وجميع مرافقها، وتكون هذه الحرب كمقدمة للمعركة الفاصلة التى يجب على الأمة الإسلامية أن تخوضها ضد إسرائيل حتى تطهر الأرض المقدسة من اليهود). . وهذا ما ينطبق الآن على مجاهدى حزب الله وحماس والجهاد الفلسطينى!!

●●●●●

والآن نكتفى مؤقتا بهذا القبس من سيرة الرسول. . والدروس الأساسية المستفادة منها. . ونسأل الله الرحمة والمغفرة لمن أخطأ من أمتنا. . **﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** صدق الله العظيم.

## الفصل السابع

# حوار الحضارات بين الحقيقة والخداع(*)

(*) ورقة بحثية مقدمة لمؤتمر «الإسلام والغرب فى عالم متغير» الخرطوم ١٢/١٢/٢٠٠٣.

منذ إنهيار المعسكر الشيوعى قفز إلى رأس جدول أعمال العالم موضوع الصراع بين الغرب والإسلام وتحول إلى محور رئيسى للسياسات الدولية، وفى المقابل بدأ الترويج لمقولة مضادة وهى حوار الحضارات بعيدا عن صراع الحضارات، وتشكلت من أجل ذلك العديد من المنتديات الدولية.

فى العالم الاسلامى ظن البعض أن مواجهة العداء الغربى للإسلام تتم من خلال عدة محاور: ابراز شعار حوار الحضارات - تحسين صورة الإسلام فى الغرب - تغيير الخطاب الدينى الإسلامى بحيث يكون مقبولا على المستوى الدولى عامة والغربى خاصة.

حول هذا الموضوع جرت الكثير من المساجلات اختلط فيها الثابت مع المتغير، اختلط فيها تحديد من أين نشأت المشكلة بين الشرق والغرب، أو بالأحرى أى جانب هو المسئول عن سوء التفاهم، اختلط فيها ما هو عقائدى مع ما هو سياسى، ما هو مبدئى مع ما هو عملى (براجماتى)، بل اختلط فيها كثير من الحقائق الساطعة، من المسئول عن أزمة الثقة، من المعتدى ومن المعتدى عليه، بل غلب على النخبة الإسلامية الرسمية وغير الرسمية الطابع الاعتذارى عن جرائم لم نرتكبها. وكأن ضعفنا المادى وتأخرنا عن مواكبة أسباب التكنولوجيا المتطورة سبب كاف لخلط الأوراق، وعدم ذكر الحقائق التى جرت وتجرى على مشهد ومرأى من العالمين.

ولكل هذه الأسباب أرى أن أركز على الثوابت الإسلامية فيما يتعلق

بهذا الموضـوع: نحن والغرب أو بالأحـرى نحن وكل الآخرين من غـير المسلمين.

وسنجد فى إسلامـنا كل ما يمكن أن نفاخر به، بل ونتـحدى إذا كان الآخرين ما هو أفضل وأكـثر عدلا ورقيا فإننا على إسـتعداد لأن نأخذ به ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

## الحوار والتفاهم والتعارف:

لنبدأ بالنقطة الجـوهرية التى أفاض فيها الكثـيرون من النخبة الرسـمية وغير الرسـمية فى بلاد المسلمين، والتى يركزون عليـها دون باقى النقاط المكملة لهـا، ولكننا نبدأ بهـا لنؤكد أنهـا فكرة صحـيحـة وأساسـية بلا خلاف، ولكنها ليست كافية لعرض موقفنا كله ازاء المتغيرات المختلفة.

ونقصـد أن الإسلام يحض على الحوار والتـفاهم والتعارف والتـعايش السلمى، ذلـك أن الدين الحق لا يقـوم إلا على الاقـناع والاقـتناع، ولا يوجد إيمان بحد السيف، فالإيمان لغة هو التصديق(١).

وآيات القرآن عديدة فى هذا المجال.. ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[البقرة: ٢٥٦].

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٩٩].

ولأن البشرية تنقسم إلى شعوب وقبائل فإن الدعوة تكون:

﴿يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وأُنثَىٰ وجعلْنَاكُمْ شعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعارفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. [الحجرات: ١٣].

وعندما تتمايز الأمم فإن الهدف الأسمى هو التعايش والتعارف وعدم استعلاء طائفة على أخرى، ولا أمة على أمة، ثم يكون الأكرم عند الله هو الأكثر تقوى، والحساب النهائى عند الله وليس على هذه الأرض الفانية. وحتى الخلاف العقائدى فهو متروك لله عز وجل كى يحكم فيه يوم القيامة ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[آل عمران: ٥٥].

إذن من وجهة النظر الإسلامية الخالصة، لا توجد أى مشكلة على الأرض، بسبب الخلاف فى الرأى أو العقيدة أو اللون أو العرق أو القومية، بل أن الإسلام يدعو إلى مباراة سلمية فى إعمار الأرض والتخلية بين الإنسان واختياراته العقائدية.

## من أين يأتى الصدام؟!

من أين يأتى الصدام إذن؟ من أين تنشأ المشكلة؟

تأتى من الطرف الذى يرفض المباراة السلمية ويستخدم وسائل الإكراه فى فرض هيمنته ورؤيته ومصالحه.

وإذا افترضنا أن الكرة الأرضية مسرح واحد متواصل فإننا كاسلاميين نقبل منطق المباراة السلمية، ولترفع العقبات والروادع عن كل الرؤى والأيديولوجيات ولنترك الحكم لجمهور البشرية، ولكن الغرب لم يقبل

بهذا المنهج.. بل وصل الأمر إلى حد التدخل فى شئون الدول العربية والإسلامية ضد الأنظمة ذات التوجه القومى، ثم ضد الأنظمة ذات التوجه الإسلامى، ثم انتقل الآن إلى الأنظمة الصديقة يريد أن يتدخل فى أسلوب حياة مجتمعاتها ومناهج التعليم و الخطاب الدينى.

والآن تتم عملية تعليق هذا التدخل على مشجب أحداث ١١ سبتمبر فى حين أن تاريخ التدخلات قديم ولم ينقطع بعد فترة الاستعمار التقليدى، وكانت التدخلات الغربية متصاعدة فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وعندما نشير إلى الغرب فإننا نشير بشكل خاص إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى اتخذت السياسة الأكثر غلوا، ولكن أوروبا لم تعارض هذا التوجه الأمريكى جذريا ولم تقدم بديلا متماسكا للعلاقات بين الإسلام والغرب، وكان خلافها مع الولايات المتحدة تكتيكيا خاصة ألمانيا وفرنسا وبلجيكا. بل لقد عادت بنا الولايات المتحدة إلى مرحلة الاستعمار التقليدى مرة أخرى باحتلال أفغانستان والعراق والتهديد باحتلال دول أخرى.

وبالتالى نحن أمام الوضع التالى:

العالم الإسلامى لا يتدخل (ولا يقوى) فى الشئون الخارجية للعالم الغربى، بينما يتعرض هو للاعتداء والاحتلال والتدخل فى أخص شئونه الداخلية.

والعقيدة الإسلامية توفر أعدل منهج للتعايش السلمى بين الحضارات، ولكننا لا يمكن أن نرفع شعار الحوار الحضارى مع الجيوش الغازية لأراضينا والمتواجدة فى عدد كبير من الدولة العربية والإسلامية.

أما المنهج الذى نعتبره الأكثر عدالة، فقد نص عليه القرآن الكريم فى قواعد نعرضها للاحتكام إليها، وأين يمكن أن نجد معيار أكثر عدالة من ذلك؟! وإذا زعم أحد أن هناك ما هو أفضل من ذلك، فنحن على استعداد لمناقشته باعتبار أن الغرب فى مجموعه لا يؤمن بطبيعة الحال بقداسة ما ورد بالقرآن الكريم، ولكننا نعرضه للمناقشة العقلية البحتة.

**﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [الممتحنة: ٨-٩].

من هاتين الآيتين نستخرج مجموعة من القواعد الأساسية التى تحكم علاقة المسلمين بغيرهم سواء أكانوا أهل الكتاب أو مشركين أو غير مؤمنين بأى دين من الأديان:

١- أن المسلمين ملتزمون بحسن العلاقة مع غيرهم من بنى البشر، ذلك أن الأصل فى الإسلام هو السلام والمحبة، ونشر البر والعدل بين الناس قاطبة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم(٢).

٢- أن عداوة المسلمين يجب أن تنصب حصرا على الذين يحاربونهم لتغيير دينهم، أو يعتدون على حرماتهم: النفس والوطن.

٣- أن المسلمين لا يحاربون ولا يعادون ولا يعلنون الجهاد ضد الآخرين بسبب عقيدتهم ولكن دفاعا عن النفس والعقيدة وهى ضرورة

للمحافظة على الـذات، فإذا انتفى هذا المبرر فلا مـجال للحديث عن قطع كلّ صلات بالمخـالفين فى الرأى فضلا عن قتـالهم، فالنهى عن الصداقة والمحبة والتحالـف منصب على الذين مايزالون مستمرين فى حربهم وعداونهم.

●●●●●

نحن إذن أمام قاعدة أساسية واحدة تجمعها هذه الأبعاد الثلاثة..

أن العلة فى المقاطعـة والقتال والعداوة، هى الفـعل الدفاعى ردا على العدوان وحـماية النفس والوطن والعقـيدة، وليس لنشـر الدين بالقوة أو لابادة المخالفين فى الرأى والعقيدة.

وهذا أمر بديهى لا يمكن أن يرفضه أحـد بأى منطق وبأى معيار، فأنا باختصار أطالب من المخـالف لى بالحد الأدنى الذى لا يمكن الهبوط عنه وهو (ألا يقـتلـنى) و (ألا يخـرجنى من وطنى) هذ مـطلب عـادل لأنه غريزى، ولأنه مطلب لكل إنسان على الأرض، وأن التفريط فى هذا الحد الأدنى معناه: العدم!!.

ربما يرد أحـد الغـربيين فـيـقـول هذا كلام حـسن ولكـننا لم نراه فى التاريخ، وما فائدة الكلام الحسن الذى لا يمكن أن يطبق، ونقول:

أولا: أن التاريخ يثبت أن هذه المقولات لم تكن غائبة.

ثانيا: حتى وان اختلفنا فى تقييـم التاريخ فإننا نقترح على الغرب هذا الميثـاق من جديد خاصة وأنهم عندمـا يتحدثون عن خطر الإسـلام كقوة

غازية لا يجدون إلامعارك بواتيـيه (٧٤١م) وفيينا (عام ١٦٨٤م). ونحن الذين نتعرض لحملات عسكرية متواصلة بل ومذابح فى القرون الأخيرة خاصة خلال القرنين الأخيرين ١٩ و٢٠.

## نظرة على التاريخ:

فى إطار هذه الورقة المكثفة يصعب تقديم عرض أو تحليل شامل لتاريخ العلاقات بين الإسلام و الغرب.. وهنا نكتفى بعدة محطات.

### المحطة الأولى:

الدعوة الإسلامية فى موطنها الأصلى لا يمكن أن تقارن معاركها التى فرضت عليها بأى معارك فى التاريخ السابق أو اللاحق لها من حيث محدودية العنف، فالمعارك فرضت أولا على المسلمين بقتلهم وتعذيبهم وإخراجهم من ديارهم على مدار ١٣ عاما، وعندما تأسست دولة المدينة خاضت دفاعا عن النفس والعقيدة خمسين مواجهة عسكرية كان عدد ضحاياها بأجمعها لم يتجاوز تسعمائة رجل فى المعسكرين سقطوا فى ساحة القتال خلال ١٠ سنوات(٣)، قارن هذا العدد بالحرب الدينية الأوروبية التى عرفت بحرب الثلاثين سنة (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) والتى كانت حربا كاثوليكية بروتستانتية وأدت إلى مقتل ٣٠٪ من السكان فى وسط أوروبا (٤).

أما موقف الدين الإسلامى فى بداية عهده من اليهود.. فقد كانت وثيقة المدينة التى أعطتهم حق المواطنة الكاملة مع المسلمين، ولكنهم هم الذين رفضوا هذه المواطنة وتعاونوا مع الأعداء ضد مدينتهم فكان الصدام.

أما بالنسبة للامبراطورية الرومانية فهى التى بادرت بالعداء للدين الجديد من خلال قبائل الغساسنة الحليفة، حتى أن مبعوث الرسول إلى هرقل قد تم قتله. وقد كانت هذه المواقف وراء غزوات مؤتة وتبوك وبعثة أسامة بن زيد.

أما بالنسبة للدولة الفارسية فقد كان الفرس يضطهدون الفرق المخالفة لعبادتهم (النار) من يهود ونصارى وصابئة وبوذيين ومانويين، وكان للفرس قبائل عربية تابعة لهم فى الحيرة وكانوا يحتلون البحرين واليمن، وعندما تلقى كسرى كتابا من محمد عليه الصلاة والسلام مزقه وأرسل إلى عامله على اليمن يأمره بأن يرسل رجلين قويين من عنده ليأتياه بمحمد (أو رأسه فى رواية أخرى). ثم بدأ عرب الحيرة التابعون للفرس الاعتداء على المسلمين المجاورين لهم. فأرسل أبو بكر خالد بن الوليد ليكف أذاهم، ويؤمن جيرانهم المسلمين وعندما انتصر عليهم حنق ملك الفرس وثار لأتباعه فكانت الحرب بينه وبين المسلمين فى عهد عمر(٥).

**المحطة الثانية:**

عندما شنت أوروبا الحروب الصليبية التى دامت قرنين كاملين، وكانت اعتداء ماديا من جيوش أوروبية على أراضى مسلمين مشارقة، ٨ حملات وحشية. ونكتفى بما حدث فى القدس كرمز لهذه المرحلة.

دخل الصليبيون القدس بمجزرة ذبح فيها سبعون ألفا من المسلمين، غرقت الدروب كما يحكى المؤرخون فى الدماء، وخاضت الخيول حتى الركب فى السائل الأحمر.

لكن بعد ذلك، طرد صلاح الدين الأيوبى الفرنجة من القدس، ليكون المؤرخون الأوروبيون أول المنبهرين بسماحة وحلم وسلم القائد الكبير المنتصر مع أعدائه المنهزمين(٦).

وقد سجل المؤرخون أن الصليبيين عندما دخلوا القدس أحرقوا يهود القدس أحياء فى كنيسهم، فى حين تم الإبقاء على معظم الأماكن المقدسة المسيحية واليهودية بدون أن يمسها سوء خلال الحكم العربى الإسلامى كله(٧).

**المحطة الثالثة:**

الحروب التى دارت على الأرض الأوروبية سواء فى الأندلس أو فى شرق أوروبا فى العهد العثمانى. ويعترف كثير من المؤرخين الغربيين (مثل المؤرخ البيزنطى خالكو كونديلاس khalkokondylas والمؤرخ الإنجليزى جيبون Gibbons) وغيرهم كثير بأن النظام العثمانى كان يتعامل مع الدول والأشخاص غير المعادين بالحسنى واللين والكرم مهما كانت أديانهم وأنه عامل الأرثوذكس معاملة أفضل بأضعاف من معاملة الكاثوليك للأرثوذكس(٨).

وكان فتح القسطنطينية هدفا رئيسيا للسياسة الإسلامية منذ القرن الهجرى الأول لأنه من القسطنطينية كانت تصدر قرارات الحرب لغزو ديار الإسلام والاغارة على الثغور.

ويعترف نورمان بينز بأن «عداوة بيزنطة للإسلام بقيت ما بقيت الامبراطورية».

ويتحدث «فازليف» فى بحثه «بيزنطة والإسلام» عن تفضيل الأرثوذكس الأتراك العثمانيين على (الكاثوليك) أشقائهم فى الدين فيقول (لا زال الناس يرددون تلك المقالة المأثورة التى صدرت عن رئيس دينى بيزنطى يدعى «لوكاس فاتوراس» فى ذلك الحين وهى: «أنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية فى مدينتنا من أن نرى تاج البابوية»).

ومن المهم فى هذا الصدد أن نشير إلى شهادة «نهرو» زعيم الهند الهندوسى..

«ومهما يكن من أمر فالواقع أن سلاطين الأتراك العثمانيين كانوا متسامحين جدا مع الكنيسة الاغريقية الأرثوذكسية»(٩).

ولعل هذه الشهادات تغنينا عن سرد تفاصيل رهيبة من خلال عملية مقارنة تاريخية بين سياسة الدولة الإسلامية العثمانية، وسياسة الإمارات الأوروبية التى كانت تستخدم أساليب الاستئصال والافناء الكلى بالمعنى الحرفى، أى قتل جميع المسلمين فى المناطق التى يسيطرون عليها، حدث هذا بنسبة ١٠٠٪ فى الأندلس، وبنسبة ١٠٠٪ فى مناطق كثيرة بشرق أوروبا، رغم أن الأغلبية الساحقة من مسلمى شرق أوروبا هم من أصل أوروبى (وليسوا أتراكا) ودخلوا الإسلام طواعية، لأنهم لو كانوا دخلوا مكرهين، لتحولوا سريعا إلى المذاهب المسيحية بمجرد انكسار الجيش العثمانى فى بلادهم. وحدث الاستئصال بنسب أقل من ١٠٠٪ فى مناطق أخرى. وحقائق التاريخ مفزعة، فالمسلمون كانوا أكثر من ٥٠٪ من سكان بلغاريا فى القرن التاسع عشر أما فى احصاء ١٩٨٢ فقد أصبحوا يمثلون ١٧٪ من السكان!

وكان عدد المسلمين فى اليونان يقارب نصف العدد الإجمالى للسكان حتى عام ١٨٣٢أما الآن فهم يمثلون ٣٪ من السكان!!

وفى جزيرة كريت كان المسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة من سكانها حتى منتصف القرن التاسع عشر، وظل المسلمون متواجدين حتى عام ١٩١٣، أما الآن فلا وجود لأى مسلم فى الجزيرة فى وقتنا الحاضر؟![١٠].

••••

وإذا عبرنا مرحلة الاستعمار الحديث (الاحتلال الفرنسى ـ الانجليزى ـ الأوروبى عموما) لبلاد العرب والمسلمين والتى كانت فى الحقيقة حملة صليبية تاسعة ولكن بشعارات مختلفة، فإننا نواجه الآن حملة استعمارية صليبية عاشرة. ومن المؤكد أن أى قوات إسلامية لم تطأ أرضا أوروبية أو أمريكية منذ أواخر القرن التاسع عشر. ولا يمكن تبرير هذه الحملة لاحتلال أراضى العرب والمسلمين بالعقد القديمة من الدولة العثمانية حتى وإن سلمنا بأى وجهة نظر غربية متطرفة ضد هذه الحقبة، فلا يمكن تبرير الحروب بالهواجس التاريخية القديمة. ومن المفترض أن الأجيال والعهود المختلفة تحاول فى عصرها أن تضع ضوابط فى العلاقات السياسية الداخلية أو الدولية.

فى هذه الغزوة المعاصرة الصهيونية ـ الأمريكية، تقدم تبريرات بأن هدفها هو البترول (وأنها ليست حربا دينية) وكأن الاستيلاء على بترول العرب والمسلمين مسألة مشروعة أو مبررة أو فيها نظر، وكأن الاستيلاء

على مكامن قوتنا الاقتصادية لا يؤدى إلى اضعافنا واذلالنا وتحويلنا إلى تابعين.

وتردد كثير من الأبحاث والدراسات أن سقوط الاتحاد السوفيتى، وإنتهاء الصراع السوفيتى - الأمريكى، الشيوعى - الرأسمالى، هو الذى فتح الطريق للصراع بين الغرب والإسلام، والحقيقة أن العداء الغربى للإسلام لم ينقطع (الثورة الإسلامية الإيرانية وثورة الإنقاذ السودانية حوربتا من الغرب رغم وجود الاتحاد السوفيتى)، ولا يقلل من هذا الموقف التكتيكى لأمريكا من الجهاد الأفغانى ضد الاحتلال السوفيتى، فلاشك أن الخطر السوفيتى كان الخطر رقم واحد، والآن ارتفع الإسلام إلى المرتبة الأولى وأصبح فى الصدارة، رغم أنه لم يتشكل بعد كقوة عظمى، بل تسعى أمريكا والغرب للحيلولة دون قيام هذه الدولة العظمى ذات الرؤية الحضارية البديلة، وهى بهذا المعنى المنافس الوحيد للهيمنة الأمريكية والغربية، هذا بالاضافة إلى البعد العددى حيث تقدر الدراسات المستقبلية الغربية أن المسلمين سيشكلون ٤٠٪ من البشرية منتصف القرن الحالى. هذه الرؤية ليست بنت مرحلة العولمة أو النظام العالمى الجديد أو ما يسمى المسيحية الصهيونية المسيطرة الآن على السلطة فى واشنطن ولندن. فقد سبق ارنست رينان المؤرخ ذائع الصيت أن قالها بصراحة وفظاظة عام ١٨٦٢: «أن الشرط الأساسى لانتشار الحضارة الأوروبية هو تحطيم الإسلام وتلك هى الحرب الدائمة، حرب لن تضع أوزارها إلا بعد أن يموت بؤسا آخر حفيد لإسماعيل أو يرد على عقبيه إلى أعماق

الصحراء، لأن الإسلام هو أكبر نفى لأوروبا، ستفتح أوروبا العالم وتنشر دينها المتمثل فى القانون، فى الحرية، فى احترام الإنسان، وهى عقيدة ذات طابع إلهى تحملها البشرية».

وهذا نفسه ما يقوله جورج دابليو بوش الآن عن أنه يشن حربا باسم السماء، وأن الله قد اختار الشعب الأمريكى لأداء هذه الرسالة. وما يقوله ممثلو الكنيسة المعمدانية الجنوبية - التى خرج من عباءتها معظم رؤساء أمريكا - من أمثال جيرى فولويل وبات روبرتسون، وما يقوله رامسفيلد ومساعدوه، وهو يتضمن إعلان حرب على الإسلام كدين، وليس على ما يسمى الحركات الإرهابية. (الرسول محمد ﷺ إرهابى - القرآن كتاب يحض على العنف - إله المسلمين وثن - وعندما نحاربهم فنحن نحارب الشيطان.. إلخ).

ولاشك أن الصراع ينطوى على استراتيجية للهيمنة والسيادة العالمية وأن هذا التوجه العدوانى مشبع بالمصالح الاقتصادية والسياسية، ولكنه يستظل بهذه المظلة العقائدية (المسيحية الصهيونية، التى تربط نهاية العالم بعودة المسيح عقب معركة هرمجدون.. وعقب تجمع اليهود فى فلسطين، وهدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل على أنقاضه)، وبكل هذه المعانى نحن أمام حرب دينية حضارية.

وعبر التاريخ فإن القوى العظمى لا تتخلى طواعية عن سيادتها العالمية، ولا تتراجع إلا عندما تتغير موازين القوى التى تجبرها على هذا التراجع. ولكننا نزعم أنه عندما سادت حضارتنا فإننا لم نفرض ديننا

ورؤيتنا على المخالفين لنـا فى الدين. هذا حدث فى أوروبا، وحدث فى الهند التى ظلت أغلبيـتهـا هندوسيـة فى ظل الحكم الإسـلامى المديد، وحدث فى مجـمل أراضى آسيا، وحدث فى قلب المنطقة العـربية ذاتها، حيث لم تتعرض الأقليات المسيحية إلى أى حالة من الاستئصال. ويكفى أن نشيـر إلى حالة مصـر، حيث ظل المسلمون مـنذ الفتح عـام ٦٤٠م - ٢٠ هجرية أقليـة لأكثر من قرنين، وظل الإسـلام ينتشر بصورة طـوعية بطيئة حتى أن المسـلمين لم يصبحوا أغلبية إلا فى عـهد الدولة الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥م، ٢٥٤ - ٢٩٢ هجـرية)[١١]. وقارن ذلك بمـا حدث فى الأندلس وبلغاريا واليونان.. إلخ.

••••

ولا نطرح كل ذلك على سبيل التفاخـر أو الكيد، فنحن على استعداد دائما لفتح صفحة جديدة، ونحاول فى عصرنا الحديث أن نضع الضوابط الدوليـة الـتى يمكن أن تحكم تعـايش الحـضـارات. ولكـنهم، ولأنهم الأقـوى، لا يستـمـعون إلينا إلا على سـبـيل الخداع ومـضـيعـة الوقت والمناورة. ونحن نشيـر إلى الفئات الحاكـمة المسيطرة والتى تحظى بقـبول الأكثرية، ولا يعنى ذلك عدم وجود فئات أو شرائح أو منظمات أهلية فى الغرب يمكن الـتحاور بل والتـعاون معـها. ولقد كـانت هناك ولا تزال فرصة تاريخية لإنشاء جبهة عالميـة إنسانية ضد مشروع الهيمنة الأمريكية - الصهيونية، ولقد قدمت الحركات الشعبية فى الغرب المناهضة للحرب فى العراق فرصـة لهذه الجبهة الإنسـانية ضد الحرب وضد العـولمة (الهيمنة) الأمريكية.

ولكن حديثنا ينصب على القوى المسيطرة فـى الغرب (وأمريكا خاصة) والتى تحظى بقـبول شعـبى عام من خـلال الانتخابـات. وهذه لا يجوز الحـوار مـعـهـا وهى تعـتدى وتحـتل أراضـى المسلمين وتسـاند الكيـان الصهيـونى، وتستهين بمقدسـاتنا، بل وتقيم حكومات يرأسهـا أمريكيون (كرزاى ـ بريمر)، بل وصـل الأمر إلى حد اسـتباحـة المدنيين على نطاق واسع، استباحة النساء والشيوخ والأطفال فى حالتى الحرب أو الاحتلال. (فلسطين ـ العراق ـ أفغانستان كحالات صارخة). فهؤلاء لا يمكن الحوار معهم إلا بالسيف حتى يتراجعوا عن عدوانهم.

ان موقفنا كمـسلمين من الغرب تحكمه الآيتان المشار إليـهما من سورة الممتحنة ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ..** ﴾والتى حولها الفقه الإسلامى مع آيات أخرى إلى هذا التقسيم الأزلى الذى لا يعتوره أى تبديل عبر الأزمان لأنه مشتق من القرآن الكريم.. أى تقسيم العالم إلى:

١ ـ دار السلام. ٢ ـ دار الحرب. ٣ـ دار العهد.

- فدار السلام هى دار الإسلام حيث يـتعين أن تكون أمة واحدة،والأمة الواحدة يتـعين عليها أن تحكمهـا تقاليد الإسلام حـتى أن الذى يخرج عليها بغيا يتعين محاربته لرده إلى الصواب ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠].

ويدخل فى دار السلام بطبيعة الحـال كل مواطنين الدولة الإسلامية من أهل العقائدَ غير الإسلامية حيث تكون لهم حقوق المواطنة الكاملة.

- دار الحرب هى الدول غير الإسلاميـة المحاربة للمسلمين، المعتدية على أراضيهم، المستـبيحة لديارهم ومقدسـاتهم أو التى تبيد المسلمين على أراضيها.
- دار العهـد هى الدول غير الإسـلامية التى - بتعـبيرات العـصر - توقع معاهدة عدم اعتداء مع العالم الإسـلامى، وتلتزم بها، وتصون حقوق المسلمين لديها، فهذه يمكن التعاون وإقامة علاقـات طبيعية تماما معها. أقرب مثـال لها الآن الصين وبعض الدول الأوروبية (كفـرنسا وألمانيا) ودول أمريكا اللاتينية.

●●●●

ويتعين أن نطالب الدول الغربية الموجـودة فى خانة دار الحرب أن تنتقل إلى خانة دار العهد، وهى مطالبة ساذجة، إذا لم تكن مرهونة بتنامى قوة المسلمين، وتغيير موازين القوى، ولكن ضعفنا المادى الراهن لا يبرر - من الناحية الشرعية - التغاضى عن دول دار الحرب واعتبارها وكأنها دول من دار العهد. والجهاد فى فلسطين والعراق وأفغانستان يؤكد أن المقاومة ممكنة رغم الفجوة التكنولـوجية. وأن المعتدين لابد أن يألموا - كـما نألم - حتى يستمعوا إلى كلام الحق. ولنلحظ هذه الدقة القرآنية فى الربط بين الحرب والسلام.. حيث يتضح لنا أن القوة أساس السلام، وهذا ما أكدته وقائع التاريخ.

**﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾** [الأنفال: ٦٠] يتبعها مباشرة..

**﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [الأنفال: ٦١].

أى عندما تمتلكون من أسباب القوة ما يكفى فان باب السلم سينفتح.

وعلينا في هذه الحالة أن نقبل بالسلم حتى وإن كانت النوايا غير خالصة وغير موثوقة: **﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنفال: ٦٢].

وحتى عندما نبرم العهود فإننا لا ننقضها، ولا ننقض على الدول غير الإسلامية بأسلوب الغدر والخيانة، ذلك إن الغدر مرفوض حتى مع المخالفين لنا فى الدين.

**﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾** [الأنفال: ٥٨].

والمقصود أننا إذا لاحظنا بوادر الخيانة من الآخرين، كحشد الحشود على الحدود، والخروج عن شروط معاهد السلام فإنه يتعين توجيه الإنذار قبل تبديل موقف السلم إلى الحرب، وهذا ما أقر به القانون الدولى مؤخرا..

●●●●●

والأمر المثير للحذر والقلق، أن الولايات المتحدة تتحدث عن أن أمنها القومى مهدّد من المسلمين، وهذه مبالغة لا معنى لها، فأين هى الدولة الإسلامية التى يمكن أن تهدد الولايات المتحدة، ولكن الولايات المتحدة تعتبر أن حدودها تشمل كل الكرة الأرضية، وهذا أمر غير مقبول ولا يمكن التسليم به إلا لمن يريد أن يلغى شخصيته وحضارته ووجوده.

وفى النهاية نقول: إن حوار الحضارات كلمة حق ولكن يجب ألا يراد بها باطل، وهو خداعنا وكسب الوقت لمزيد من احتلال الأراضى، وألا يكون حوار الحضارات معناه، أن نغير ديننا (الخطاب الدينى) ونظم تعليمنا وثقافتنا، ونستغنى عن استقلالنا، وأن نتطابق مع مفاهيم العولمة الأمريكية فى شتى المجالات.

كذلك فإن الحوار بمعناه الفكرى الحضارى مرفوض مع المعتدين المحاربين لأن هؤلاء لا يعرفون ولا يستجيبون إلا للغة القوة.

ولكن فى المقابل علينا أن نشن هجوما سلاميا بالحوار مع كافة الحضارات والدول غير المحاربة فى آسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية، وأن نسعى لتأسيس جبهة إنسانية عالمية حكومية وشعبية لمحاصرة العولمة الأمريكية ـ الصهيونية فى مرحلتها العسكرية المتغطرسة.

**الهامش:**

١ ـ مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى ـ المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٩٨ ـ ص٢٢.

٢ ـ تفسير القرآن الكريم من سورة الأحقاف إلى سورة المرسلات ـ أحمد حسين ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مصر ١٩٧٦ ـ ص٣٨٥.

٣ ـ الإسلام والحداثة ـ عبد السلام ياسين ـ دار الآفاق ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ـ ص٢٠٨.

٤ ـ هل تحتاج أمريكا إلى سياسة خارجية؟ هنرى كيسنجر ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ ٢٠٠٢ ـ ص١١.

٥ ـ الجهاد ـ د. أحمد محمد الحوفى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مصر ـ ١٩٧٠ ص١٦٨.

٦ ـ الإسلام والحداثة ـ مرجع سابق ـ ص٧٨.

٧ ـ الغرب والإسلام ـ مجموعة دراسات مترجمة ـ دار جهاد للنشر والتوزيع ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٤ ـ ص١٤٣ ترجمة وتحليل منى ياسين، مراجعة وتعقيب د. محجوب عمر.

٨ ـ تاريخ الدولة العثمانية ـ يلماز أوزتونا ـ منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ـ تركيا، استانبول ـ ١٩٨٨ ـ الجزء الأول ـ الطبعة الأولى ص١٠٢.

٩ ـ المسألة الشرقية ـ محمود ثابت الشاذلى ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٩٨٩ الطبعة الأولى ص٤١،ص١٠٢.

١٠ ـ الإسلام والمسلمون فى بلاد البلقان ـ محمد خليفة ـ مركز دراسات العالم الإسلامى ـ مالطة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٤ ص٢٣٠، ٢٣١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٧١٣.

١١ ـ موسوعة تاريخ مصر ـ أحمد حسين ـ دار الشعب ـ مصر ـ الجزء الثانى ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٣ ص٥٠٠.

# الفهرس

| الموضـــوع | الصفحة |
| --- | --- |

## الفصل الثالث



## الفصل الرابع



## الفصل الخامس

# كتب للمؤلف

١ ـ الجهاد صناعة الأمة. (الطبعة الثانية)
٢ـ فقه التغيير السياسى فى الإسلام. (الطبعة الثالثة)
٣ـ أزمة الخليج وحرب الأفغان.. بين أحكام القرآن وفتاوى السلطان. (الطبعة الثانية)
٤ـ من كامب ديفيد إلى مدريد. (الطبعة الثانية)
٥ـ هموم الأمة مع نهاية القرن.
٦ـ مصر والسودان (التمرد ـ الحصار ـ الإنقاذ). (الطبعة الثانية)
٧ـ الإسلام والعروبة. (الطبعة الثانية)
٨ـ أمريكا .. طاغوت العصر. (الطبعة الثانية)
٩ـ الخيانة .. الملف الأسود للزراعة فى مصر.

**عزيزى القارىء:**

إذا أردت الحصول على أى من
اصدارات المؤلف، اتصل بـ:
محمول ٠١٢ / ٣٣٧٥٤٠٤

أو راسلنا على البريد الالكترونى :

**Tarekalkarket@Hotmail.com**